سلسلة الإبداع (١)

عناقيد

(أدب وفن)

تأليف

عبدالرحمن طيب بعكر

مؤسسة الإبداع للثقافة والآداب
صنعاء

الطبعة الثانية
مصحّحة ومنقّحة
١٩٩٧ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يسر مؤسسة الإبداع للثقافة والآداب والفنون، أن تقدم لعشاق الأدب والدراسات النقدية هذه العثكلة من العناقيد، اقتطفتها من أفنان دوحة الأدب والتاريخ والفن: عبد الرحمٰن طيب بعكر الحضرمي اليمني؛ لتكون فاتحة الانطلاق إلى حدائق الثقافة والآداب.

صنعاء

٧/١١/١٤١٦ هـ

٢٦/٣/ ١٩٩٦م

ص.ب. (١٥١٢٧)

الجمهورية اليمنية ـ صنعاء

فاكسميل (٢٠١٧٣٩)

الإهداء

أهدي هذه الوشيعة البديعة، بل هذه الوديعة المنيفة، من عناقيد إلى الأخ الدكتور العقيد: عبد الولي عبد الوارث الشميري، عرفاناً بعشقه الحقيقة وخدمته لها: مجاهداً في هكمان، والعند، وشمسان، ومربِّي جيلاً في السهول والمدن والوديان، وحاضن كلمة مشرقة ونغمة مونقة، من ديوان إلى ديوان؛ من نتاج شعراء يمن الإيمان.

جاءت عناقيد وعادت إليك	تحمد مولاها وتثني عليك
أنضج في عنقودها كَرْمُها	فأصبحت أزكى دوالي مُسَيْك
غيسانة فينانةٌ بالغذاء	وبالشذا يا جيل فاشدد يديك

عبد الرحمٰن طيب علي بعكر الحضرمي

بين يدي عناقيد

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] فالحمد لله، وصلاة وسلاماً على من في اتباعه النجاة، وفي مخالفته الهلكة ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤] سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين.

عزيزي القارئ، ترجو هذه العناقيد أن تحسن أنت وفادتها إليك، ونزولها عليك، وتقديمها نفسها بين يديك، في عذرية الفطرة وإشراقة الزهرة، وهي لم تأت كما تراها اعتباطاً، ولم تجمع وتنتظم ما جمعته وانتظمته صدفةً، وإنما هو الجهد الجهيد، والدأب المديد.

وما أحسب هذه العناقيد تعدو قدرها وتتجاوز مستواها، إن هي أسرّت في أذنك أنها تقدم لك بين دفتيها، ما لم تقدمه دفتان قبلها، من جودة انتقاء، وجمال عرض، ووضوح بيان. ولقد حرصت هذه العناقيد أن تعود بك إلى النبع الأول للشعر العربي؛ لتشرب منه، وتعب، وتكثر الارتواء.

ولأن الشعر اليمني في أغلبه مطمور، مشتت مشرقاً ومغرباً «أيدي سبأ» فقد وقفت باباً كاملاً على أهم معطياته، وخَصَصْتُ فارس اليرموك والقادسية ونهاوند عمرو بن معدي كرب. ونزيل مصر عمارة بن علي بن زيدان الحكمي بالانتقاء من المنشور الطائر من شعرهما في هذه الوقفة. ومع أن الدكتور: (أحمد عبد الله السومحي) توفر على دراسة مستقلة، تجمع شتات الشعر اليمني في القرنين الأول والثاني الهجريين ـ شكر الله له ذلك ـ إلا أنه فاته الكثير المنشور من شعر ابن معدي كرب.

وأضفت إلى ذلك اختيار وتنقيح وتصحيح باقة من شعر السلطانين الحجوريين، وشعر أكبر شاعر يمني عمراً زمنياً، وعمراً شعرياً، بحتري اليمن: القاسم بن علي بن هتيمل. راجياً أن يفيد من هذه العناقيد القارئ العام، والقارئ المختص، وطالب الثانوية، وطالب الجامعة، وما بعد الجامعة. وراجياً أيضاً أن

نتعلم من هذه العناقيد: كيف كان الشعر لدى شاعره العربي الأول، جاهلية وصدر إسلام، ناقلاً أميناً لبوح خبايا الذات الشاعرة، في نطاقها الفردي، وحارساً فعالاً للقيم على نطاق المجتمع؛ فاستحق لهذا أن يكون وعاء الثقافة العربية، وديوان مكارمها. واستحق أيضاً أن تختزنه القلوب في الطوايا، قلوب النساء، فضلاً عن الرجال، مصدر تربية للأبناء، ومصدر تحفيز وتوجيه للكهولة والشباب، وأقرب الأمثلة على ذلك موقف أم المؤمنين العالمة الراوية الذواقة عائشة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ من أبناء أخيها محمد بعد مقتله بمصر، فضمتهم إليها حتى ناهزوا البلوغ، ثم أسلمتهم لعمهم أخيها، عبد الرحمٰن؛ معتذرة إليه أنها فعلت ما فعلت، إشفاقاً على الأيتام من إهمال نسائه لهم، أو جفائهن عليهم، ثم اختتمت اعتذارها طالبة منه أن يكون لهم كما كان حجية بن المضرب لأيتام أخيه معدان. فما خبر حجية هذا؟

إنه عربي جاهلي، جلس يوماً بفناء داره، فرأى جارية لأخيه المتوفَّى خارجة بعس فيه لبن، ولما استفسرها عرف منها أن ذلك لأولاد أخيه المساغيب، فصمت منتظراً إياب رعاته بإبله، وما أن عادوا حتى ساق الذود بكامله إلى منزل أيتام أخيه، وأعطاهم منه غبوق مسائهم (شراب المساء) وصبوح نهارهم (شراب الصباح). وحين عاتبته زوجته على ما فعل، أنشأ يشرح لها موقفه، ويخيرها ما بين الرضا بما فعل فتبقى معه، أو إصرارها على الرفض فترحل عنه:

لجِجنا ولجت هذه في التغضب ... ولطَّ الحجاب دوننا والتنقب
تلوم على مالٍ شفاني مكانه ... إليك فلومي ما بدا لك واغضبي
رأيت اليتامى لا تسّد فقورهم ... هدايا لهم في كل قعب مشعب
فقلت لعبدينا أريحا عليهم ... سأجعل بيتي مثل آخر معزب
بنيّ أحق أن ينالوا سغابة ... وأن يشربوا رنقا لدى كل مشرب
ذكرت بهم عظام من لو أتيته ... حريباً لآساني لدى كل مركب
أخي والذي إن أدعه لملمة ... يجبني وإن أغضب إلى السيف يغضب
فلا تحسبيني بلدما أن نكحته ... ولكنني حجية بني المضرب
رحمت بني (معدان) إذ ساق مالهم ... وحق لهم مني ورب المحصب

فإن تقعدي فأنت بعض عيالنا وإن أنت لم ترضي بذلك فاذهبي

وكنت أود اختتام العناقيد بوقفة بيانية تكشف ما كان عليه أسلافنا من تجوز في مجال الصياغة الشعرية، رجاء أن أُصحح بذلك تصوراً خاطئاً لدى البعض من المتهمين لهم بالتشدد البالغ حد التنطع في ذلك؛ فيعرف ناشئتنا أن أجدادهم كانوا يبيحون ويتجوّزون تسهيلاً لاكتمال الفنية الشعرية، قصر الممدود مثلاً وحذف الهمزة من المهموز وليس العكس. ويتجوزون أيضاً في ضمائر الإفراد والتثنية والجمع ويتجوزون أيضاً في ضمائر التأنيث والتذكير إلى ما شابه ذلك، لولا أني رأيت ترك القارئ يستمتع بطلاقة مع شعر العرب، في الحيوان عامة، والطير خاصة. وإني لأدهش إذ أرى ضآلة عطائنا الشعري المعاصر في هذا المجال، الذي كان أولى بالغزارة والخصب لكونه مجال الخيال، ونبع العاطفة. ولعل في انصرافهم عنه ما يدل على العزوف عن رحابة الطبيعة ووداعتها وجمالها. استغراقاً في ضجيج المدينة وتعقيداتها وإظلامها:

عشتروت الشعر هل من رفرفٍ دافئ الوجدان فجري المحيا

صوحت كل الرياحين فهل تمنحينا الفن فردوساً نديا

عبد الرحمٰن طيب بعكر

بعد ظهر الجمعة ٣ شعبان ١٤٠٩ هـ

١٠ مارس ١٩٨٩ م

العنقود الأول

الشعر:
المعاناة البوح وحراسة القيم

العنقود الأول

الشعر:

المعاناة البوح وحراسة القيم

الشعر متنفس إنساني عام، نقول: الشعر متنفس إنساني عام، وذلك حق، وحق مثله أن نقول: إنه متنفس كوني عام، تتنفس الأطيار فيكون الشدو، وتتنفس الأزهار فيكون العبير، وتتمخض السحب فتكون الرعود والآلاء. وإلى هذا يشير كثير في بيته عن ناقته:

لـهـا أنـة عـنـد الـعـشـاء وأنـة سـحـيـراً ولـولا أنـتـاهـا لـجـنـت

وتنفس الإنسانية بداهة يتأتى بأية لغة، وعلى أي وجه. ومنذ كانت العربية فيما يقول علماء اللغات قبل البعثة بأربعمائة عام، أو كما يقول العقاد والحق معه: منذ أكثر من ذلك تنفس العربي الشعر في بداياته الأولى، وأنماطه الساذجة التي تلقفتها القرون، وطورتها الأجيال.

وأبرز أطوار مراحل الشعر وأطوار الشاعر العربي كانت:

١ ـ التعبير عن النفس رضاءً وغضباً، بطولةً وجبناً.

٢ ـ المنافحة عن القبيلة.

٣ ـ إيجاع العدو بالمثالب.

٤ ـ التودد إلى الملوك ابتغاء الرفد.

٥ ـ نشر العقيدة والدفاع عنها.

ولقد أقام الإسلام أول مدرسة شعرية ملتزمة؛ فتحت للشعر آفاقاً رحبة، رفعته من ترابية الأرض إلى الملكوت الأعلى؛ فسمعنا بطل مؤتة عبد الله بن رواحة يأتي بالبديع الرائع:

وفينا رسول اللّه يتلو كتابه   كما انشق إيوان من الفجر ساطع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه   إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وسمعنا نابغة جعدة يخاطب المنقذ الأعظم محمداً (ﷺ):

أتينا رسول اللّه إذ جاء بالهدى   ويتلو كتاباً كالمجرة نيرا
بلغنا السماء مجدنا وجدودنا   وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

وبانتهاء القبيلة انتهت أخلاقياتها، وتوارت من لغة الشعر واهتماماته. وبانتقال النفوذ من الفرد المتسلط إلى تزلف الجمهور، واكتساب رضاه، لم يعد الشاعر صنجاً في بلاط، أو مزماراً بديوان، وبقيت العقيدة أياً كانت الإبرة المغناطيسية لتوجيه سفينة الشعر اليوم.

ولكن ما هو المحتوى المعاصر للعقيدة بالمفهوم الشائع عنها؟ إن أوضاع العصر القائمة عالمياً وسعت مفهوم هذه الكلمة الكريمة، حتى صار يعني كل فكرة أو فلسفة اقتنع بها صاحبها[1]. وبدلاً من العقيدة التي يتنزل بها وحي السماء ويطبقها النبيون والمرسلون لينقذوا أقوامهم وأممهم، أصبحت فلسفة اقتصادية، أو نظرية اجتماعية، أو حتى برنامجاً سلوكياً، يضعه وجودي، فيعتنقه من شاء من هوام الأرض ودوابها الذين يترددون في مهالكها، روحياً وجسمانياً، ويثيرونها مذابح، وينشرونها حرائق باسم الصراع الطبقي والحفاظ على حقوق المسحوقين. وإذا كانت العقيدة الحقة هداية تستقر في الضمير؛ فإن عقيدتهم المعاصرة تأتي نتيجة ثقافة وضعها كاهن الحزب أو ساحر الطبقة، وتبعاً لانحراف المنبع وتلوثه تكون العقيدة النابعة منه مشابهة له؛ لأنها امتداده الطبيعي، وتبعاً لكل ذلك يكون أدب صاحبها. والشعر هو المقصود هنا ـ سائلاً غسلينياً قذراً. وذلك للأسف هو الداء

(١) ذلك ما ذهب إليه الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه: (صحوة راشدة).

المنتشر في العطاء الشعري إلا قليلاً لدى قلة موفقة راشدة. وإذا كان مؤرخو الأدب العربي يختلفون قديماً فيما أسموه بالعرب العاربة والعرب المستعربة، فقد تبدل الأمر في واقعنا العربي القائم، وأصبح الوضع منقسماً إلى فريقين: العرب المحافظة، وهم القائمون على حراسة تراث الأمة، والناشرون للجديد البهيج من شعرها. والعرب المستعجمة، وهم أولئك الذين رضوا لأنفسهم أن يكونوا دمى طيعة، وضمائر لدنة يقولبها العدو كما شاء. وما ان اتسعت لهم المراكز القيادية: أدبياً وتربوياً وإعلامياً في حياة الأمة حتى صاروا لا هم لهم غير الإغارة على تراثها العلمي والأدبي، وواصلوا حملتهم في مجال الشعر ضد الوزن والقافية أولاً، ثم ضد اللغة الفصحى وآدابها ثانياً، ثم انتهاك المقدسات والأخلاقيات أخيراً.

وعلى حين كانت تشكو الأمة مطلع هذا القرن العشرين الميلادي، ما ألحقته عصور الانحطاط بشعرها من ركاكة، وعبثية سخيفة، وتلاعب زخرفي خال من روح الشعر وثباته وإشراقاته، صار الحال اليوم ونحن نطل على العقد العاشر والأخير طامي الهول عظيماً، وعمق الهاوية مفزعاً في كل مجالات حياتنا الفكرية، نتيجة التخطيط الحاقد من أعدائنا، والتبديد الراصد من أبنائنا: عقيدياً وتعليمياً وشعرياً وإعلامياً. ودع عنك بقية المجالات من حياتنا التي بلغ التدمير فيها مداه.

من أجل ذلك كله كانت ضرورة البحث عن شعر الأمة الحق، الذي هو ترجمان وجدانها، ومرآة عواطفها وأخلاقياتها. وذلك كله لا يتوفر بحق إلا في شعرها الجاهلي والإسلامي الأول؛ حين كانت اللغة غضة، والنفوس مطبوعة بطابع الفطرة السليمة، والسليقة المستقيمة مبرأة من نفاق التزلف، وقذر الاستبداد الخانق للنفوس، والحاني للرؤوس، وتعقيدات المدنية الجامعة لكل الأوشاب والمتناقضات؛ لنستعيد ثقتنا بشعرنا الحق أولاً، ولنقوّم أذواقنا عليه وبه ثانياً، ونرى كينونتنا الأصلية ونفسيتنا الصافية ثالثاً. ولندحض دعاوى الغربان المستعجمة، من شعرائنا فيما ينبزون به شعرنا العربي الأصيل، من دعاوى التفكك والغموض والتعقيد على طريقة المثل: (رمتني بدائها وانسلت).

أهم ظواهر اللغة العربية

وإذ يلقي الدارس نظرته على المدوَّن من الشعر الجاهلي، وما تلاه من الشعر الإسلامي الباكر؛ يدهش لما يراه من الوفرة، وحين يأخذ الأمر بشيئ من التمعن والاستيعاب: يعلم أن تلك الوفرة شاهدة بما تمتاز به اللغة العربية من ظواهر أربع هي: الدقة، الوفرة، الاستمرار، التجدد، أما الدقة فتتجلى في ثراء اللغة بالكثير من المفردات التي قد يظنها البعض مؤدية لمدلول واحد، وليست كذلك، فإن كل مفردة تحمل دلالة خاصة وإن اتحدت المادة من مثل: الضياء، النور، السناء، ومن مثل: التراب، الطين، الحمأة، الصلصال، ولهذه الظاهرة تفصيل نعرض له في مكانه[١].

أما الوفرة فتتجلى في نطاق اللفظة المعجمية، تجد مثلاً صحاح الجوهري مستوعباً عشرين ألف مفردة، ويتلوه ابن دريد بجمهرته، وقد استوعبت أربعين ألف مفردة، ثم يأتي ابن منظور بلسان العرب مشتملاً ستين ألف مفردة، وأخيراً جاء صاحب القاموس المحيط بمعجمه الشامل الكامل، وقد أحاط بثمانين ألف مفردة. وعلى نطاق المجاميع الشعرية المختصة بالشعر الجاهلي، وطائفة من شعر صدر الإسلام تلتقي بمفضليات الضبي، والأصمعيات، وجمهرة أشعار العرب، ومختارات ابن الشجري، وحماسة أبي تمام، وقد حفلت بأكثر من عشرة الآف بيت، هي زبدة شعر ذلك العهد، والصحيح المبرأ من أي انتحال بإجماع المحققين الحفاظ.

أما الاستمرار: فإذا علمنا أن الأمة احتاجت لأربعة قرون قطعتها بعد مجيء الإسلام، في تدوين المرويات الشعرية، والقواعد النحوية، والصرفية، والعروضية، والعلوم البلاغية، وكل ذلك كان استنباطاً واستخراجاً من مادة جاهزة؛ فكم ترى احتاجت من قرون لابتكار المفردة اللفظية، واستحداث تراكيب الجمل، ثم التطور إلى وضع النغم الشعري بأوزانه وقوافيه، والاصطلاح على حقيقته ومجازه وتشبيهاته واسعاراته وكناياته، حتى يبلغ من الاستحكام والاستقرار في النفس والأذن مبلغ الذوق الغريزي والحاسة الطبيعية.

---

(١) راجع أوائل العنقود الثاني.

لا شك أن الأمر بهذا الاعتبار بحاجة إلى عشرات القرون ومئات الأجيال. ولقد جاء الإسلام، وتطاول الزمن، واللغة مستمرة متصلة لا انقطاع فيها ولا استبدال عنها، كما هو الشأن في اللغات الأصلية بأوروبا التي ماتت واستبدلت بعدها بينات وحفيدات لها.

أما التجدد فأنت تشهده فيما جاء به الإسلام من تعبيرات قدمتها مائدة القرآن والسنة النبوية غذاءً غنياً سخياً، وأنت تشهده فيما جاءت به العلوم الشرعية، والعلوم الطبيعية، وفيما دخلت به القوميات المعتنقة للإسلام من: فارسية وهندية وتتارية وررومية وبربرية وقوطية، حيث انتشرت لغة الضاد على ما يساوي نصف العالم القديم أو يزيد، ولا يزال التعريب قائماً على ساق، طوال القرون السالفة، وهو أشد ما يكون اليوم؛ لما أنشأته الحضارة الجبارة المعاصرة من: علوم وفنون ومخترعات، في سائر مجالات الحياة.

العراقة الشعرية ما تفسيرها؟!

بعد استطرادنا السالف الذي جرنا إليه حديثنا عن وفرة شعر العهد الجاهلي والصدر الإسلامي، نعود هنا محاولين الإجابة على سؤال ينشأ تلقائياً في نفس من يستقصي البداية الممعنة في الزمن لبواكير الشعر العربي، وأسباب تميز العرب بالشعر الموزون، على وجه غير معهود بين سائر الأُمم.

والحق أن الشعر تفرد فرد به؛ دون فرد آخر، سر لم يتوصل العلم إلى تفسير أسبابه لتغلغله في الأعماق والتلافيف الوجدانية والفكرية، حيث لا ينفذ مجهر ولا يجدي مسبار، ومن هنا كان الاكتفاء بأن الشعر موهبة السماء. وإذا كان التعليل يعجز في نطاق الفرد الواحد؛ فهو أكثر عجزاً في نطاق الشعب والأمة.

وقد حاول بعض الأقدمين من العرب الغلوّ بالعراقة الشعرية في لسانهم إلى حد أنهم قوّلوا آدم به، وقوّلوا من تلاه من الأحقاب الغائبة في مجاهل الزمن: كعاد وطسم وجديس وجرهم في عهد إسماعيل، الأمر الذي يحمل بعض الدارسين كالدكتور طه حسين على الإيغال في الإنكار، ونفي عروبة لسان اليمن، وبالتالي نفي شعر جاهلي كان منسوباً لها قبل الإسلام، وجعل جريرة ذلك برقاب الناحلين وضاعف اعتقاده بصحة ما ذهب إليه، ما اكتشف من نقوش الحضارة اليمنية، ولو

أنه عرف أن بين تلك النقوش والبعثه الإسلامية قروناً متكاثرة، تقاربت خلالها لهجات الجزيرة حتى صارت موحدة أو تكاد، ولو أنه أيضاً ذكر أسماء بلدان ووديان اليمن، وأسماء رجالها ونسائها الذين وفدوا على النبي ﷺ، ودونتها صحاح الحديث، وأمهات السنة؛ لعرف خطأ ما ذهب إليه. ونظراً لبعد اليمن عن مركز الخلافة الإسلامية في دمشق، ثم في بغداد، فإن بواكير كتب التدوين لشعر العرب أضربت عنه صفحاً، حتى أننا نجد المفضل الضبي في القرن الثاني الهجري لا يذكر من شعرائهم إلا ثلاثة، وحتى إن صاحب أول طبقات شعرية هو ابن سلام، لم يورد منهم إلا النازحين في المدينة، ولم يذكر صنعاء ضمن قرى العرب الخمس: مكة، المدينة، الطائف، اليمامة، البحرين، وقد أبان ابن قتيبة في الشعر والشعراء إهمال الرواة لشعر أبي دؤاد الأيادي، وعدي بن زيد العبادي، لعدم نجدية لغتهما.

ومع ما قيل من تعليلهم لظاهرة الشعر في العرب، حيناً بالنفسية الجياشة المنفعلة، وحيناً بالأخلاقية التي طبعوا عليها، كضرورة حياتية لإنسان الصحراء، وحيناً بشاعرية اللغة أو على حد ما يصر عليه العقاد «اللغة الشاعرة». وله من شواهد العلم ومعطيات الأداء الشعري ما يشهد بذلك، أقول: مع كل ذلك فإن مرد الأمر كله إلى القدر الصادر عن العلي الأعلى سبحانه، المحيط علماً بجزئيات الأزل والأبد، وتفصيلات ما كان وما سيكون.

هذا القدر هو الذي شرَّف قلب الجزيرة العربية، بأول بيت أُقيم في الأرض، مثابة للناس وأمناً، في عهد إبراهيم، وهو الذي هيأ لولده إسماعيل أن يكون بمقومات تكوينه الذاتي ـ جذع الشجرة العربية، ومنطلق فروعها، فقد ٱلتقت فيه أبوته العراقية، وأمومته المصرية، وولادته الشامية، ونشأته الحجازية، وإصهاره الجرهمي، من عرب الجنوب. وبهذه المقومات مجتمعة كان لولده جدارة النطق باللسان المرشح أزلاً لاستقبال أكمل وأفضل كتاب سماوي أنزل على العالمين، ولتحتضن الرسالة الخاتمة الوارثة لتراث الأنبياء والمرسلين، والمحققة بشخص محمد ﷺ وصحابته كمالات الإنسانية العليا. ولمن شاء أن يعود إلى الكتاب الخميص البطين على حد قول ابن المقرئ: ذلك الكتاب هو اللغة الشاعرة الذي اعتصرت فيه عقلية العقاد الجبارة، ويراعته المعبرة: أهم ميزات وأنقى ملامح هذه

اللغة العريقة الأنيقة. كيف كانت شاعرة في حروفها؟ وكيف كانت شاعرة في مفرداتها وجملها؟ وكيف كانت العروض إحدى خصائصها المتفردة بها بين سائر اللغات؟

البواعث الشعرية

الشعر إما انطباع كالغيث جادت به السماء، وإما متكلف يمتحه صاحبه من البئر السحيق امتياحاً، ولهذا جاوز ابن العشرين سنة «طرفة» غاية ابن الثمانين سنة «زهير» الذي قال عنه الأقدمون: إنه عميد مدرسة عبيد الشعر، الذين يعكفون على القصيدة الواحدة عاماً كاملاً يثقفونها وينقحونها. ولهذا أيضاً فإن جماع القول في العملية الشعرية: هو وجود الموهبة أولاً فياضة سخية أو شحيحة يتبرضها صاحبها تبرضاً، والثقافة تؤازرها وتثريها ثم تأتي الاهتمامات لتطير بها إن سمت صعداً أو تتمرغ بها في الأوحال إن هي أسفت وارتكست. أما البواعث فبالإمكان حصرها في الوجهين الجامعين لكل شعب العاطفة الإنسانية وأنشطتها: الرضا، الغضب، تلمس ذلك واضحاً مضيئاً وراء كل نص شعري قيل أو يقال، وعلى صعيد الرضا، فإن أريحية اكتشاف حقيقة إيمانية تثوب إليها النفس بعد الضلال، لا بد وأن تنطق صاحبها بأعذب الألحان وأصفاها، مثلاً على ذلك أبو سفيان بن عبد المطلب وقد ثاب إليه رشده غداة الفتح، فكانت الأبيات الثلاثة التالية نشيد روحه، وإعلان فرحته الكبرى:

لعمرك إنّي حين أحمل راية لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله فهذا أواني حين أهدى فأهتدي
هداني داع غير نفسي ودلني على اللّه من طردته كل مطرد

ومن صور الرضاء الاهتزاز إعجاباً وانتشاءً أمام مكرمة وقيمة إنسانية نبيلة: كرماً أو بطولة أو وفاءً:

وتأخذه عند المكارم هزة كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب

ومن اندياحات الرضاء في النفس البشرية، المشهد الكوني المشع بالجمال أياً

كان: إنساناً غيثاً، نجماً، نباتاً.

وإذا كان رجل كـ«كثير» يعوزه الشعر أحياناً فيلتمسه بتطوافه حول الأطلال، فإن شاعراً آخر كـ«النواسي» يلتمسه بطاقات الزهر وحقول الخضرة، وآخر يواتيه الشعر في الكنيف، كما ينقلون عن العتاهي فيما أخبر به عن نفسه، وكما تتفاوت أماكن الموحيات الشعرية، تختلف أماكن الذكرى المثيرة للشاعرية أيضاً، فعلى حين تستثار ذاكرة بطل كـ«عنترة»:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل   مني وبيض الهند تقطر من دمي

نجد شاعراً آخر كـ«ذي الرمة» تستثار ذاكرته:

ذكرتك أن مرّت بنا أم شادنٍ   أمام المطايا تشرئب وتسنح

أما «ابن الدمينة» فإنّ وجده يستثار لأسباب ومثيرات أخرى:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد   لقد زادني مسراك وجداً على وجدي
أأنْ هتفت ورقاء في رونق الضحى   على غصن بانٍ أو قضيب من الرند
حننت كما حنَّ الوليد صبابةً   إليها وأبديت الذي لم أكن أبدي

ومن عجيب أمر النفس البشرية، أن نرى السبب الواحد يتشكل في أطوائها أشكالاً مختلفة بحسب حال صاحبها، كما يفسره البيتان التاليان، الأول لـ«محمد بن هاشم الشامي اليمني»، والثاني لشاعر قديم:

إذا سجع الحمام يقول غنى   المنعمُ والحزين يقول ناحا

* * *

فربما صفق المسرور من طربٍ   وربما صفق المحزون من أسف

أما أمر الوفرة أو الكزازة في الشاعرية فإن «أعشى بكر» يفسره لنا:

فلا ذنب لي أن جاش بحر ابن عمكم   وبحرك جاس لا يبلّ الدعامصا

وأما أمر الرخامة المحببة، أو النشاز الذي تتأذى به الأذن وحاسة التقبل الذوقي فإنّ «بشارة الخَوْري» يشهد أنه حظٌّ مقسوم، ونصيب مرقوم:

والصوت موهبة السماء فطائر يشدو على فنٍ وآخر ينعب

والكلمة الفصل في علو موهبة وتفضيل نغم على نغم، يشرحه الأول بما يغني عن أيّة زيادة أو تعليق:

والأيك مشتبهات في منابتها وإنما يوجد التفضيل في الثمر

معاناة الإبداع

قلنا: إنّ الشعر موهبة فهل معنى هذا أن الشعر يستدعي صاحبه أم العكس؟ وواقع حال صاحب التجربة الشعرية يشهد له بوقوع الحالتين معاً، على اختلاف بينهما من حيث قوة الانفعال وصدق الأداء، إذ ما أكثر أن تمرّ بالشاعر علاقات تستدعي منه على سبيل المجاملة والإتحاف، أن يهنىء بقصيدة، أو يرثي بأخرى، وهكذا. وغالباً ما يكون الأداء الشعري في هذه الحالة شكلياً متكلفاً. والأمر بالعكس حين تنفتح في النفس مسَامُّ الشعر، وتهبُّ نسماته الرخية، أو إعصاريته القوية من داخل الوجدان؛ فتمنعك النوم، وتحبس لسانك عن الكلام مع الآخرين، وتشغلك عن مأكل ومشرب، وتلك هي الحالة الشعرية الجادة الفعالة.

وسنرى في العنوانين التاليين لهذا العنوان صوراً من وقائع ما أسماه الأقدمون بالإجبال، ويعنون به: استعصاء الشعر أحياناً على الاستدعاء، وصوراً من حالات الانثيال الشعري المؤاتي لصاحبه على البديهة وفي الفور.

وبحسبنا في حديثنا هنا عن معاناة الإبداع الشعري، ورغبة في مزيد من الإيضاح لتلك المعاناة أن ننبِّه على واقعتين، يعرفهما من له تجربة شعرية ناضجة، أولاهما: هي أنني حين أستجيب للحالة الشعرية المنبعثة من أعماقي، وبمجرد الانقياد لها شيئاً من الوقت، والانقطاع لهمسها الباطن؛ أجدني وبغير اختيار وقد جرت على شفتي تفعيلات المطلع ومفرداته وقافيته. والسؤال: ما الذي جعلني أتلقى تلك المفردة بعينها، وتلك الصورة الشعرية بذاتها، وأنساق مع الوزن الذي سبقني في ولادته وجريانه على لساني وشفتي؟ مثل هذه الأسئلة القائمة فعلاً تشير إلى شيء عميق مذهل ينفعل هناك في أغوار النفس الباطنة، الخزّان الضخم للوجدانات والذكريات. وثانيهما: هو أنّ نفراً من الشعراء المجيدين يجتمعون مثلاً

في نزهة أو على مناسبة، ويتفقون على وزن وقافية واحدة وموضوع واحد، ثم تسفر النتيجة أن كل واحد منهم انفرد بمفردات لفظية وصور شعرية واتجاهات وجدانية محددة الملامح والألوان من خفة أو ثقل، ومن إطراب أو تكئيب؛ فما الذي جعل النتيجة تأتي على ذلك الوجه أو الوجوه من التنوع؟ ذلك سرّ نطل عليه حين نفكر فيه، ولا نحير جواباً شافياً عليه. وقد رأيت الاكتفاء في هذه الوقفة عن المعاناة بأربعة نصوص شعرية، الأولين منهما لشاعرين مخضرمين جاهلية وإسلاماً. والأخيرين لشاعرين يمنيين معاصرين.

(١)

النصّ الشعري الأول لـ«سويد بن كراع العكلي» جاهلي إسلامي، كان مولعاً بهجاء قومه، ولما شكوه إلى الخليفة الثالث «ذي النورين» رضي الله عنه، أودعه السجن؛ حتى قطع على نفسه وعداً بعدم العود إلى هجائهم، وما أن بارح السجن حتى عاودته شنشنته. وهو في الأبيات التالية يصف لنا حالته النفسية في مغالبة الشعر المتفجّر من داخله، وإشفاقه من سجن ابن عفّان، ففي البيت الأول يصوّر القوافي سرباً من الوحش يقطع الليل في مدافعتها، ولا يعرس كما في البيت الثاني والتعريس: الاستراحة من سفر الليل، هذه الاستراحة من مدافعة سرب الوحش «القوافي» لا تكون إلا بعد السحر وقرب انبلاج الفجر.

ويصف في البيت الثالث استعصاء سرب الوحش الذي لا يذعن لقياد، حتى يستخدم معه عصاة طويلة تمتد على الأذرع والنحور. ورغم تلك العصاة الطويلة فإنّ أوابدها النافرات والممعنات في الابتعاد لا تنقاد لصاحبها، فتسلك الطريق المسلوك الذي اتبعه الشعراء، ولكنها تريد انفراداً واقتحاماً لدرب يخشى الشاعر سجن عثمان إذا تركها تذهب حيث تشاء، فلم ير بداً من جذب زمامها وإرجاعها وراء التراقي والاستسلام لصاحب السلطان، كما تفصله الأبيات الثلاثة الأخيرة:

أبيت بأبواب القوافي كأنما ... أصادي بها سرباً من الوحش نزّعا
أكالئها حتى أعرّس بعدما ... يكون سحيراً أو بعيد فأهجعا

عـواصـي إلا مـا جـعـلـت وراءَهـا ... عـصـا مـربـد تـغـشـى نـحـوراً وأذرعـا

أهـبـت بـغـرّ الآبـدات فـراجـعـت ... طـريـقـاً أمـلـتـه الـقـصـائـد مـهـيـعـا

بـعـيـدة شـأو لا يـكـاد يـردّهـا ... لـهـا طـالـب حـتـى يـكـلّ ويـظـلـعـا

إذا خـفـت أن تـروى عـلـيَّ رددتـهـا ... وراء الـتـراقـي خـشـيـة أن تـطـلـعـا

وجـشـمـنـي خـوف ابـن عـفـان ردهـا ... فـثـقـفـتـهـا حـولاً جـريـداً ومـربـعـا

وقـد كـان فـي نـفـسـي عـلـيـهـا زيـادة ... فـلـم أرَ إلا أن أطـيـع وأسـمـعـا

نستفيد من هذا النص: أولاً معرفة الحالة الشعرية الغلابة، وثانياً توفيق الشاعر في رسم الحالة النفسية غير المنظورة في مشهد مادي منظور؛ وفي هذا ما يشهد بخطأ من نسب إلى الجاهليين عجزهم عن تصوير الأحاسيس المعنوية، وثالثاً معرفة مدى الخيال المواتي للجاهليين في نطاق بيئتهم الصحراوية القبلية المحدودة.

(٢)

النصّ الشعري الثاني الذي له علاقة بتصوير معاناة الإبداع لدى الشاعر هو «لابن مقبل العجلاني» شاعر جاهلي، أدرك الإسلام معروف بالجودة الشعرية العالية، وله حادثة لطيفة سنعرض لها في مكانها إن شاء الله. هذا الشاعر نورد له هنا ثلاثة أبيات تعرض لنا شيئاً من خبره مع الشعر، فهو في البيت الأول يأسى لحال الشعر بعد موته إشفاقاً عليه من الضياع، وفي البيت الثاني يذكر بلوغه بالإجادة الشعرية مداها حين ينفرد بالبيت المارد؛ وكلمة (مارد) هنا من الكلمات الحمَّالة لشحنة مرتفعة من الإشعاع الشعري، والإيجاز المكثف، وهو يعتبره مارداً لأنه ضرب له حزون الشعر، والحزن لغة ما غلظ من الأرض، وضرب له المتون حتى توعر واستعصى متمرداً على من سواه من الشعراء. وفي البيت الثالث يرسم بيته المارد وقد أصبح أغر محجلاً يجتذب الأنظار، ويستقطب اهتمام الآخرين الذين لا يملكون حين يرونه إلا أن يمسحوا وجهه بمناديلهم حُبًّا له وإكراماً، تماماً، كما يفعلون مع الجواد الأصيل السابق في المضمار:

إذا مـت عـن ذكـر الـقـوافـي فـلـن تـرَى ... لـهـا تـالـيـاً مـنّـي أطـبَّ وأشـعـرا

وأكـثـرَ بـيـتـاً مـارداً ضـربـت لـه   حـزون مـتـون الـشـعـر حـتـى تـوعـرا
أغـرّ غـريـبـاً يـمـسـح الـنـاس وجـهـه   كـمـا تـمسـح الأيـدي الـجـواد الـمـشـهـرا

كلّ ما نقوله عن هذا النصّ القصير: إنه احتوى لغة فنية منتقاة، يكاد القبس يضيء منها.

(٣)

النصّ الثالث لشاعر اليمن ومصلحها في القرن الرابع عشر الهجري المجاهد الشهيد «محمد محمود الزبيري»، وضعه بعنوان (لحظات الإشراق الفنّي). وهل تدري كيف وأين كانت ولادة هذا النص؟ لقد وضعه وهو طريد شريد مكتوب اسمه في القائمة السوداء بباكستان. من جراء ملاحقة الإمام أحمد له. وفي هذا وحده ما يشهد بأن الشعر ينبعث دون حاجة إلى مزهر أو زهر؛ فإنه رحمه الله كتبه بكوخ كئيب بباكستان والحق أن الشعر العربي خال من نصّ شعري مماثل لنصّ الزبيري في تصوير معاناة الإبداع. وخشية الإطالة انتقيت أبياتاً من قصيدته الطويلة البديعة الرائعة:

أحـسُ بـريـح كـريـح الـجـنـان   تَـهُـبُ بـأعـمـاق روحـي هـبـوبـا
وأشـعـر أن الـقـوافـي تـدبُّ   كـالـنـمـل مـلء دمـاغـي دبـيـبـا
فـهـذا يـزوغ وذاك يـروغ   وذلـك يـذعـن لـي مـسـتـجـيـبـا
وذاك يـفـارقـنـي يـائـسـاً   وهـذا يـواعـدنـي أن يـؤوبـا
ومـنـهـا الـشـوارد مـثـل الـبـروق   تـحـيـي الـمـوات وتـروي الـجـديـبـا
إذا لـمـسـت مـهـجـتـي لـمـسـة   تـوثـب قـلـبـي بـصـدري وثـوبـا
ومـنـهـا الأوابـد لـم تـسـكـن الـعـقـول   ولـم تـأو قـط الـقـلـوبـا
ومـنـهـا الـمـوالـيـد تـأتـي الـوجـود   فـتـأبـى الـزوال وتـأبـى الـمـشـيـبـا
أخـلـف مـنـهـا لـقـاح الـنـهـى   وأصـنـع لـلأرض مـنـهـا شـعـوبـا
ومـنـهـا الـمـطـايـا إذا اقـتـدتـهـا   فـتـحـت الـسـمـا وهـتـكـت الـغـيـوبـا
ومـنـهـا الـنـوافـر لا يـسـتـطـيـع   إلا نـبـيٌّ عـلـيـهـا ركـوبـا
وأكـثـرهـا أفـلـتـت مـن يـدي   يـغـيـب ولا يـشـتـهـي أن يـغـيـبـا

حروف الرويّ بها نطفة ... ترعرع بيتاً عريقاً نسيبا
يضمخه الجرح من مهجتي ... ويخرجه من دمائي خضيبا
ومعنى يسير إلى لفظة ... ولفظ لمعناه يجري دؤوبا
كأن بعقلي لها جنة ... يلاقي بها كلّ صبٌ حبيبا
نواميس يسعى إليها الكلام ... ويبغي له من خلود نصيبا
أسلم نفسي لها ذاهلاً ... حريصاً عليها بشوشاً طروبا
وأصمت مستمتعاً تارة ... وأصرخ حيناً عبوساً غضوبا
ولولا اهتدائي لسرّ النبوغ ... وأعراضه لطلبت الطبيبا
ولكنها قدر غالب ... قضى أن أكون فكنت الأديبا

حقاً. لقد كان الشعر لأبي عمران سحابة ربانية تروي حقوله العطشى، وأرجوحة ملائكية تهدهد آلامه الكبار، وجراحه الغائرة.

(٤)

النصّ الرابع لصاحب هذه الأسطر، أردتُ أن أقدمهُ هنا على خجل بالغ بعد أبيات أبي عمران التي ما تركت مجالاً لمستزيد. ولكني أردت أن أقدمها رجاء أن تضيف إلى تصوير معاناة الإبداع شيئاً من الإضاءة:

رفرفات أم بروق لمع ... في سماوات خيالي تسطع
زمجرات الحرف والمعنى على ... شفتي غيث وسيل يدفع
لا تلومي يا جفوني إنني ... رغم سهدي للقوافي طيع
هي لا تقبل عذراً أن آتت ... وإذا ولت فليست ترجع
لست أدري أي أنهار دمي ... نهلت منه فلذّ المشرع
وعلى أي التلافيف ارتخت ... من دماغي فاستطيب المضجع
كل ما أعلم عنها أنها ... حالة غلابة لا تدفع
كهرباء أشعلت جسمي فلا ... حيزٌ لم تغشه أو موضع

الإجبال

والإجبال صورة من صور معاناة الإبداع، وقد أسلفنا أنّ معناه: استعصاء الشعر على صاحبه، وتعليل ذلك الاستعصاء يرجع إلى كثير من الأسباب الخفية، التي يمكن للشاعر نفسه أن يتعرف عليها بتتبع أوضاعه الصحية ومشاغله الحياتية، وذلك عرض من أعراض الشعر التي لا سبيل إلى تحليلها واستقصاء أسرارها، ولأن الشعر ملحة محببة إلى النفسية العربية؛ فقد حاول الملوك قرع بابه فلم يفتح لهم، ولم يسمح لهم بالدخول، فممّا يروى عن الرشيد: أنه حاول يوماً الإتيان ببيت من الشعر فافتتحه بشطرة واحدة، وعجز عن الشطرة الثانية (الملك لله وحده). ولما استدعى من ببابه من الشعراء، ودخل إليه أحدهم، وعرف مرامه فارتجل (وللخليفة بعده) و (للحبيب إذا ما حبيبه بات عنده)، وحدث نفس الأمر للمعتز العباسي فيما رواه صاحب العقد.

ويذكر «ابن قتيبة» في الشعر والشعراء أنّ الراجز إذا استعصى عليه الرويّ انتقل منه إلى آخر كما حُدث «للشماخ». ولا يرون في ذلك بأساً.

ومعلوم أن الرجز هو النمط الأول من الشعر في بحوره وقوافيه، ثم تتابعت بعده من جيل إلى جيل (البحور المتنوعة). ومن المفيد أن ننقل عن «ابن قتيبة» واقعة من وقائع الإجبال حدثت لـ«حسان بن ثابت» رضي الله عنه، ومنها نعرف أنّ الإجبال يعرض لكبار الشعراء وليس لصغارهم فقط، ونعرف كيف كانت المرأة العربية تساجل الشعراء على البديهة وتنافس الفحول.

قال ابن قتيبة: كانت لحسّان بنت شاعرة، وأرق حسّان ذات ليلة فعنَّ له الشعر فقال:

متاريك أذناب الأمور إذا اعترت أخذنا الفروع واجتثثن أصولها

ثم أجبل فلم يجد شيئاً، فقالت له بنته: كأنك قد أجبلت يا أبه؟ قال: أجل. قالت: فهل لك أن أجيز عنك؟ قال: وهل عندك ذلك؟ قالت: نعم، قال: فافعلي، فقالت:

مقاويل بالمعروف خرس عن الخنا كرام يعاطون العشيرة سؤلها

فحمي الشيخ فقال:

وقافيةٍ مثل السنان رزئتها ... تناولت من جوّ السماء نزولها

فقالت:

يراها الذي لا ينطق الشعر عنده ... ويعجز عن أمثالها أن يقولها

فقال حسّان: لا أقول بيت شعر وأنت حيّة. فقالت: أأومنك، قال: وتفعلين؟ قالت: نعم، لا أقول بيت شعر ما دمت حيّاً.

الانثيال

وإذا كان الإجبال يعني ما يعرض للشاعرية حيناً من كزازة وانغلاق، فإن الانثيال على العكس يعني تدفق الشاعرية وانطلاقها، وكثيرون هم الذين عرفوا بمؤاتاة الشعر لهم ارتجالاً في العصر الجاهلي أو الصدر الإسلامي وحده، وإنما على إمتداد القرون حتى قرننا هذا. فقد تواتر عندي من أخبار شاعر يدعى: «سليمان القطاب» من سكنة التحيتاء المجاورة لمدينة زبيد غرباً، وهو من رجال القرن الرابع عشر الهجري: أنه كان في المناسبات الفخمة، كان يخرج من قريته إلى زبيد راكباً حماره يرتجز بقومه أبياتاً، مستقيمة الوزن، موحدة القافية، فصيحة المفردات، إلا أنه يتبع التسكين في أواخر المفردات على طريقة شعراء العامية اليوم. ومن أبرز شعراء الأمويين ارتجالاً: «الحسين بن مطير الأسدي» في وصف مطر، وهو نص رائع نورده عن ابن قتيبة على طوله لأهمية معرفة ذلك، ولجمال النصّ.

قال في (الشعر والشعراء) ص ٢٦:

قال «الرياشي»: حدثني «أبو العالية» عن «أبي عمران المخزومي» قال: أتيت مع أبي والياً على المدينة من قريش وعنده «ابن مطير». وإذا مطر جود فقال له الوالي: صفه فقال: دعني حتى أشرف وأنظر، فأشرف ونظر، ثم نزل فقال:

كثرت لكثرة قطره أطباؤه ... فإذا تحلب فاضت الأطباء

وكجوف ضرّته التي في جوفه ... جوف السماء سجلة جوفاء

وله رباب هيدب لرفيفه ... قبل التبعق ديمة وطفاء

وكـأن بـارقـه حـريـق يـلـتـقـي ... ريـح عـلـيـه وعـرفـج وألاء
وكـأن ريـقـه ولـمـا يـحـتـفـل ... ودق الـسـمـاء عـجـاجـة كـدراء
مـسـتـضـحـك بـلـوامـع مـسـتـعـبـر ... بـمـدامـع لـم تـمـرهـا الأقـذاء
فـلـه بـلا حـزنٍ ولا بـمـسـرة ... ضـحـك يـؤلـف بـيـنـه وبـكـاء
حـيـران مـتـبـع صـبـاه تـقـوده ... وجـنـوبـه كـنـف لـه ووعـاء
ودنـت لـه تـكـبـاؤه حـتـى إذا ... من طـول مـا لـعـبـت بـه الـنـكـبـاء
ذاب الـسّـحـاب فـهـو بـحـر كـلـة ... وعلى الـبـحـور من السحاب سماء
ثـقـلـت كـلاه فـنـهـرّت أصـلابـه ... وتـبـعـجّـت مـن مـائـه الأحـشـاء
غـدق يـنـتّـج بـالأبـاطـح فـرَّقـا ... تـلـدُ الـسـيـول ومـالـهـا أسـلاء
غـرٌ مـحـجـلـة دوالـح ضـمـنـت ... حـمـل الـلـقـاح وكـلـهـا عـذراء
سـحـم فـهـنَّ إذا كـظـمـن فـواحـم ... سـود وهـنَّ إذا ضـحـكـن وضـاء
لـو كـان مـن لـجـج الـسـواحـل مـاؤه ... لـم يـبـق مـن لـجـج الـسـواحـل مـاء

ولربما ظنَّ من لاحظَّ له من ذوق، ولا همَّة ناهضة في تنقيب؛ أن هذه الرواية من مبالغات القصّاصين أو مغالاة الأقدمين، فنحبّ أن ننبّه مثل هؤلاء إلى أن الذي رواها وسجلّها هو عالم من رجال الحديث المتثبتين، وإمام نقدة الشعر في عصره، ولو كانت واقعة ابن مطير رواية ليس لها مثيل في الشعر العربي لتشككنا مع المتشككين، ولكن نظائر كثيرة وقعت لغيره أقربهم إلى الذهن الآن: «عبد يغوث الحارثي» وقد ارتجل عند القتل قصيدة معروفة سائرة:

أقـول وقـد شـدّوا لـسـانـي بـنـسـعـة ... مـعـاشـر تـيـم أطـلـقـوا مـن لـسـانـيـا

وحدث «لأعشى بكر» في سجن «النعمان» حين امتحن شاعريته من الارتجال ما روته كتب الأدب، ومثله بل وأكثر منه ما حدث للراجز «أبي النجم» في موقف «هشام» حين طلب من الشعراء أن ينعتوا فرساً له قائمة في المجلس، فطلبوه الإمهال يوماً، ولكن أبا النجم نقده الشعر الجيّد رجزاً فوراً وبدون تريّث، وللعرب مع ارتجال الشعر أخبار تبلغ حدّ الغرائب التي لا يثق سامعها بصحتها حتى يجبهه الشاهد، ويقنعه الدليل.

ومن ذا الذي يصدق أن الشعر يزور صاحبه نائماً فيستيقظ، والنصّ على فمه وأحياناً ليس النص فقط، وإنما هناك نقد وتنقيب في المراجع، وخروج بالفائدة، وتفصيل ذلك تال لهذه الوقفة، فمتى نرى الجيل يصدق تراثه بحثاً وتحصيلاً؟ إن التشكك إذا طال بصاحبه قاده إلى العزوف، وإذا عزف الشباب عن تراثه؛ فأنى له أن يعرف لغةً أو يحصل أدباً أو يتذوق شعراً؟

وحتى لا يظنَّ ظانٌ أنّ نص «الحسين بن مطير» الذي أوردناه في وصف المطر هو بيضة الديك في الشعر العربي، نورد نصاً مهماً لـ«صاعد الربعي البغدادي» أورده ياقوت في (معجم الأدباء) المجلد الخامس الجزء العاشر في ترجمته «للحسين بن العريف الأندلسي»، فقد كان منافساً لصاعد عند وفوده إلى الملك المنصور «أبي عامر المعافري الأندلسي» في القرن الرابع الهجري، فأجتمع شهود مجلس المنصور، من علماء وأدباء لامتحان صاعد رغبة في إقصائه عن المجلس، وكان صاعد آية في حضور البديهة، وعلم الموسيقى، والإحاطة بالأخبار.

وإليك النصّ بعد أن حذفنا من أوله شيئاً كثيراً، ص ١٨٥ :

وكان يوماً بمجلس المنصور أيضاً، فأحضرت إليه وردة في غير أوانها لم يكمل فتح ورقها، فقال فيها صاعد مرتجلاً:

أتتك أبا عامرٍ وردة ... يذكّرك المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر ... فغطّت بأكمامها رأسها

فسُرَّ بذلك المنصور، وكان «ابن العريف» حاضراً فحسده، وجرى إلى مناقضته. وقال للمنصور: هذان البيتان لغيره. وقد أنشدنيهما بعض البغداديين لنفسه بمصر، وهما عندي على ظهر كتابٍ بخطه، فقال له المنصور: أرنيه، فخرج ابن العريف وركب، وحرّك دابته حتى أتى مجلس «ابن بدر»، وكان أحسن أهل زمانه بديهةً، فوصف له ما جرى، فقال ابن بدر هذه الأبيات، ودسَّ فيها بيتي صاعد:

غدوت إلى قصر عبّاسة ... وقد جلّل النوم حراسها
فألفيتها وهي في خدرها ... وقد صدع السكر أنّاسها
فقالت أسرتُ على هجعة ... فقلت بلى فرمت كأسها

ومــدّت يــديــهــا إلــى وردة يـحـاكـي لـك الـطـيـب أنـفـاسـهـا
كــعــذراء أبــصــرهــا مــبــصــر فـغـطـت بـأكـمـامـهـا رأسـهـا
وقـالـت خـف الـلّـه لا تـفـضـحـنـي فــي ابــنــة عــمــك عُــبَّــاســهــا
فـولـيـت عـنـهـا عـلـى خـجـلـة ومـا خـنـت نـاسـي ولا نـاسـهـا

فطار ابن العريف بها، وعلّقها على ظهر كتاب بخط مصري، ومدادٍ أشقر، ودخل بها على المنصور، فلما رآها اشتد غيظه، وقال للحاضرين: غداً أمتحنه؛ فإن فضحه الامتحان أخرجته من البلاد، ولم يبق في موضع لي عليه سلطان.

فلما أصبح أرسل إليه، فأحضر، وحضر جميع الندماء والجلساء، فدخل بهم إلى مجلس قد أعدَّ فيه طبقاً عظيماً، فيه سقائف مصنوعة من جميع النواويير، ووضع على السقائف لعب من ياسمين في شكل الجواري، وتحت السقائف بركة ماء، قد ألقي فيها اللآلي مثل الحصباء، وفي البركة حيّة تسبح، فلمّا دخل صاعد، ورأى الطبق؛ قال له المنصور: إن هذا يوم إما أن تسعد فيه معنا، وإمّا أن تشقى، لأنه قد زعم هؤلاء القوم أن كلَّ ما تأتي به دعوى، وهذا طبق ما توهمت أنه حضر بين يدي ملكٍ قبلي شكله، فصفه بجميع ما فيه فقال له صاعد على البديهة:

أبـا عـامـرٍ هـل غـيـر جـدواك واكـف وهل غير من عاداك في الأرض خائف
يـسـوق إلـيـك الـدهـر كـلَّ غـريـبـة وأعـجـب مـا يـلـقـاه عـنـدك واصـف
وشـائـع نـورٍ صـاغـاهـا هـامـر الـحـيـا عـلـى حـافـيـتـهـا عـبـقـر ورفـارف
ولـمـا تـنـاهـى الـحـسـن فـيـهـا تـقـابـلـت عـلـيـهـا بـأنـواع الـمـلاهـي وصـائـف
كـمـثـل الـظـبـاء الـمـسـكّـنـة كـنـسـاً تـظـلـلـهـا بـالـيـاسـمـيـن الـسـقـائـف
وأعــجــب مــنــهــا أنــهــنَّ نــواظــر إلـى بـركـةٍ ضـمَّـت إلـيـهـا الـطـرائـف
حـصـاهـا الـلآلـي سـابـح فـي عـبـابـهـا من الرقش مسموم الثعابين زاحف
تـرى مـا تـراه الـعـيـن فـي جـنـبـاتـهـا من الوحش حتى بينهنَّ السلاحف

فاستغربوا له تلك البديهة في مثل ذلك الموضع، وكتبها المنصور بخطه، وكان إلى ناحيته من تلك السقائف سفينة فيها جارية من النوّار، تجدف بمجاديف

من ذهب، لم يرها صاعد فقال له المنصور: أحسنت، إلا أنّك أغفلت ذكر السفينة والجارية فقال للوقت:

وأعجب منها غادة في سفينة مكلّلة تصبو إليها الهواتف
إذا راعها موج من الماء تتقي بسكانها من هيجته العواصف
متى كانت الحسناء ربّان مركبٍ تصرّف في يمنى يديه المجاديف
ولم ترعيني في البلاد حديقة تنقلها في الراحتين الوصائف
ولا غرو أن أنشت معاليك روضة وشتها أزاهير الرّبا والزخارف
فأنت امرؤ لو رحت نقل متالع ورضوى ذرتها من سطاك نواسف
إذا قلت قولاً أو بدهت بديهةً فكلني له إني لمجدك واصف

ويبدو أن الفرزدق كان من أكثر الشعراء مقدرة على الارتجال، ومن يقف على ترجمته في طبقات الشعراء ومعاجمهم يلمس صحة هذا. ولأننا نتوخى في هذه الصفحات الاختصار؛ فإننّا نضرب عن ذكر شيءٍ من ذلك هنا، اللهم إلا حادثة طريفة تدلّ على توقدّ أفكار القوم، ومقدرتهم البالغة على معرفة بناء القصيد وحسن حياكتهم له. ولأنَّ هذه الحادثة التي سنرويها أصبح العلم يفسرّها اليوم بما يسمّونه اليوم (التلباثي) أو بتخاطب الأفكار عن بعد.

قال ابن قتيبة في (الشعر والشعراء) ص ٢٨٨:

قال أبو عبيدة: كان الفرزدق بالمربد، فمرَّ به رجل قدم من اليمامة، فقال له: من أين وجهك؟ قال: من اليمامة، قال: فهل علقت من جرير شيئاً؟ فأنشده:

هاج الهوى بفؤادك المهتاج

فقال الفرزدق:

فانظر بتوضح باكر الأحداج

فقال:

هذا هوى شغف الفؤاد مبرّح

فقال الفرزدق:

ونــــوى تـــقـــاذف غــــيـــــرُ ذات خـــلاج

فقال:

لــيــت الــغــراب غــداة يــنــعــب دائــبــاً

فقال الفرزدق:

كـــان الـــغـــراب مـــقـــطـــع الأوداج

فما زال الرجل ينشد صدراً صدراً من قول جرير، وينشده الفرزدق عجزاً عجزاً؛ حتى ظنّ الرجل أن الفرزدق قالها، وأن جريراً سرقها، ثم قال له: هل ذكر فيها الحجاج؟ قال: نعم، قال: إيّاه أراد.

حقيقة أغرب من الخيال

أيزور الشعر صاحبه نائماً؟!

الحوادث التي سنوردها من السهل على كلّ أمرئ غير جادٌ أن يتقبلها باستخفاف أو بإنكار، ومثل هذا التقبل يدلُّ على عدم خلاق صاحبه، فكم هي الظواهر التي كان الناس يسمعونها ثم ينكرونها، حتى جاء العلم اليوم يؤكدها، وأصبحت من حقائق الحياة المعاشة، ومن هنا فإنَّ الباحث عن المعرفة والمحترم للتراث يقف أمام الظواهر الغريبة بحيطة ومتابعة؛ حتى يطمئن به البحث إلى نتيجة مقنعة.

نقول هذا بين يديّ حديثنا عن واقعة رواها ابن قتيبة، ولها نظائرها في أخبار الشعراء وغيرهم، وإليك الخبر، ص ١٢٩:

تذكر طيىء أن رجلاً يعرف «بأبي خيبري» مرَّ بقبر حاتم، فنزل به وبات يناديه: يا أبا عديّ أقرئ أضيافك، فلما كان في السحر، أبو خيبري يصيح وا راحلتاه، فقال له أصحابه: ما شأنك؟ فقال: خرج والله حاتم بالسيف، حتى عقر ناقتي، وأنا أنظر إليه، فنظروا إلى راحلته فإذا هي لا تنبعث، فقالوا: قد والله قراك، فنحروها وظلوا يأكلون من لحمها، ثم أردفوه وانطلقوا، فبيناهم كذلك في مسيرهم طلع عليهم عديّ بن حاتم، ومعه جمل أسود، قد قرنه ببعيره، فقال: إن حاتماً جاءني في المنام فذكر لي شتمك إياه، وأنّه قراك وأصحابك راحلتك، وقد قال في ذلك أبياتاً وردّدها عليّ حتى حفظتها:

أبا خيبري وأنت امرؤ ... حسود العشيرة لوّامها
فماذا أردت إلى رمةٍ ... بداويّة صخب هامها
تبغي أذاها وإعسارها ... وحولك عوف وأنعامها

وأمرني بدفع جمل مكانها إليك فخذه، فأخذه ا هـ.

والنوم كما هو معلوم عملية روحية مغلقة التفاصيل، كانغلاق الروح ذاته.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ونسمع اليوم ما يقال عن تحضير الأرواح، وأنّه أمكن لهم تحضير روح شوقي بعد وفاته، ودلهم على قصائد له لم تطبع، وحول تحضير الأرواح يختلف العلماء من متدينين وغير متدينين، ويذهب بعض علماء المسلمين إلى أن الروح التي يتم تحضيرها هي روح القرين من الجنّ المصاحب للإنسان. وفي القرآن بسورة «الصافات» وسورة «ق» آيات تعرض أحوال القرين، مع قرينه في اليوم الآخر. وفي السنة النبوية من تفصيل النبي ﷺ مع عائشة عن خبر القرين، وأنّ الله قد أعانه على قرينه فأسلم(١).

وقد ورد في سورة (الأنعام) آيات طوال عن عبث الجنّ بمشركي الإنس. وفي كتب السيرة والسنة مثل زاد المعاد «لابن القيّم» من خبر وفد خولان مع صنمهم (عم أنس)، وفي غير زاد المعاد خبر اللات، حين ذهبوا لقطعها، ما ليس هنا محل تفصيله.

والله يعلم إنني لم أورد خبر أبي خيبري، حتى تأكدت من أشباه ونظائر لتلك الحادثة، رواها قاضي قضاة الشام في القرن السابع الهجري «أحمد بن محمد بن خلكّان»، نكتفي بثلاث حوادث منها؛ أولها مروي عن علامة اللغة والشعر «ابن دريد الأزدي»، وحادثتان وقعتا لابن خلكّان نفسه. ولأنّ هذه النصوص لا يتاح الاطلاع عليها إلا للقلة من المنقِّبين في التراث، ولأنها أيضاً شواهد موثقة ربما أمدت الباحثين شيئاً من الضوء عن سياحة الروح في المنام، نوردها بنصوصها، ونبدأ بالنص الأول، المجلد الرابع، ص ٣٢٧:

وقال المرزباني: قال لي ابن دريد: سقطت من منزلي بفارس فانكسرت ترقوتي، فسهرت ليلتي، فلما كان آخر الليل غمضت عيني، فرأيت رجلاً طويلاً

(١) رواه مسلم، حديث رقم (٢٨١٤) في صفات المنافقين ـ باب تحريش الشيطان. وبعثه سراياه لفتنة الناس.

أصفر الوجه كوسجاً، دخل علي، وأخذ بعضادتي الباب، وقال:

أنشدني أحسن ما قلت في الخمر. فقلت: ما ترك أبو نواس لأحد شيئاً. فقال: أنا أشعر منه. فقلت: ومن أنت؟ فقال: أنا أبو ناجية، من أهل الشام وأنشدني:

وحمراء قبل المزج صفراء بعده أتت بين ثوبي نرجس وشقائق
حكت وجنة المعشوق صرفاً فسلطوا عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق

فقلت له: اسأت فقال: ولِمَ؟ قلت لأنك قلت: حمراء فقدمت الحمرة، ثم قلت: بين ثوبي نرجس وشقائق فقدمت الصفرة؛ فهلا قدمتها على الأخرى؟ فقال: ما هذا الاستقصاء في هذا الوقت يا بغيض؟ وجاء في رواية أخرى: أن الشيخ «أبا علي الفارسي» النحوي قال:

أنشدني ابن دريد هاذين البيتين لنفسه. وقال: جاءني إبليس في المنام، وقال: أغرت على أبي نواس؟ فقلت: نعم. فقال أجدت، إلا أنّك أسأت في شيء، ثم ذكر بقية الكلام إلى آخره، والله أعلم.

أمّا النصّ الثاني لابن خلكان فعن «محمد بن عنين» الشاعر الشامي المشهور؛ يقول في المجلد الخامس ص ١٨ :

وكنت قد رأيته في المنام، في بعض شهور، سنة تسع وأربعين وستمائة. وأنا يوم ذاك بالقاهرة المحروسة، وفي يده ورقة حمراء، وهي عريضة، وفيها مقدار خمسة عشر بيتاً تقريباً، وهو يقول: عملت هذه الأبيات في الملك المظفر صاحب حماة، وكان الملك المظفر في ذلك الوقت ميّتاً أيضاً. وكان في المجلس جماعة حاضرون فقرأ علينا الأبيات؛ فأعجبني منها بيت؛ فرددته في النوم، واستيقظت من المنام وقد علق بخاطري، وهو:

والبيت لا يحسن إنشاده إلا إذا أحسن من شاده

وهذا البيت غير موجود في شعره.

ثالث النصوص أورده ابن خلكان عن نفسه، في ترجمته للمبرد، وهو يكشف

عن مدى تحرّى القوم الدقة في نقداتهم، حتى وإن كان ذلك في النوم؛ قال في المجلد الرابع ص ٣١٨:

وكنت رأيت المبرد المذكور في المنام، وجرى لي معه قصة عجيبة، فأحببت ذكرها، وذلك أني كنت بالإسكندرية في بعض شهور، سنة ست وثلاثين وستمائة، وأقمت بها خمسة أشهر، وكان عندي كتاب (الكامل) للمبرد، وكتاب (العقد) لابن عبد ربه، وأنا أطالع فيهما، فرأيت في العقد في فصل ترجمة بقوله: (ما غلط فيه على الشعراء) وذكر أبياتاً نسبوا أصحابها فيها إلى الغلط، وهي صحيحة، وإنما وقع الغلط ممن استدرك عليهم لعدم اطلاعهم على حقيقة الأمر فيها. ومن جملة من ذكر المبرد فقال: ومثله قول محمد بن يزيد النحوي في كتاب الروضة، ردٌّ على الحسن بن هانئ يعني أبا نواس، في قوله:

وما لبكر بن وائل عصمُ إلا بحمقائها وكاذبها

فزعم، أنه أراد دُغَة العجلية وعجل في بكر، وبها يضرب المثل في الحمق، هذا كله كلام صاحب العقد. وغرضه أن المبرد نسب أبا نواس إلى الغلط؛ بكونه قال بحمقائها، وأعتقد أنه أراد هنبقة، وهبنّقة، رجل والرجل لا يقال له: حمقاء، بل يقال له: أحمق، وأبو نواس إنما أراد دغة وهي امرأة، فالغلط حينئذ من المبرد، لا من أبي نواس.

فلما كان بعد ليالٍ قلائل من وقوفي على هذه الفائدة، رأيت في المنام كأني بمدينة حلب في مدرسة القاضي بهاء الدين المعروف بـ«ابن شداد»، وفيها كان إنشغالي بالعلم، وكأننا قد صلينا الظهر في الموضع الذي جرت العادة بالصلاة فيه جماعة. فلما فرغنا من الصلاة قمت لأخرج، فرأيت في أخريات الموضع شخصاً واقفاً يصلي، فقال لي بعض الحاضرين: هذا أبو العباس المبرد؛ فجئت إليه وقعدت إلى جانبه انتظر فراغه، فلما فرغ سلمت عليه وقلت له: أنا في هذا الزمان أطالع في كتابك (الكامل) فقال لي: رأيت كتابي (الروضة)؟ فقلت: لا، وما كنت رأيته قبل ذلك؛ فقال: قم حتى أريك إيّاه، فقمت معه وصعد بي إلى بيته، فدخلنا فيه ورأيت فيه كتباً كثيرة، فقعد قدّامها يفتش عليه، وقعدت أنا ناحية عنه، فأخرج

منه مجلداً، ودفعه إليَّ، ففتحته، وتركته في حجري، ثم قلت له: قد أخذ عليك فيه، فقال: أيّ شيء أخذوا؟ فقلت: إنك نسبت أبا نواس إلى الغلط في البيت الفلاني، وأنشدته إيّاه فقال: نعم، غلط في هذا. فقلت له: إنه لم يغلط، بل هو على الصواب. ونسبوك أنت إلى الغلط في تغليطه، فقال: وكيف هذا؟ فعرّفته ما قال صاحب العقد، فعضَّ على رأس سبّابته، وبقي ساهياً ينظر إليَّ، وهو في صورة خجلان، ولم ينطق ثم استيقظت من منامي، وهو على تلك الحال.

ولم أذكر هذا المنام إلا لغرابته.

البوح وحراسة القيم

في وقفة سابقة حدّدنا بواعث الشعر بالشعبتين الجامعتين لكل أقطار العاطفة الإنسانية: الرضا، الغضب. ونعود هنا فنذكر أنّ الوظيفتين الجامعتين للأداء الشعري بكل أغراضه، عند تجاوزه لأغوار الذات إلى خارجها في النطاق الفردي، أو على الصعيد الاجتماعي تتمثل في إطارين أو دائرتين هما: البوح، بما يعنيه من تفريج نفسي لانفعالات الذات الشاعرة، وحراسة القيم في صعيد الجماعة، وسائر اهتماماتها وشئون حياتها.

ونبدأ بالبوح فإذا كان للناس فيما يعشقون مذاهب. وإذا كانت هذه المذاهب أو الاهتمامات كما نحب أن نسمّيها هي زمام راحلة الشعر، تذهب به صُعُداً إلى العراص الطاهرات في عرفات. أو تتعثر به في المعاطن السبخة، والمنعرجات الملتوية، فمنهم من يتخذ الشعر قيثارة ثناء، على طريقة القائل:

فأثنوا علينا لا أباً لأبيكم   بأفعالنا إن الثناء مخلّد

ولأجل هذا الثناء المخلد كان للشعراء مكانتهم، والحرص على كسب رضائهم، ومنهم من يتخذ اللذة، واللذة فقط صنم هواه، ومناط رجائه، متخلياً عن أعلى القيم وأسماها على طريقة:

فإن تسلمي أسلم وإن تتنصري   يعلق رجال بين أعناقهم صلبا

ومنهم من يحدّد أغراضه من هذه الدنيا ببرنامج لا يتعدّاه:

ولولا ثلاث هنَّ من عيشة الفتى   وحقك لم أحفل متى قام عوديَّ

وكل من يقرأ معلقة «طرفة» يعرف تلك الثلاث، وآخر يخالف طرفة ويتخذ غايته الكبرى:

إذا كشرت عن شبا نابها عروس المنية بين الأسل
ألذّ إليه من المسمعات وحث الكوسة في يوم طل

وآخر يخالف الجميع، ويطيب له أن يناجي قلبه، ويتزلف إلى ربّه:

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي درك الجنان بها وفوز العابد
ونسيت أنّ الله أخرج آدماً منها إلى الدنيا بذنب واحد

ونحن هنا لا نفنّد ولا نحبّذ؛ وإنما نعرض صوراً من امتلاك الاهتمامات لزمام الشعر، وتلوين الرغائب النفسية لنغمات البوح؛ مؤكدين على حتمية طلاقة هذا البوح من كلّ احتباس أو تسلط، كلٌّ ميسرٌ لما خلق له، والمرء حيث يضع نفسه. وإنّ البارئ سبحانه الذي أودع التكوين البشري نوازع، ترك لها حرية التعبير عنها، والتفريج عن حبيسها:

سقوني وقالوا لا تغنّ ولو سقوا جبال سليمي ما سقوني لغنّت

من أجل تقرير وتأكيد طلاقة هذا البوح، وضرورة إفساح المجال له في النطاق المشروع وغير المتجاوز؛ نعيد إلى ذهن القارئ إصغائه (ﷺ) لكعب، وهو ينشد بين يديه (بانت سعاد) بكل نسيبها الرقيق، وتشبيبها الرائق، دون أن ينهر أو يزجر. وكلّ من يقرأ أخباريات الأدب يذكر إصغاء ابن عباس لابن أبي ربيعة، وهو يلقي:

(آمن آل نُعمٍ أنت غادٍ فمبكر)

على ما فيها من تفصيلات. كل ذلك ليثبت للضيّق الصدر، زعيم الأزارقة، سماحة الإسلام وسعة تقبّله، وقد شاء الله للشاعر الغزل «ابن أبي ربيعة» أن يحسن المتاب، ويرزق الاستشهاد. ولمزيد من التأكيد على حرية البوح الشعري وسماحة هذا الدين؛ نورد نماذج شعرية لثلاثة نفر أولهم: صحابي أرسله النبي ﷺ مرشداً لنجران، هو «راشد بن عبد الله السلمي».

وثانيهم: من فقهاء المدينة السبعة، هو «عبيد الله بن عتبة بن مسعود».

ويقال: إن سعيد بن المسيّب عتب عليه الغزل فقال: (لا بد للمصدور أن ينفث).

وثالثهم: من عبّاد المدينة وزهادّها وعلمائها، وكان يتغنى بشعره، ولا يجد في ذلك حرجاً، هو عروة ابن أذينة:

ونبدأ بنصّ راشد عن العقد:

صحا القلب عن سلمى وأقصر شأوه ... وردت عليه ما نفته تماضر
وحكّمه شيب القذال عن الصبا ... وللشيب عن بعض الغواية زاجر
فأقصر جهلي اليوم وارتدّ باطلي ... عن اللهو لما ابيضّ منّي الغدائر
على أنه قد هاجه بعد صحوه ... بمعرض ذي الآجام عيس بواكر
ولمّا دنت من جانب الغُوط أخصبت ... وحلت ولاقاها سليم وعامر
وخَبّرها الركبان أن ليس بينها ... وبين قرى بصرى ونجران كافر
فألقت عصاها واستقرّت بها النوى ... كما قرَّ عيناً بالإياب المسافر

ومن شعر عبيد الله عن العقد:

كتمت الهوى حتى أضرَّ بك الكتم ... ولامك أقوام ولومهم ظلم
فيا من لنفسٍ لا تموت فينقضي ... عناها ولا تحيا حياة لها طعم
تجنبت إتيان الحبيب تأثماً ... إلا إنَّ هجران الحبيب هو الإثم

ومن شعر عروة عن الكامل للمبرّد:

ما زلت أبغي الحيَّ أتبع ظلّهم ... حتى دفعت إلى ربيبة هودج
قالت وعيش أبي وأكبر إخوتي ... لأنبهنَّ الحيَّ إن لم تخرج
فخرجت خيفة قولها فتبسمت ... فعلمت أنّ يمينها لم تحرج
فلثمت فاها آخذاً بقرونها ... شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

والحشرج كما أوضحه المبرد، هو الماء البارد الجاري على الحجارة.

أمّا حراسة الشعر للقيم، فالحديث عنه لا يكاد ينتهي لاتسّاع أمره، وانتشار ذكره، فقد كان العرب يعدّون الشعر وعاء ثقافتهم وديوان مجدهم، وكانوا يبذلون

الوسع لتخليد منقبة، وتفادي هجاء شاعر، وبحسبنا هنا في هذه الصفحات الإشارة إلى شيء من ذلك ببالغ الاختصار، فمن الأحداث العظيمة في تاريخ الأمة التي كان للشعر فيها ريادة وتحفيز، أن أبيات الخزاعي الشاكي إلى سيدنا محمد ﷺ، ما أصاب قومه خزاعة من الذبح أبياتاً:

يــا ربِّ إنــي نــاشــدٌ مــحــمّــداً　　حــلــف أبــيــنــا وأبــيــه الأتــلــدا

إلى آخر أبياته المحفزة المتوفزة، التي كانت من مقوّيات قرار فتح مكة. ولما اتسعت الفتوحات، وتضخمت الثروات في عهد الفاروق؛ كان الشعر بادرة الدعوة إلى مشاطرة عمر للأمراء أموالهم:

نـحجّ كـمـا حـجـوا ونـغـزوا كـمـا غـزوا　　فـأنّـى لـهـم وفـر ولـسـنـا بـذي وفـر
إذا الـتـاجـر الـهـنـدي جـاء بـفـأرة　　من المسك راحت في مفارقهم تجري
إلـيـك أمـيـر الـمـؤمـنـيـن بـمـالـهـم　　سيرضون إن شاطرتهم منك بالشطر

وإذ كان نفير الجهاد يستنفر الشباب العربي المسلم، فيفارق الفتى فتاته ليلة زفافها ركضاً إلى الثغور، وكان بعض النساء يألمن لمرور الشهور عليهن وحيدات، حتى كانت ليلة سمع فيها الفاروق أثناء طيافته الليلية صوت فتاة موجعة، تشكو وحدتها:

(ألا طال هذا الليل وازورّ جانبه) إلى آخر أبياتها الشجية فكانت تلك الأنة الشعرية سبباً في إصدار قرار: ألا يبقى الشباب في الثغور أكثر من أربعة أشهر، وكما كان الشعر سبباً في ذلك القرار العادل، فقد كان أيضاً حادي ركاب الجهاد والاستشهاد:

ومــا رزق الإنــســان مــثــل مــنــيّــةٍ　　أراحت من الدنيا ولم تخز في القبر

ويروى عن معاوية أنّ بيتاً لابن الإطنابة، منعه في يوم صفين من الفرار:

وقـولـي كـلـمـا جـشـأت وجـاشـت　　مـكـانـك تـحـمـدي أو تـسـتـريـحي

وما أكثر ما كان يتمثل عبد الملك ببيت الأخطل:

قــوم إذا حــاربــوا شــدّوا مــآزرهــم　　دون الــنــســاء وإن بــاتــت بــأطــهــار

ومن شمائل الأريحية المترفِّعة عن مقابلة الإساءة بالإساءة:

وأمنحه مالي وودِّي ونصرتي ... وإن كان (مَحْنِيَّ) الضلوع على بغض

ولقد كان للوليد بن عبد الملك (باني جامع دمشق) مكرمة نَشرِ مظلّة التأمين الاجتماعي على مواطني دولته الشاسعة الأرجاء. وكان جرير معنياً في شعره بالإلحاح على هذه المكرمة الإسلامية.

هاذي الأرامل قد قضيّت حاجتها ... فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر

إنّا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر[1]

وستحفل هذه الصفحات التي سنمرُّ بها بالكثير الطيب من باقات الشعر الفواحة بالقيم، بما يغني قارئ هذه الإلماحة، ورغم حرصنا على عدم الإطالة إلا أنّ نصين عامين لا يفي غيرهما بالدلالة على ما نحن فيه؛ الأمر الذي أوجب إيرادهما، فقد ذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد، المجلد الأول، ص ٢٩١:

عن الشعبي قال: وفدت سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية، على معاوية بن أبي سفيان، فاستأذنت عليه فأذن لها، فلما دخلت عليه، سلمت عليه؛ فقال لها: كيف أنت يا ابنة الأشتر؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين. قال لها: أنت القائلة لأخيك:

شمِّر لفعل أبيك يا ابن عمارة ... يوم الطعان وملتقى الأقران

وأنصر عليّاً والحسين ورهطه ... واقصد لهند ـ وابنها بهوان

إنّ الإمام أخا النبيِّ محمد ... علم الهدى ومنارة الإيمان

فقد الجيوش وسر أمام لوائه ... قدماً بأبيض صارم وسنان

قالت يا أمير المؤمنين:

مات الرأس، وبتر الذنب، فدع عنك تذكار ما قد نسي؛ قال: هيهات ليس مقام أخيك ينسى. قالت: صدقت واللّه يا أمير المؤمنين، ما كان أخي خفيَّ

---

(١) يخاطب عمر بن عبد العزيز.

المقام، ذليل المكان، ولكن كما قالت الخنساء:

وإنَّ صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

وبالله أسأل يا أمير المؤمنين استعفائي مما استعفيته. قال: قد فعلت، فقولي حاجتك. قالت: يا أمير المؤمنين، إنك للناس سيد، ولأمورهم مقلد، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزّك، ويبسط سلطانك، فيحصدنا حصاد السنبل، ويدوسنا دياس البقر، ويسومنا الخسيسة، ويسألنا الجليلة، هذا «ابن أرطاة» قدم بلادي، وقتل رجالي، وأخذ مالي، ولولا الطاعة لكان فينا عزٌّ ومنعة، فإما عزلته فشكرناك، وإما فلا عرفناك!

فقال معاوية: إياي تهدديني بقومك؟ والله لقد هممت أن أردّك إليه على قتب أشرس؛ فينفذ حكمه فيك، فسكتت، ثم قالت:

صلى الإله على روح تضمّنه ... قبر فأصبح منه العدل مدفونا

قد حالف الحق لا يبغي به ثمناً ... فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال: ومن ذاك؟ قالت: علي بن أبي طالب، رحمه الله تعالى. قال: ما أرى عليك منه أثراً؟ قالت: بلى أتيته يوماً في رجل ولاه صدقاتنا، فكان بيننا وبينه ما بين الغثّ والسمين، فوجدته قائماً يصلي، فانتقل من الصلاة، ثم قال برأفة وتعطف: ألك حاجة؟ فأخبرته خبر الرجل، فبكى، ثم رفع يديه إلى السماء، فقال: اللهم إني لم آمرهم بظلم خلقك، ولا ترك حقك، ثم أخرج من جيبه قطعةً من جراب، فكتب فيه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الإعراف: ٨٥] ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٥ - ٨٦] إذا أتاك كتابي هذا، فاحتفظ بما في يديك حتى يأتي من يقبضه منك، والسلام.

فعزله يا أمير المؤمنين. ما خزمه بخزام، ولا ختمه بختام؛ فقال معاوية: اكتبوا بالإنصاف لها، والعدل عليها، فقالت: إلي خاصة أم لقومي عامة؟ قال: وما

أنتِ وغيرك؟ قالت: هي والله إذاً الفحشاء واللؤم، إن لم يكن عدلاً شاملاً، وإلا يسعني ما يسع قومي. قال: هيهات لمّظكم ابن أبي طالب الجرأة على السلطان فبطيئاً ما تفطمون. وغركم قوله:

فلو كنت بواباً على باب جنة ... لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وقوله:

ناديت همدان والأبواب مغلقة ... ومثل همدان سنّي فتحة الباب

كالهندواني لم تفلل مضاربه ... وجه جميل وقلب غير وجاب

اكتبوا لها بحاجتها. ا هـ

إنّ من يقرأ هذا النص يفهم حرية القوم، وشممهم، نساءً ورجالاً، ويفهم مكانة الشعر في حياتهم.

أمّا النص الثاني الذي أورده صاحب العقد أيضاً، في المجلد الثالث، الجزء السادس من خبر الأصمعي مع الرشيد، فهو واسع الطول، ولكنه يرينا كيف كان خلفاء بني العباس، وقبلهم الأمويون يجيدون معرفة الشعر، بل وكانوا من أنقد نقاده، كما ترى الرشيد حين يتوقف عند بعض الأبيات مستعيداً أو ناقداً أو راوياً وقد حذفنا كثيراً من النصّ، واكتفينا بما ننقله هنا ص ١٣٩:

ودخلت، فواجهت الرشيد في البهو جالساً، كأنما ركب البدر فوق إزاره جمالاً، والفضل بن يحيى إلى جانبه، والشمع يحدق به على قضب المنابر، والخدم فوق فرشه وقوف، فوقف بي الخادم حيث يسمع تسليمي، ثم قال: سلّم، فسلمت، فردّ، ثم قال: ينحّى قليلاً روعه؛ إن وجد لروعه حساً، فقعدت حتى سكن جأشي قليلاً، ثم أقدمت فقلت: يا أمير المؤمنين، إضاءة كرمك، وبهاء مجدك؛ مجيران لمن نظر إليك، من اعتراض أذيّة له، أيسألني أمير المؤمنين فأجيب، أم أبتدئ فأصيب بيمن أمير المؤمنين وفضله؟ قال: فتبسم الفضل، ثم قال: ما أحسن ما استدعى الأخبار استهل به المفاتحة، وأجدر به أن يكون محسناً. ثم قال الفضل: والله يا أمير المؤمنين لقد تقدم مبرزاً محسناً في استشهاده على براءته من الحيرة،

وأرجو أن يكون ممتعاً. قال: أرجو. ثم قال: ادنُ، فدنوت؛ فقال: أشاعر أو راوية؟ قلت: راوية يا أمير المؤمنين. قال: لمن؟ قلت: لذي جدّ وهزل، بعد أن يكون محسناً. قال: والله ما رأيت أدعى لعلم، ولا أخبر بمحاسن بيان فتقته الأذهان منك. ولئن صرت حامداً أثرك؛ لتعرفنَّ الإفضال متوجهاً إليك سريعاً. قلت: أنا على الميدان يا أمير المؤمنين فيطلق أمير المؤمنين من عقالي مجيباً فيما أحبه، قال:

قد أنصف القارة من راماها

ثم قال: ما معنى المثل في هذه الكلمة بدئاً؟ قلت: ذكرت العرب يا أمير المؤمنين: أن التبابعة كانت لهم رماة لا تقع سهامهم في غير الحدق، فكانت تكون في الموكب الذي يكون فيه الملك على الجياد البلق بأيديهم الأسورة، وفي أعناقهم الأطواق، فخرج من موكب الصعد فارس معلم بعذبات سود في قلنسوته، قد وضع نشابته في الوتر. ثم صاح: أين رماة الحرب؟ قالوا: قد أنصف القارة من راماها. والملك أبو حسان إذ ذاك المضاف إليه. قال الرشيد: أحسنت أرويت للعجاج ورؤبة شيئاً؟ قلت: هما يا أمير المؤمنين يتناشدان بالقوافي، وإن غابا عنك بالأشخاص، فمد يده فأخرج من تحت فراشه رقعة ثم قال: أسمعني فقلت:

أرّقني طارق همٍّ طرقا

فمضيت فيها مضّي الجواد في سنن ميدانه، تهدر بها أشداقي، حتى إذا صرت إلى مدح بني أمية ثنيت عنان اللسان، إلى امتداحة المنصور في قوله:

قلت لزير لم تصله مريمه

قال: أعن حيرة؟ أم عن عمد؟ قلت: عن عمد، تركت كذبه إلى صدقه، فيما وصف به المنصور من مجده. قال الفضل: أحسنت، بارك الله فيك، مثلك يؤمل لهذا الموقف. قال الرشيد: ارجع إلى أول هذا الشعر، فأخذت من أوله حتى صرت إلى صفة الجمل، فأطلت؛ فقال الفضل: مالك تضيق علينا كل ما اتسع لنا من مساعدة السهر في ليلتنا هذه، بذكر جمل أجرب؟ صره إلى امتداح المنصور حتى تأتي على آخره. فقال الرشيد: اسكت؛ هي التي أخرجتك من دارك، وأزعجتك من قرارك، وسلبتك تاج ملكك، ثم ماتت، فعمل جلودها

سياطاً؛ تضرب بها قومك ضرب العبيد، ثم قهقه، ثم قال: لا تدع نفسك والتعرض لما تكره. فقال الفضل: لقد عوقبت على غير ذنب والحمد لله! قال الرشيد: أخطأت في كلامك يرحمك الله. لو قلت وأستغفرُ الله! قلت صواباً، إنما يحمد الله على النّعم؛ ثم صرف وجهه إلي وقال: ما أحسن ما أديت في قدر ما سئلت، أسمعني كلمة عدي بني الرقاع في الوليد بن يزيد بن عبد الملك، قوله:

عـرف الـديـار تـوهـمـاً فـاعـتـادهـا

ويقول بعد حوار بني الرشيد والفضل، أضربنا عن ذكره:

فمررت في سنن الإنشاد حتى بلغت إلى قوله:

تـزجـي أغـنّ كـأن إبـرة روقـه قـلـم أصـاب مـن الـدواة مـدادهـا

فاستوى جالساً ثم قال: أتحفظ في هذا شيئاً؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين كان الفرزدق لما قال عدّي:

تـزجـي أغـنّ كـأن إبـرة روقـه

قلت لجرير: أيّ شيء تراه يناسب هذا تشبيهاً؟ فقال جرير:

قـلـم أصـاب مـن الـدواة مـدادهـا

فما رجع عن الجواب حتى قال:

قـلـم أصـاب مـن الـدواة مـدادهـا

فقلت لجرير: ويحك لكأن سمعك مخبوء في فؤاده!

فقال جرير: اسكت، شغلني سبُّك عن جيد الكلام. ثم قال الرشيد: مرّ في إنشادك. فمضيت حتى بلغت إلى قوله:

ولـقـد أراد الله إذ ولاكـهـا مـن أمّـة إصـلاحـهـا ورشـادهـا

قال الفضل: كذب وما برّ. قال الرشيد: ماذا صنع إذ سمع هذا البيت؟ قلت: ذكرت الرواة يا أمير المؤمنين أنه قال: . . .

وقال أيضاً:

قال الرشيد: لقد وصفه بحزم وعزم، لا يعرض بينهما وكل ولا استذلال قال: فماذا صنع؟ قلت: يا أمير المؤمنين ذكرت الرواة أنه قال: ما شاء الله! قال: أحسبك واهماً. قلت: يا أمير المؤمنين، أنت أولى بالهداية؛ فليردني أمير المؤمنين إلى الصواب. قال: إنما هذا عند قوله:

ولـــقـــد أراد الله إذ ولاكـــهـــا   مـــن أمـــة إصـــلاحـــهـــا ورشـــادهـــا

ثم قال: والله ما قلت هذا عن سمع، ولكنني أعلم أنّ الرجل لم يكن يخطىء في مثل هذا. قال الأصمعي: وهو والله الصواب. ثم قال: مرّ في إنشادك فمضيت حتى بلغت قوله:

وعـلـمـت حـتـى لا أسـائـل واحـداً   عـن حـرف واحـدة لـكـي أزدادهـا

قال: وكان من خبرهم ماذا؟ قلت: ذكرت الرواة أنَّ جريراً لما أنشد عدي هذا البيت، قال: بلى والله وعشر مئين، قال عدي: وقر في سمعك أثقل من الرصاص؛ هذا والله يا أمير المؤمنين للمديح المنتقى. قال الرشيد: والله إنه لنقيّ الكلام في مدحه وتشبيبه. قال الفضل: يا أمير المؤمنين، لا يحسن عدي أن يقول:

شـمـس الـعـداوة حـتـى يـسـتـقـاد لـهـم   وأعـظـم الـنـاس أحـلامـا إذا قـدروا

قال الرشيد: بلى قد أحسن. ثم التفت إليّ فقال: ما حفظت له في هذا الشعر شيئاً حين قال:

أطـفـأت نـيـران الـحـروب وأوقـدت   نـار قـدحـت بـراحـتـيـك زنـادهـا

قلت: ذكرت الرواة أنه يا أمير المؤمنين حكَّ يميناً بشمال مقتدحاً بذلك، ثم قال: الحمد لله على هبة الإنعام. ا هـ

والنصّ أطول من هذا بكثير، تركنا ختامه خشية الإثقال والإملال، غير أن واقعة أخرى قصيرة للرشيد مع سهل بن هارون؛ تزيد من إلقاء الضوء على مبلغ حفظ علية القوم، وملوك الإمبراطورية الإسلامية الكبرى للشعر، حتى ليظن القارىء لأخبارهم أنهم أحاطوا بكل شعر الأقدمين علماً.

يقول صاحب العقد في نفس المجلد ص ١٦٣ :

دخل سهل بن هارون على الرشيد، وهو يضاحك ابنه المأمون، فقال سهل: اللهم زده من الخيرات، وابسط له من البركات. حتى يكون بكل يوم من أيامه موفياً على أمسه مقصراً عن غده! فقال له الرشيد: يا سهل، من روى من الشعر أفصحه، ومن الحديث أوضحه. إذا رام أن يقول لم يعجزه؟ قال: يا أمير المؤمنين، ما أعلم أحداً سبقني إلى هذا المعنى، قال: بلى سبقك أعشى همدان حيث يقول:

رأيتك أمس خير بني معدٍّ وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غداً تزيد الضعف خيراً كذاك تزيد سادة عبد شمسي

العنقود الثاني

خصائص الشعر العربي القديم

العنقود الثاني:

خصائص الشعر العربي القديم:

اليوم، والشعر المعاصر قد أعشت عينيه ضبابية الرمزية، والإغراق في الغموض، وتردى به المتشاعرون في أماكن هابطة من الجنسية المكشوفة، والركاكة المبتذلة، والعبثية المسرفة بالمفردات والتفعيلات وحدود النغم من جهة. وبانتهاك المقدسات، ومحاكاة الوطاويط الأجنبية، والغربان الناعقة حقداً على العربية ودينها.

في هذا الواقع المتردي الكئيب؛ أحببت أن أضع على صدر عناقيد عبقر هذه الوقفة كشفاً للمكابرين، وهداية للضالين، وتحفيزاً لِهِمَمِ الطامحين لانبعاث شعر عربيٍّ، يوائم بين جوهر الأصالة وتجديدية المعاصرة. وستكون وقفتنا هنا موزعة بين نقطتين:

أ) من حيث المفردة والبيت.

ب) من حيث الإطار العامّ.

أ) من حيث المفردة والبيت والقيمة الجمالية:

لعل العرب أعرق أمة في خدمة لغة فاه بها الإنسان في بواكير نشأته الأولى، وثابروا على خدمتها على اتصّال القرون والأجيال، يتجلى ذلك على مستوى المفردة وحدها، في تخصيصهم أكثر من علم، له قواعده وشروطه وعلماؤه ومراجعه. بداية من علم رسم الكلمة، ثم علم موسيقى حروفها (التجويد)، ثم علم النحو الذي يعنى بضبط أواخرها، ثم علم الصرف الذي يعنى بضبط شكل المفردة من داخلها.

ثم المعاجم المستقصية لشاردها وواردها، وعربيِّها ومعرَّبها، ثم علوم البَلاغة

الثلاثة. وهذه السلسلة من العلوم لا يأتي على استيفائها تأليفاً ومؤلفين، وقواعد وشوارد حصر أو استيعاب. وقد تسابق الجهابذة من علماء اللغة ابتداءً من الجاحظ فمن تلاه، إلى القرن الخامس الهجري بوضع أسفار تكشف فقه اللغة، من حيث المفردة، وأسفار تغوص في بحر البلاغة؛ بحثاً عن أسرارها. وحفظ لنا التأريخ أسماء أعلام بلغوا بهذا العلم مداه، وبالفهم اللغوي أقصاه: كالثعالبي وابن السكيت والجرجاني والقزويني وغيرهم. وأحسبنا باقتطافنا لشذرات من كتاب فقه اللغة لأبي منصور إسماعيل الثعالبي، نقدِّم إضاءة لا مزيد عليها لدِّقة المفردة في لغة الضاد، ورهافة ذوق واضعيها ورهافة حاسّة مستعمليها من الشعراء والناثرين، يقول عن تقسيم مفردات معنى اللين بحسب ما تنسب إليه من الأشياء أو الإنسان أو الحيوان ص ٣٢:

في تقسيم «اللين» على ما يوصف به:

ثوب لين، رمح لدن، لحم رخص، بنان طفل، شعر سخام، غصن أملود. فراش وتير، ريح رخاة، أرض دمثة، بدن ناعم، فرس خوار العنان إذا كان ليِّن المعطف.

ويقول في تقسيم الجدّة والطراءة، على ما يوصف بها ص ٤١.

ثوب جديد، بُرد قشيب، لحم طري، شراب حديث، شباب غض، دينار هبرزي (عن ثعلب عن ابن الأعرابي) حلة شوكاء (إذا كانت فيها خشونة الجدّة).

ويقول في تقسيم الحسن ص ٤٨.

الصباحة في الوجه، الوضاءة في البشرة، الجمال في الأنف، الحلاوة في العينين، الملاحة في الفم، الظرف في اللسان، الرشاقة في القدّ، اللباقة في الشمائل، كمال الحسن في الشعر ا هـ.

هذا وإنَّ من يطلع على اشتقاقاتهم، وأبنيتهم الصرفية، من قياسية وسماعية يجد في ذلك العجب، فإنّ لكل بناء صرفي أو اشتقاقيٍّ معنى وكيفية خاصّة به. ولقد أضاف الشهيد سيد قطب صاحب (في ظلال القرآن) إلى العناية بالمفردات العربية والإيماءات المنبعثة منها، والظلال المنسحبة معها كتابه النفيس (التصوير الفنّي في القرآن) ممّا لم يأت به أحد بعد الجرجاني، بل ولا الجرجاني نفسه. وإنَّ

من يقرأ نقداتهم الشعرية تأخذه هزة الإعجاب بدقتّهم ورهافة انطباعهم. وكنت أحبّ إفراد بحث خاص من هذه الرسالة لتلك النقدات. فإذا انتقلنا من المفردة إلى البيت وجدنا أن ابتكار العربي الأول للتفعيلة الشعرية، والوزن العروضي، ما هو أكبر من مجرد نقلة فنيَّة، أو طفرة موسيقية لم يسبقهم إليها أحد من الأمم، فإن صياغة المفردات في تفعيلة، وقرن تلك التفعيلة بتفعيلات أخرى من وزنها، أو مشابهة لها واستكمال ذلك في بيت يجمع في إطار مفرداته، ونسق تفعيلاته؛ المعاني الرائعة والصور البديعة لهو إنجاز فذّ، يماثل تماماً الدور الذي قام به مصباح أديسون في عالم الكهرباء.

إنَّ البيت الواحد لدى العرب هو أنبوب بلّوري يختزن في مجراه شحنة كهربائية عالية، وينطوي على الكثير من زمجرات الرعد، ولآلئ البرق. وإنَّه لغباء ما بعده غباء أن نسمع البغاث والمصابين بالكساح يسخرون من ذلك الإنجاز العالي، الذي حققته القرون والأجيال العربية المتتابعة، ولقد اختلف البلاغيون قديماً حول منطلق الإبداع البلاغي؛ أفي اللفظ أم في المعنى؟ حتى جاء عبد القاهر الجرجاني، ووضع نظرية النظم، وأخرج للناس في كتابيه (الدلائل) و(الأسرار) أمثلة طبق عليها تشريحه البلاغي، ومن الممتع المفيد أن نصغي قليلاً إلى الدكتور أحمد بدوي، وهو يقصُّ علينا في كتابه النفيس عن عبد القاهر؛ نموذجاً شعرياً، كان لكل من الجاحظ وعبد القاهر وقفة حوله. يقول ص ١٢٩:

فقد نقل صاحب الدلائل بيت الحطيئة:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نارٍ عندها خير موقد

ونقل تعليق الجاحظ على هذا البيت؛ إذ قال الجاحظ:

(وما كان ينبغي أن يمدح بهذا البيت، إلا من هو خير أهل الأرض، على أنّني لم أعجب بمعناه أكثر من عجبي بلفظه وطبعه ونحته وسبكه) ويقرّ عبد القاهر الجاحظ على رأيه. وإذا كان الجاحظ قد أشاد بالصياغة، فقد وقف عند ذلك لا يتعدّاه، ولم يبين سرّ الجمال في الصياغة، بينما لم يقف عبد القاهر عند هذا الحد، بل مضى يبحث عن سرّ هذا الجمال؛ فرآه في هذا التناسق بين المعاني،

والتحام بعضها ببعض حتى صار الكلام صورة لمعناه، فأصبحت البلاغة من صفات المعاني، لا الألفاظ، وعلى هذا فهم عبد القاهر كلام الجاحظ، فإذا كان الجاحظ قد تحدث عن اللفظ، فإنه يريد الصورة التي تحدث في المعنى، والخاصة التي كانت فيه. وسيل المعاني سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصورة. ليس إذاً ثمة خلاف بين عبد القاهر والجاحظ، فكلاهما يرى الصياغة الأدبية هي التي بها يتفاضل رجال الكلام) ا هـ.

ولنا هنا إضافة بصدد البيت:

(متى تأته تعشو إلى ضوء ناره) فروعته تأتي فيما أرى من صدقه وواقعيته، وإلا فهو تقريري في مجمله، وأحسب أن بيت الأعشى:

تشبُّ لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلّق

يفوقه بلاغياً، فمع أنَّ صدره تقريري، إلا أنّ عجزه قد حفل بالوثبة البلاغية التي فات بها، شأو البيتَ السابق حيث جعل الندى مجسماً في شخص مسامر للمحلق، وذلك ما لم يتأتَ للبيت الأول. ومما يساعد على التعريف بدور المفردة الواحدة في القفز بكامل البيت؛ أن نتوقف قليلاً أمام بيت الشريف الرضي:

لمن الحدوج تهزهنَّ الأينق والركب يطفو في السراب ويغرق

فصدره كما ترى تقريري إجمالاً، ولكنه هيّأ لوثبة شطره الأخير، وما كانت تلك الوثبة لتتم لولا المفردتان:

يطفو، يغرق؛ فإنّ الظلال المنسحبة منهما أحالت الصورة إلى مشهد آخر، فقد أصبح السراب بحراً، والركب سفيناً طافياً حيناً وغارقاً حيناً آخر. وهنا نلتقي بنظرية سيد قطب حول جرس الكلمة وظلالها.

القيمة الجمالية ومكانتها

يحصر الكثير من الناس الجمال في المنظر الرغيب، من زرع نابت غضير، أو زهر متألق نظير، أو جسم فاره، وليس ذلك كل الجمال، وإنما هو جانب من جوانبه، ويبقى الجمال بمعناه الواسع، وحقيقته الشاملة، سلامة في الأجسام،

واستواءً في العقول، واستقامة في الأخلاق، وذلك هو ما فطن إليه ابن معدي كرب منذ زمن سحيق:

ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن رديت بردا
إنّ الجمال مآثر ومناقب أورثن حمدا

وعلى هذا؛ فإنّ أي نصٍّ بلاغي، شعراً كان أو نثراً، ما لم تتوفر له القيمة الجمالية من صدق في الموضوع، وصدق في التعبير؛ ليس إلا هذراً، أمّا صدق الموضوع فنعني به أغراض الشعر؛ من وصف أو ثورة أو مدح أو غزل، إلى سائر الأغراض الشعرية، يقولها الشاعر غير مبالغ فيها ولا متكلف. ونعني بصدق التعبير الصدق الفنّي من مثل بيت الشريف الرضي الذي أسلفناه، فهو وإن كان الركب لم يطفو ولم يغرق في بحر، وإنما يسير براً، إلاّ أن المشاهد للحدوج القاطعة الفيافي، عند حمّارة القيظ؛ يلحظ شيئاً من صدق التصوير الذي ذهب إليه الشاعر. ثم يأتي بعد توفر القيمة الجمالية للعمل الشعري؛ ما ذكره النقاد من حسن توظيف المفردات، وما يتأتى في السياق من تقديم وتأخير، وتلميح وتخييل.

وأحسب عبد القاهر حين لم يلحّ على القيمة الجمالية الإلحاح الكافي في كلامه عن دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، لأنّه كان يتكلم عن القرآن، وهو ينبوع القيم، ومجمع المحامد[1]. ولمزيد من توضيح هذا الملحظ نشير إلى شيئين اثنين أولهما: المبالغات الشعرية على ما فيها من أناقة في اللفظ، واتّساع في الإغراب، إلا أنّ خلوّها من الصدق يجعلها لدى المتلقي مبتذلةً ممجوجة.

وثانيهما: معانٍ صادقة أخرجها أصحابها في لفظ عامّي مستعمل، فرزقت الكثير من الرواج، وتعلق القلب والأذن بها. مثلاً على الصنف الأول مبالغة «بشار» في وصف نحوله، وتزلفه بذلك النحول للحصول على عطف عبدة، بينما هو في ضخامة الجمل البازل:

إنَّ في بـرَديَّ جسماً ناحلاً لو توكأت عليه لانهدم

---

(١) توسع صاحب الطراز: الإمام يحيى بن حمزة في هذا المجال؛ ما لم يتوسعه الجرجاني.

ومن نوع هذه المبالغة السخيفة قول المتنبي:

كفاك مني نحولاً أنني رجل   لولا مخاطبتي إيّاك لم ترني

ومثلاً على الجانب الآخر، ما يتبادله أعراب الصحراء الأميّون من خبت حيس وزبيد، عن قصة شيخ طاعن مرَّ ببئر، وجد عليها شابة تمتح ماء فاستوقفه ريعانها وجمالها، ولم يجد من تعلّة لمزيد من الاستمتاع بمنظرها، إلا أنه يريد ماءً، فلما سقته لبث في مكانه لا يريم، وحين ناقشته عن سبب توقفه عرفت منه أنه تعلق بحبها، ويتعلل بالإعياء عن المشي، واضطراره إلى البقاء. هنا قالت بيتها:

وعَمّ عمّيت قوم ارحل   واشترى لَمْحَوي تبعة

شرط المحبّة كلعب الحل   كلٌ ينقيّ على وبعه

المفردات العامية في البيت الأول (عمّيت) شربت (أمْحوي) تعب السفر. (تبعة) حمار. وفي البيت الثاني (الحلّ) لعبة كانت محل اهتمام الفتوّة بتهامة (وبعة) مثله ونظيره.

ونصّاً ثانياً هنا من نفس اللهجة في نفس المنطقة، رجل كان يظنّ بابن أخيه المساس بابنته، حين ينفردان في الرعي؛ فقرر أن يراقبهما عن كثب، ولمّا لم يرَ بأساً، حول بندقيته إلى ظبي كان يرعى بجوارهما، فصرعه، وتركه يتخبط في دمائه، دون أن يذبحه، ولما استفسره ابن أخيه عن السبب، أخبره بما قيل له، وأمره بالكتمان، وحذره من أن يصيبه ما أصاب الظبي:

حسمك تباح تَنبيء   تصبح تقول آح واندماه

تحري عليك قصة أمشنبي   حيد كيف يقلب المدّ بين دماه

ومعنى مفردات البيت الأول: (حسمك) أحذرّك (تباح تنبي) من الإخبْار بما وقع. أما عجز البيت ففصيح. وفي البيت الثاني (امشْنبي) هو الظبي (حيد) أمل نظرك إلى الظبي، وهو يتشحط بيديه ورجليه في دمائه، لا شك أنّ صدق النصّينْ وعفويتهما تجعلهما ذوقياً، يفوقان الكثير من الأبيات المحبّرة الخالية من صدق الموضوع والأداء. ومن هنا أحس أنّ غزل المجنون وأمثاله من العشاق الصادقين

كان له أن يفوت غزل غيرهم من أدعياء العشق، وتأكيداً لهذا المذهب عن مكانة القيمة الجمالية لنجاح العمل الشعري وخلوده نورد نصوصاً تدور حول قيم: الصدق، الشجاعة، الحلم، المرأة، والحكمة.

مبتدئين بالصدق بمعناه الواسع الذي أشرنا إليه، وقديماً فطن زهير إلى أهمية قيمة الصدق للعمل الشعري:

فإنَّ أحسن بيتٍ أنت قائله　　بيت يقال إذا أنشدته صدقا

ولا بأس من أن نستعير من الدكتور محمد علي سلطاني، نصّاً من كتابه (مع البلاغة العربية في تاريخها) ص ٢٠٥:

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣].

ويقول أبو تمام:

لما بكت مقل السحاب حياً　　ضحكت حواشي خدها الترب

وقال مسلم بن الوليد[(١)]:

لا تعجبي يا سلم من رجل　　ضحك المشيب برأسه فبكى

الطباق في الأصل وسيلة فعالة في يد الأديب؛ لكي يبرز بجلاء تام خصائص كل جانب، عن طريق المجاورة بين الأضداد، مصداقاً للقاعدة المعروفة (وبضدها تتميز الأشياء) ففي هذه النماذج الثلاثة طباق بين (الضحك) و(البكاء) ولكن هل جاء هذا الطباق فيها جميعاً على سوية واحدة من النجاح والتأثير؟

لنناقش كلاً منها على حدة. فالطباق في الآية جاء بلفظتي (أضحك وأبكى) وهذا الطباق لم يأت زائداً على العبارة، لأننا عن طريقه عرفنا المراد في الآية، فوجوده أصل في إبراز المعنى، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، جاء الطباق غنيّاً في إيماءاته وصوره؛ إذ يقف خلف (أضحك) نصف البشرية، أو ما يقرب من ذلك، ممن تملأ نفوسهم الفرحة الغامرة بنجاتهم من العذاب، بعد أن تحدّد

(١) الصحيح: أن الشاعر هو دعبل بن علي الخزاعي.

مصيرهم إلى الجنة. وإنه وإن اكتفى للتعبير عما يملأ نفوسهم من مشاعر المسرة والرضى بكلمة أضحك إذ اتخذها سبحانه رمزاً لا يرتاب أحد في سعادة صاحبها ـ إلا أن المشهد أغنى كثيراً من مجرد الضحك ـ فلكل أمرئ منهم بلا ريب طريقته في التعبير عن سروره، فالمجال فسيح جداً للخيال، كي ينطلق في أرجاء هذه الصورة الواسعة؛ ليتخيل مظاهر الفرحة ترتسم بخطوط متباينة على وجوه هذه الجموع الحاشدة.

ومثل ذلك كلمة أبكى إذ يقف خلفها أيضا بقية البشر، وما قلناه في أضحك، من أنها لا تصور على الدّقة كل ما تنطق به وجوه القسم الآخر من ندم وحسرة وحزن وألم؛ غير أنها رمز بالغ الوضوح، يحمل إلى الناظر من اللمحة العابرة تعاسة صاحبها؛ وما يعتصر أفئدة قبيله من عذاب مرتقب ومصير مريع. فللخيال حرية مطلقة في إغناء الصورة التي توحي بها الكلمة، مستمداً ذلك الإغناء مما تمتع به صاحبه من ثقافة وفطرة ومشاهدات.

وبذلك يظهر لنا مدى معنى هذا الطباق وقدرته على تحقيق الغاية من إيراده في أنه لم يأت زائداً على المعنى، بل إن المعنى أطل علينا من خلاله بألفاظه نفسها؛ إذ رسم لنا على إيجازه البالغ ـ لوحة لا حدّ لغناها وإيحاءاتها وحيوية شخوصها وتعبيراتها.

أما في بيت «أبي تمام» فالصورة محدودة الأفق، فقيرة الإيحاء، إضافة إلى أن البكاء لا يصلح تعبيراً عن غزارة مطر يحيي الأرض، ويكشف عن ثغور أزهارها... ثم إن تأثير صور البيت؛ هذه لا يرتسم في المخيلة والنفس فور سماع البيت؛ بل يحتاج ذلك إلى محاولة تجميع غير قليل، لمجموعة من الجزئيات، تتقارب في صعوبة، وتلّطف مقصوده؛ لتقوم الصورة الكلية المطلوبة.

هذا إلى حشو ظاهر في هذا البيت المفرد. من ذلك لفظة (حياً) وهل شك السامع في أن بكاء السماء سيكون مطراً؟

وإلا فماذا يمكن أن يكون عند ذلك. وكذلك (حواشي والترب) كلمتان لا يبدو لهما دور واضح في بيان استبشار الأرض وابتسامها. ولماذا يقتصر الضحك على الحواشي، وكيف؟

والحق أن في قوله هذا من الطرافة، أكثر مما فيه من العمق والتأثير، كما في الآية. أما في قول مسلم، فحسن قوله (ضحك المشيب) أمّا (فبكى) فقد أتى بها بغية إقامة الطباق ليس غير. إذ ليس من المألوف أن يبكي الرجل لرؤية شيبه. وقد كان مسلم يريد الأسف أو الندم أو الحزن والتأمل. غير أنه أتى بكلمة (بكى) ليصل إلى الطباق على حساب المعنى. فجعل منه بذلك غاية في ذاته، لا وسيلة فنية وأقدر. وهنا موطن التكلف والخروج عن الجادة. وبداية السقوط. ا هـ

وواضح من كلّ ما سبق: أنَّ الصدق هو العامل الحاسم، والقسمة الراجحة، في إعطاء النصّ البلاغي أفقه الراقي.

ويظهر أنَّ الصدق هو الإطار الجامع لكل القيم، والمعيار الذي لا يخون عند الوزن، فحين رأى الإمام علي بلاء قبائل الشمال في معركة صفين، وكان قد أثنى على قبائل اليمن في نص سابق، ليس هنا محل إيراده، حين رأى ذلك أنطقته هزة الإعجاب بفدائية قبائل ربيعة، فقال أبياته الجزلة المشحونة بالتأثر والتأثير:

لمن راية سوداءِ يخفق ظلّها ... إذا قيل قدّمها حضين تقدما

يقدِّمها في الصف حتى يزيرها ... حياض المنايا تقطر السمَّ والدما

جز اللّه عني - والجزاء بكفِّه ... ربيعة خيراً ما أعفّ وأكرما

فلولا شجاعة ربيعة، وحسن بلائها؛ لما نطق السيّد الإمام بكلّ هذا، ذلك من حيث الموضوعية. أمّا من حيث الصياغة فإذا كان الإمام في بيته الثالث قد وكل الجزاء إلى الله الذي يملك خير الجزاء. فإن الحطيئة المُبْلِس يحدّد الجزاء لممدوحه بخير ما يجزيه الرجال. وهنا يظهر فارق الإيمان لدى المؤمن، ومناط رجائه حين يكون في أعلى الآفاق عند الله، ومناط رجاء غير المؤمن بالبُشر الضعاف. يقول الحطيئة:

جزى اللّه عنّي - والجزاء بكفّه ... بأفضل ما يجزي الرجال بغيضا

ونعود إلى بيت الإمام، فنرى صياغة النظم قد جعلته يؤخر مفعول (جزى) إلى الشطر الثاني (خيراً) ويملأ ما بين الفعل ومفعوله بجملة معترضة (والجزاء

بكفّه) هي من أجمل صور الإطناب، لدى أصحاب المعاني، ونلحظ أن البيت قد ارتفع في ختامه عالياً؛ بسبب ما تفيضه عليه صيغة التعجب من جمال وحسن موقع (ما أعفّ وأكرما) وكما تستولي قيمة الشجاعة على النفس، يكون استيلاء قيمة الحلم عليها، وتأثيره فيها. يقول حاتم طيء عن ابن عم كاشح، لم يجد من علاج لضغنه غير الصفح عنه والإحسان إليه:

وقلت له عد للمودة بيننا ... ولم أتخذ ما كان من جهله قمرا

لأستلّ ضبا كامناً في فؤاده ... وأقلم أظفاراً أطال بها الحفرا

إنَّ المتلقي لهذين البيتين يهتزّ أولاً إعجاباً بحلم هذا الرجل الحليم. ويهتز ثانياً إعجاباً بجمال التصوير والعرض، إن الحقد الكامن في القلب قد أصبح ضبًّا لا يعمد الحليم إلى إخراجه بالسيف، ولكنه يعمد إلى أن يسله استلالاً بالإحسان. وكذلك تكون البلاغة متممة ومستفيدة في وقت واحد من صدق القيمة الأخلاقية. حتى المرأة وجمالها الأخّاذ، لم يحتج العربي القديم إلى الإغراب الخيالي، والإغراق في التماس الصور المغرية به والمصورة له. وإنما اكتفى بتصوير واقع وجه الحبيب، مستعيناً بوجه الشبه بين عينيه وعيني الظبي المواطن لهذا الحبيب، في نفس تلك البيئة الصحراوية:

وكأنها وسط النساء أعارها ... عينيه أحور من جآذر جاسم

وسنان أقصده النعاس فرنقت ... عينيه من سنة وليس بنائم

وما عليك إلا أن تسمع هذين البيتين، فتشعر بقلبك منفتحاً لهما، وخيالك معانقاً لصورتهما الحبيبة القريبة.

وإذا كانت الحكمة من المواضيع العقلية البحتة؛ فإنَّ بلاغة الشعر العربي، وحسن تطوافه بها، وتصريفه لجنباتها؛ يعطيك أشهى الثمار، وأزهى الألوان.

مثلاً المكان والزمان، وهما الوعاءان الجامعان لكل خافق وسارب، وسابح وسانح في هذه الآفاق والأعماق من الكون، لا يرى فيهما الحكيم المقروح القلب بالأحداث والخطوب غير طاحونة تحصد بني الإنسان:

أشاب الصغير وأفنى الكبير   كرُّ الصباح ومرُّ العشيِّ
تموت مع المرء حاجاته   وتبقى له حاجة ما بقي

كلا البيتين تقريري خالٍ من أيِّ لمح بلاغي، اللهمَّ إلا صرامة الحكمة، ورنة الحزن، ورمادية الكآبة، لكن الشعر المنبعث من العاطفة المعجبة الطروب لا ينظر إلى الموضوع بهذا المنظار، ولكن من مناظر أخرى:

تأثير الزمان في المكان.

تأثير المكان في الزمان.

تأثير المكان في الأجسام والعقول والوجدان.

ونبدأ بالأوّل فإذا كان الربيع عروس العام، لا يراه أبو تمام إلا من منظار نفعيّ بحت، فلا يهز في سامعه شيئاً من عاطفة أو وجدان:

دنيا معاش للورى حتى إذا   جاء الربيع فإنَّما هي منظر

فإنَّ أبا عبادة لا يستقبل الربيع بهذا التعبير الجامد الراكد، وإنما يعكس وقع استقباله للربيع في نفسه، ويعرضه لنا في بيتٍ مشحونٍ بالكهربية العالية، وذلك هو ما أسمِّيه بـ(الشعر الفيتامين):

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً   من الحسن حتى كاد أن يتكلما

إنّه بيت يرق له الصخر، وينفعل به الجماد.

أمّا تأثير المكان على الزمان، باعتبار المكان جوهراً، والزمان عرضاً، وانعكاس ذلك في شعرنا، فمن أمثلته قول النواسي:

ألم ترَ الشمس حلَّت الحملا   فطابَ وجهُ الزمانِ واعتدلا

ذلك من تأثر المناخ وتأثيره في النفوس والأبدان، وكما يستوي الليل في المناطق الاستوائية، فإنّه يستطيل كثيراً بمقدار بعده في الأماكن الشمالية من الكرة، حتى ليكاد يغيب النهار عنها أسابيع بل شهوراً. عن مثل هذا الحال يصف الشاعر المرابط في مدينة (صول) ليلها الطويل:

في ليل صول تساوى العرض والطول   كـأنـمـا لـيـلـهـا بـالـلـيـل مـوصـول
لـيـل تـحـيَّـر مـا يـنـحـطّ فـي جـهـة   كـأنّـه فـوق مـتـن الأرض مـشـكـول

ونرى تأثير المكان في أجسام الكائنات به، والحبيسة في إطاره، على نحو ما يعرضه مهيار:

ومـن خـلـفـهـا الـبـلـد الـمـقـشـعـر   يـردُّ ظـبـاء الـمـهـاري ضـبـاعـا

وتأثيره في العقول، على نحو ما يعرضه أبو تمام، عن بعض الأماكن الثقيلة الهواء:

تـصـدى بـه الأذهـان بـعـد صـقـالـهـا   ويـردّ ذكـران الـعـقـول إنـاثـا

وتأثير الوطن في وجدان المواطن، لم يصوره شاعر؛ ما صوره مبدع التخييل الحسّي، على ما فصله الأستاذ العقاد، عن الشاعر المبدع «ابن الرومي»:

وإذا تـمـثـل فـي الـضـمـيـر رأيـتـه   وعـلـيـه أغـصـان الـشـبـاب تـمـيـد

البلاغة الإيجاز

أكثم بن صيفي

(١) الإيجاز:

الإيجاز ذروة كلام العرب، ومضمار فرسان بلاغتهم، وهو عندهم المعنى الكثير في اللفظ القليل، مع وضوح وعذوبة، وملاحظ هذا الإيجاز ووجوهه كثيرة، ومآتيه متصاعدة تبدأ من المفردة كما أسلفنا إلى الجملة، ثم الفقرة أو العبارة. وإيجازهم في المفردة تعني أسماء تبيِّن حالات المسمى الواحد، ممّا يغني المستمع أو القارئ عن مزيد من الاستيضاح، فالظبي هو الاسم الجامع للحيوان الجميل المعروف، ولكن أسماء أخرى لهذا الحيوان تعطي دلالة في نعته ووصفه.

فالرئم هو الظبي الأبيض، والشادن هو الصغير من الظباء، والخشف هو الأحدث ولادةً، والغزال هو الأكبر سنّاً منهما، ذلك على نطاق اللفظة المفردة، أما على نطاق تقسيمهم العامّ للكلام فإنهم جعلوه ثلاثة أقسام: الإطناب، ويعنون به كثرة الكلام، وزيادته على المعنى لضرورة دلالية أو جمالية، وإلا فهو الإسهاب المذموم.

المساواة: ويعنون بها ما تساوى لفظه ومعناه، وهو وسط في أنماط بلاغتهم:

الإيجاز: وهو الذروة القصوى والأوج الأعلى عندهم، وقد قسّموه إلى قسمين: إيجاز اختصار وإيجاز حذف، ولكل منهما موقعه البلاغي من مجرى النص الموشوج به والمنسوج فيه. وقد دفعهم حبهم للإيجاز إلى أن جعلوا التشبيه البليغ أجود تشبيهاتهم، والتشبيه الضمني مرمى عباراتهم، ومثله الاستعارة بأقسامها، والكناية التي هي غاية المدى في الإيجاز والدلالة، حيث تدلك كلمة (بعيدة مهوى القرط) على معانٍ وراءها يفهمها السامع والقارئ، ويتعشق ما وراءه

من إيماء إلى الحسناء الطويلة العنق.

وقد كان القرآن الكريم، وهو السماء العليا المعجزة ببلاغتها ـ حافلاً بصور للإيجاز بنوعية تأخذ بالألباب، ولا يكاد ينقضي العجب من روعتها واحتشاد المعاني الكثيرة منها من مثل ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] الذين ذكروا أربعين وجهاً في إعجازه[1]. فإذا انتقلنا من المفردات، وتقسيمات أصحاب المعاني، وتبويبات أهل البيان، إلى النحو وآثار قواعده في هذا الإيجاز؛ وجدنا ما لا يستوفيه مثل هذا الاستعراض القصير.

مثلاً تصريفات الفعل من لازم كـ(جاء) وتعديته بإدْخال همزة عليه في مثل قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٣] فإنَّ هذه التعدية قد أغنت المتكلم عن كلام كثير، يشرح أسباب مجيء السيدة البتول إلى الجذع، وكيفية ذلك المجيء. كذا ما يأتي به الحذف لحرفٍ أو فعلٍ من جمال في التعبير، مع الإيجاز، من مثل قول طرفة:

ألا أيهذا الزاجري أحضُرَ الوغي وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

فأنت ترى كيف أنَّ حذف (أنْ الناصبة) للفعل (أحضر) أضفى على النصّ جمالاً ملحوظاً. ومن أمثلة حذف الفعل قول الأخيلية:

لا تقربنَّ الدهر آل مَطرِّف إن ظالماً أبداً وإن مظلوما

فقد حذفت الكلمة بكاملها، وبقي تقديرها ظاهراً من السياق (كُنْتَ) فالمحذوف هنا كان، والضمير الذي هو اسمها.

أما إذا نظرنا إلى العروض بأوزانه الخليلية، فإنّه هو الآخر عامل له أثره في التزام الإيجاز وتوخّيه، حتى إنَّ الشاعر الأول كان يحرص على استيعاب البيت الواحد لمعانٍ متكاثرة، يتكون من مجموعها بنيان أدائي وجمالي يغني عمّا عداه، وليس هذا تصديقاً منا لما يقوله بعض من يمقتون القصيد العربي، وما يزعمونه من

(١) جاء الإمام يحيى بن حمزة في كتابه (الطراز) بإيرادات قرآنية واسعة، في مضمار الإيجاز وغيره.

تباعد أبياته عن بعضها، فذلك في أغلبه اتهام ظالم؛ سنبيّن تجنيه في مكانه من هذا الباب.

ولما ذكرناه من أثر العروض على الإيجاز في شعرهم، وردت نماذج يعجب قارئها لحسن تقسيمها، وجودة أدائها من مثل:

الـــنـــاس حـــمـــيـــرُ والـــتـــراخـــم رأســـهـــا
وأبـــوك مـــقـــلـــتـــهـــا وأنـــت الـــنـــاظـــر

وهذا مجال نشير إليه، وننبه عليه، ولا نستقصيه. ولأنّ الشعر العربي اليوم يعاني من الكثرة الرديئة في التعبير، دون أن تظفر لا من البيت الواحد، بل المقطوعة كاملة، بمعنى مفهوم، أو صورة أخاذة، فقد حرصت أن أقدم هنا نماذج في شتى الأغراض، يتناولها البيت أو البيتان من شعرنا القديم، فيملك عليك قلبك ولبك. كي يتنافس الأبناء في الإقبال على منهل الشعر العربي الأصيل؛ جرياً في سَنّنه، واغترافاً من نميره، فإن البيت الواحد من النصوص التالية، لا يساويه ديوان كامل من نقيق الضفادع، ونعيق الغربان.

(١) مكرمة البطولة: تنشعب منها خلتّان عاليتان حبيبتان إلى كل النفوس: الكرم، الشجاعة.

والكرم فوق أنه خلق رفيع، يشهد بسموّ نفس صاحبه ونبلها؛ فإنّه في الصحراء ضرورة حياتية لإنقاذ روح الخابط في الظلماء الباردة، والمُرتمِض في حمّارة القيظ؛ لهذا أكثر العرب من التنويه بهذه الخليقة السامية، وتباروا في خلع أفضل الألقاب، وأحسن حلل الثناء على الإنسان الكريم، وأبياتهم المأثورة في هذا لا يستوفيها حصر، فما أكثر ما حاول الأقدمون والمحدثون تحديد أرقى بيت في المديح، وكان لكلٍ أنموذجه الذي اقتنع به، وتوقف لديه، وليس من طبيعة الحياة الوقوف عند خط والتقيد بموهبة شاعر، فالعَطاء متجدد لا يسمح بأي تحديد، غير أنّ بيتاً استوقفني، وأنا أتتبع أشواط بلغائهم في هذا المضمار؛ فما وجدت في حدود اطلاعي من يتجاوزه أو يربي عليه، لا لأنّه أغرق في الخيال، وأسرف في الثناء، وإنما لأن حبّه لممدوحيه من بني (لام) أشعره باشتراك المظاهر الكونية مع

الشاعر في حبهم والتأثر بهم فقال:

يكاد السحاب الجون يرعد إن رأى وجوه بني لامٍ وينهلُّ بارقه

(٢) وفي الخليقة الثانية التوأم للكرم: «الشجاعة» يتنافس المتنافسون في ارتداء شاراتها، ولكنها لا تعطي وسامها إلا للصادقين حين البأس. وإذا كان شاعر قديم يخبرنا عن قومه أنه أفنى أبطالهم «قيل الكماة إلا أين المحامونا» وأخبرنا عنترة عن إشفاء نفسه بـ«قيل الفوارس ويك عنترة أقدم» فإن كلا النصّين يصوّران بطولة العربي قبل الإسلام في الدفاع عن الحياض، في نطاق القبيلة. وقد جاء الإسلام واتسع الفتح، وارتقت دوافع القتال إلى جهاد واستشهاد، واتسع الميدان فلم يعد صراع قبيلة ضد أخرى، وإنما التفت كل القبائل عدنانية في أقصى الشمال، وقحطانية في أقصى الجنوب؛ لتصبح جيشاً يقوده موهوبون مخلصون، من مثل هذا الذي عناه الشاعر:

إذا قيل من حامي الحقيقة أومأت إليه معدٌّ بالأنوف وقحطان

نلفت النظر إلى المفردات الثلاث: الحقيقة، أومأت، الأنوف. فهو هنا يدافع عن الحقيقة الجامعة لكل الحقائق والقيم، سماوية وأرضية. أمّا (أومأت) فالميدان لا يسمح بغير الإيماء، الذي أصبح إجماعاً لدى المقاتلين. بعد هذا نتساءل: لماذا الإيماء بالأنوف، ولم يكن بالبنان، وهو تعبير لا يضطرب له وزن البيت؟

لأنَّ الشاعر يرينا أن الأيادي مشغولة بقوائم السيوف وصعاد الرماح، فلم يبق إلا العرانين الشمّاء رمز الأنفة والحميّة.

(٣) لا أعرف بيتاً يصرح بمعنى المثل (حُبُّك الشيءَ يعمي ويصمّ) ثم يتجاوز ذلك إلى جدارة الحبيب في كلا حاليه؛ من براءة أو وقوع في عيب، كبيت الأخيلية في توبة:

لنعم الفتى إن كان توبة فاسقاً وفوق الفتى إن كان ليس بفاسق

(٤) ويفخر الفاخرون بعلوّ مكانتهم وسموّ قومهم، وما أحسبهم يأتون بأعذب وأطرب من بيت ابن ميّادة:

سقتني سقاة المجد من آل ظالم   بأرشية أطرافها في الكواكب

(٥) وفي مجال وصف الواصف لجيش قومه اللجب، لا أبدع ولا أروع من بيت أبان بن عبدة:

إذا نحن صرنا بين شرق ومغرب   تحرّك يقظان التراب ونائمه

فانظر يا رعاك الله لما تعطيه كلمتان: يقظان، نائم، في وصف التراب من جمال، لا سبيل إلى التعبير عنه.

(٦) وهذا يريد أن يصف لنا سجاجة أخلاق ممدوحه، التي بلغت بالصديق مبلغ الشقيق، فيتحفنا بهذا البيت الذي يغني عن أيّ بيت آخر:

وإذا رأيت شقيقه وصديقه   لم تدر أيّهما من الأرحام

(٧) وآخر يصف إخوةً، كلهم قمة في الجمال والكمال:

من تلقَ منهم تقل لاقيت سيِّدهم   مثل النجوم التي يسري بها الساري

(٨) وآخر يعرب عمّا بجوانحه من الالتياع:

أودُّهم وداً إذا خامر الحشا   أضاء على الأضلاع والليل دامس

(٩) وآخر يوجز في مدحه، فيجمع ويبدع:

وإذا تباع كريمة أو تشترى   فسواك بائعها وأنت المشتري

(١٠) وهذا في شطر يصف نفسه، وفي شطر يعرض بآخرين:

فإن أكُ في شراركم قليلاً   فإني في خياركم كثير

(١١) وهذا يصف قوماً بالحلم:

عليهم وقار الحلم حتى كأنما   وليدهم من أجل هيبته كهل

(١٢) وغاية الإبداع التعبير عن ودّ كلب الكرام للضيف:

يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلاً   يكلّمه من حبّه وهو أعجم

(١٣) وإذا كان الحديث يعلمنا: (اطلبوا الخيرَ من حسان الوجوه) فإنّ الخنساء بنت الشريد تؤكد هذا المعنى من واقع تجربتها:

دلَّ عـلـى مـعـروفـه وجـهـه ... بـورك هـذا هـاديـاً مـن دلـيـل

(١٤) ونختتم وقفتنا هذه عن الإيجاز بمقاطع خمسة؛ يتكون كل مقطع من بيتين، تقدّم نفسها، وتغني عن كل تعليق:

ونـبـئـت سـوداء الـغـمـيـم مـريـضـة ... فـأقـبـلـت مـن مـصـرٍ إلـيـهـا أعـودها

فـوالـلّـه مـا أدري إذا مـا أتـيـتـهـا ... أأبـرؤهـا مـن دائـهـا أم أزيـدهـا

(١٥) رعـاك ضـمـان الـلّـه يـا أمَّ مـالـك ... ولا الـلّـه عن[1] يـشـقـيـك أغـنـى وأوسـع

يـذكـرنـيـك الـخـيـر والـشـر والـذي ... أخـاف وأرجـو والـذي أتـوقـع

(١٦) وكـنـت إذا أرسـلـت طـرفـك رائـداً ... لـقـلـبـك يـومـاً أتـعـبـتـك الـمـنـاظـر

رأيـت الـذي لا كـلُّـه أنـت قـادر ... عـلـيـه ولا عـن بـعـضـه أنـت صـابـر

(١٧) ومـن يـفـتـقـر مـنـا يـعـش بـحـسـامـة ... ومـن يـفـتـقـر مـن سـائـر الـنـاس يـسـأل

وإنّـا لـنـلـهـو بـالـسـيـوف كـمـا لـهـتْ ... عـروس بـعـقـدٍ أو سـخـاب قـرنـفـل

(١٨) وأتـى ابـن بـشـر فـي مـواكـبـه ... تـمـشـي بـه خـطّـارة سُـرح

فـكـأنـهـم نـظـروا بـه قـمـراً ... أو حـيـث عـلّـق قـوسـه قـزح

(٢) الصدق والسداد

يقول الجاحظ في كلامه عن شعر صالح بن عبد القدوس: إنّه يأتي بالحكمة بعد الحكمة؛ حتى تجفّ ماويته. فلماذا تكون الحكمة سبباً في جفاف ماوية الشعر؟

لأنّ الحكمة منبعها العقل، وهو يمثل الطبقة الهادئة المتعاملة مع الحقائق، في الجهاز التفكيري للإنسان، بينما الشعر منبعه العاطفة التي أبرز سماتها الجيشان والانفعال.

لهذا قال جرير، واصفاً عدم تأثر الخليفة الراشد، عمر بن عبد العزيز بالشعر؛ لغلبة سلطان العقل والدين على خطراته وحركاته:

---

(١) واضح أنّ المصدرية حذفت بعد عن.

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه وقد كان شيطاني من الجنّ راقيا

وللشعراء في ميدان الحكمة بعقليتها، وعدم انفعاليتها، ضروب من القول تنبي عن تفاوت مقدرتهم على الدمج بين رصانة الحكمة، وخلابة البلاغة، واستثارة العاطفة، وعلى حين يقف البوصيري عند حدود الخطاب التقريري، والحوار العقلي، في تصويره لجانبٍ من جوانب النفس البشرية، وهو خضوعها لسلطان الإلفِ:

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على حبّ الرضاع وإن تفطمه ينفطم

نرى شاعراً هو عمارة بن بلال بن جرير، يتجاوز حديثه عن جانبٍ من جوانب النفس إطار التقريرية، إلى شيء من البيان الخلاّب؛ فيرضي العقل والذوق:

وما النفس إلا نطفةٌ في قرارةٍ إذا لم تكدّر كان صفواً غديرها

ثم يأتي شاعر أبعد مدى هو: العباس بن الأحنف؛ ليصوّر لنا تأثير القلوب على أصحابها، فتحملهم على الصعاب، وتجشّمهم الأوصاب، في إطار بياني يغري العقل والذوق، ويستثير العاطفة، فما تكاد تنتهي من قراءة نصّه، حتى تحسّ أنك أنت صاحب النصّ المنفعل به، المتعاطف معه:

قلبي إلى ما ضرّني داعي كثّر أسقامي وأوجاعي

كيف احتراسي من عدوّي إذا كان عدوّي بين أضلاعي

وإذا كان الكثير يظنّ الصدق والسداد ممّا يسلب الشعر طلاوته وطراوته؛ فإننا سنأتي بنصوص غير قليلة، تكشف بطلان ذلك الزعم، وقبلها نشير إلى الفارق الدقيق بين المفردات الثلاث، التي يحسبها الكثيرون مترادفة، بحيث تؤدّي الواحدة منها مضمون الأخرى، وليس الأمر كذلك. فإنّ الصدق، الحكمة، السداد، تمتاز كل واحدة منها بمضمونها الخاصّ، فقد يكون النصّ صادقاً، ولكنه لا يعني بالضرورة الحكمة والسداد، مثلاً على ذلك قول ربيعة الرقي يمدح يزيد بن حاتم، من ولد المهلب؛ وقد ولاه الرشيد أمراً، وأشرك معه في طريقه قائداً آخر، اسمه يزيد، متجّهاً إلى ولاية خاصة به، ولكن يزيد المهلبي الأزدي كان ينفق على جيشه، وجيش زميله يزيد القيسي:

فشتان ما بين اليزيدين في الندى يزيد سليم والأغرّ بن حاتم

فهمُّ الفتى الأزدي إتلاف ماله　　وهمُّ الفتى القيسي جمع الدراهم

ونصّاً آخر مشابهاً في وصفه لصدق الواقع:

وكنت كمجتسٌ بمحفارة الثرى　　وصادفِ عين الماء إذ يترسم

إذا سأل اللّه الشهور شهادة　　ستنبي جمادى عنكم والمحرم

أمّا الحكمة، فهي تقرير الحقيقة المجردة؛ من مثل قول لبيد:

(ألاكل شيءٍ ما خلا اللّه باطل).

وقول سحيم:

(كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً)

وقول زهير:

(لسان الفتى نصف ونصف فؤاده)

أمّا السداد، فهو تجاوز ظواهر الأمور إلى بواطنها، وتعليل ما يرى بما لا يرى، فمن الحقائق الدينية أنّ عصيان الفرد أو الجماعة لأوامر اللّه سبحانه وتعالى، لا بدّ وأن تعقبه عقوبة دنيوية أو أخروية، وذلك ما يخبرنا عنه عمارة بن عقيل:

ما زال عصياننا للّه يسلمنا　　حتى دفعنا إلى يحيى ودينار

إلى علوجين لم تقطع ثمارهما　　قد طالما سجدا للشمس والنار

وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠] وقد صبَّ معنى الآية المجاهد الصالح عبد الله المبارك حين قال:

رأيت الذنوب تميت القلوب　　ويورثها الذلُّ إدمانها

ثم يأتي أبو العتاهية لينتقل بهذا المعنى إلى التحفيز على التوبة:

وقبلكَ داوى الطبيب المريض　　فعاش المريض ومات الطبيب

يخاف على نفسه من يتوب　　فكيف ترى حال من لا يتوب

وعلى ذكر الطبّ والموت، نورد بيتاً هو غاية في الصدق والحكمة والسداد والإقناع:

إذا كان علم الطبّ ينجي من الردى　　ويحيي فما بال الطبيب يموت

وواضح أنَّ ما يسمى بالشعر المعاصر، خلوٌ من هذه المضامين النبيلة الجميلة، فقد حرصنا على تقديم باقة من النصوص الفيّاضة بالخبرات المختزنة، والتوجيهات القيمّة، في إطار بلاغي عال؛ تعويضاً للجيل بقديم الشعر، عن حاضره الرديء.

١) الأبيات التالية للمثقّب العبدي، جاهلي من أهل اليمامة، يقول أبو عمرو بن العلاء في ثنائه عليها، كما أورده ابن قتيبة (لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه):

أفاطم قبل بينك متعيّني ... ومنعك ما سألتك أن تبيني
ولا تعدي مواعد كاذبات ... تمرُّ بها رياح الصيف دوني
فإنّي لو تعاندني شمالي ... عنادك ما وصلت بها يميني
إذاً لقطعتها ولقلت بيني ... كذلك أجتوي من يجتويني
فإمّا أن تكون أخي بحقٍّ ... فأعرف منك غثي من سميني
وإلا فاطّرحني واتخذني ... عدّواً أتقيك وتتقيني
فما أدري إذا يممت أرضاً ... أريد الخير أيهما يليني
الخير الذي أنا أبتغيه ... أم الشر الذي هو يبتغيني

٢) وهذا حكيم خبر الليالي، وتتبّع دلائل النبوغ، وعلامات الخمول، فانتهى من تجربته بهذين البيتين:

إذا ما المرء قصّرَ ثم مرّت ... عليه الأربعون عن الرجال
فلم يلحق بصالحهم فدعه ... فليس بلاحقٍ أخرى الليالي

٣) وهذا هو القطامي، اقتاده رجال زفر بن الحارث أسيراً، وكانت بينهم دماء وترات، غير أنّ زفر حين رأى القطامي أسيراً عطف عليه، وأطلق سراحه؛ فأبى القطامي إلا أن يذيع تلك المكرمة لزفر، على كره من قومه:

من مبلغ زفر القيسيّ مدحته ... عن القطامي قولاً غير إفناد
إنّي وإن كان قومي ليس بينهم ... وبين قومك إلا ضربة الهادي
مُثنٍ عليك بما أوليت من حسنٍ ... وقد تعرّض منّي مقتل بادي

فإن قدرت على يوم جزيت به   والله يجمع أقواماً بمرصاد
الخير يبقى وإن طال الزمان به   والشر أخبث ما أوعيت من زاد

٤) ومن سداد المرء: أن يجمع بين قلبه شؤون الدنيا مع مراعاة اليوم الآخر، وفي ذلك يقول الخريمي:

ودون الندى في كل قلب ثنيّة   لها مصعد وعر ومنحدر سهل
وودّ الفتى في كل نيل ينيله   إذا ما انقضى لو أنّ نائله جزل
وأعلم علماً ليس بالظنّ أنّه   لكلّ أناسٍ من ضرائبهم شكل
وأنّ أخلاء الزمان غناؤهم   قليل إذا الإنسان زلت به النعل
تزودّ من الدنيا متاعاً لغيرها   فقد شمّرت حذّاء وانصرم الحبل
وهل أنت إلاهامة اليوم أو غدٍ   لكل أناسٍ من طوارقها الشكل

٥) وقد مرَّ بنا منذ قليل ثناء القطامي، على زعيم قيس زفر بن الحارث الكلابي، وفي الأبيات التالية تسمع زفر يقصُّ خبر مقارعته للأعداء في الميدان، وينصفهم بذكر ثباتهم وحسن بلائهم، وقلما صدق الرجال في الثناء على الأعداء:

وكنّا حسبنا كل بيضاء شحمة   ليالي لاقينا جذاماً وحميرا
فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه   ببعض أبت عيدانه أن تكسرا
ولما لقينا عصبةً تغلبية   يقودون جرداً للمنيّة ضمّرا
سقيناهم كأساً سقونا بمثلها   ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

٦) وإذا كانت خلافة الفاروق غرةً في جبين الدهر، فإنَّ مصرعه بيد ابن لؤلؤة المجوسي هزَّ النفسية العربية، وأنطق الشماخ بالأبيات التي لا نرى فيها أثراً للمبالغة الشائعة في شعر المتأخرين عن الصدر الإسلامي، وإنّما مملوءة باللوعة والإشفاق من مخاطر المستقبل:

جزى اللّه خيراً من أمير وباركت   يدُ اللّه في ذاك الأديم الممزق
فمن يسع أو يركب جناحي نعامة   ليدرك ما قدّمت بالأمس يسبق
قضيت أموراً ثم غادرت بعدها   بوائج في أكمامها لم تفتّق

أبعد قتيلٍ بالمدينة أظلمت ... له الأرض تهتز العضاة بأسوق
تظلّ الحصان البكر يلقى جنينها ... نثا خبرٍ[1] فوق المطيّ معلق
وما كنت أخشى أن تكون وفاته ... بكفيّ سبنتى[2] أزرق العين مطرق

٧) ومن الشعر الإنساني الرفيع، هذه الأبيات لإياس بن القائف:

تقيم الرجال الأغنياء بأرضهم ... وترمي النوى بالمقترين المراميا
فأكرم أخاك الدهر ما دمتما معاً ... كفى بالممات فرقةً وتنائيا
إذا زرت أرضاً بعد طول اجتنابها ... فقدت صديقي والبلاد كما هيا

(٣) العفوية:

تتجلى عفوية العربي ابن الصحراء في خمسة وجوه أولها: ولاء القبيلة، وهو ذو أثر مهم لحفظ كيانها رغم سلبياته الأخرى، وثانيها: امتهان القتال والنهب، وكانوا يعدّون ذلك من شواهد الفحولة القارحة، ثالثها: الانطباع على الحرية، إلى الحدّ الذي كثيراً ما يؤدي إلى التمرد على أبسط صور النظام. رابعها: بساطة العيش واطراح التكلف. خامسها: تعشق البطولة والمغامرة.

وفي الوجه الأول نجد قولهم السائر:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

وقد حطم الإسلام نعرة القبيلة، وتسامى بها إلى صعيد العقيدة، غير أنَّ ما حدث إبّان العهد الأموي، من انتكاسة في الحكم، أدّى أيضاً إلى انتكاسة ابتعثت القبيلة من مدافنها؛ فعادت جذعة يؤججها الشعراء بنقائضهم، والزعماء بصراعاتهم، ومع أنّ الخوارج كانوا من أقرب الفرَق إلى إحلال الفكرة محل القبيلة، حتى إنَّ شاعرهم «عمران بن حطان» كان يعلن ما يشبه السخرية بالولاء القبلي، وهو يتوارى من قبيلٍ إلى قبيل؛ تحاشياً لسلطان أمية:

---

(١) النثا: الخبر خيراً كان أو شراً.
(٢) السبنتي: النمر، والمراد به الرجل الجريء.

يـومـاً يـمـانٍ إذا لاقـيـت ذا يـمـنٍ   وإن ألاقـي مـعـدّيـاً فـعـدنـانـي

إلا أنَّ بدوات شعرية لبعضهم، كانت تشير إلى رواسب الولاء القبلي لديهم:

فـإنـك إن لا تـرض بـكـر بـن وائـل   يـكـن لـك يـوم بـالـعـراق عـصـيـب
ولا صـلـح مـا دامـت مـنـابـر أرضـنـا   يـقـوم عـلـيـهـا مـن ثـقـيـف خـطـيـب

فإذا انتقلنا إلى امتهانهم القتل والنهب لحاجة حيناً، وللزهو أحياناً؛ نجد أثر ذلك في بيت الشاعر الذي أراد أن يهجو قبيلة ابن عجلان، فلم يجد نقيصة يصمهم بها أكثر من:

قـبـيـلـتـه لا يـخـفـرون بـذمـة   ولا يـظـلـمـون الـنـاس حـبـة خـردل

وقديماً قال الحكيم الرصين ابن أبي سلمى:

ومـن لـم يـذد عـن حـوضـه بـسـلاحـه   يـهـدّم ومـن لا يـظـلـم الـنـاس يـظـلـم

وكان الغزو عند بعضهم ديدناً لا مبرر له، أشبه ما يكون بالإدمان الذي لا شفاء له غير الممارسة:

وأحـيـانـاً عـلـى بـكـر أخـيـنـا   إذا مـا لـم نـجـد إلا أخـانـا

والغريب أنّ تلك النظرة البدائية، أو بالأحرى الهمجية إلى الغزو، ظلت سائدة إلى وقت متأخر، فهذا لم يجد حين بلغته وفاة المهلب ما يفقده بعده، إلا الغزو الذي لم يكن عنده إلا مصدراً للثروة، ليس إلا:

لـقـد ذهـب الـغـزو الـمـقـرّب لـلـغـنـى   ومـات الـنـدى والـجـود بـعـد الـمـهـلـب

والصعلكة ظاهرة صحراوية، لا يخجل منها أصحابها، وإنّما يفخرون:

وسـائـلـةٍ أيـن الـطـريـق وسـائـل   وهـل يـعـلـم الـصـعـلـوك أيـن مـذاهـبـه
مـذاهـبـه أنّ الـفـجـاج كـثـيـرة   إذا لـم يـعـنـه أهـلـه وأقـاربـه

وهذا لص يستأثر لنفسه بطرفة اليمن، ويوصي أصحابه بنسيانها، واحتساب بزّ العراق عند الإقتسام:

قـل لـلـصـوص بـنـي الـلـخـنـاء يـحـتـسـبـوا   بـزّ الـعـراق ويـنـسـوا طـرفـة الـيـمـن

ومن برنامج مالك بن الريب الصعلوك الجميل البطل هذا البيت:

سيغنيني الإله وحدُّ سيفي   وكرّات الكميت على التجار

حتى أنقذه الله على يد سعيد بن عثمان؛ فتحوّل من صعلوك إلى مجاهد:

ألم ترني بعت الضلالة بالهدى   وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا

وعن انطباعهم على الحرية، التي قد تدفعهم إلى رفض أبسط أشكال النظام نسمع ذلك الذي اختصم مع صاحبه إلى مروان، ولكنّ قضاء مروان لم ينفذ عليه إلا بقوة السلطة:

قضى بيننا مروان أمسي قضيةً   فما زادنا مروان إلا تماديا

ولو كنت في الأرض الفضاء رددتها   ولكن أتت أبوابه من ورائيا

وهذا آخر أكثر وقاراً وأعمق ديناً، ولكنه لا يتنازل عن حريته قيد أنملة:

ألا لا تعدنا يا بلال[1] فإننا   وإن نحن لم نشقق عصا الدين أحرار

ولمّا قامت الدولة العربية، وانعقدت جيوشها، وكان لا بدّ لهذا الجيش من أمير يلتزم الأفراد بأوامره، لم يتفهّم هذه المستجدّات الكثير من الأفراد. وهذا واحد منهم يخبرنا أنه إذا أقبل الصيف وارتفع النجم ـ يعني الجوزاء والثريا ـ فإنّ مخاضات الفرات، وهي بعض ممرّاته الموحلة، معابر سالكة سيعبرها بإذن نفسه، لا بإذن أميره:

إذا شالت الجوزاء والنجم طالع   فكلُّ مخاضات الفرات معابر

وإنّي إذا ضنّ الأمير بإذنه   على الإذن من نفس إذا شئت قادر

أمّا بساطتهم في العيش فلنستمع:

طعامهم فوضى فضاً في رحالهم   ولا يحسنون السرّ إلا تناديا

ثمتَّ قمنا إلى جرد مسومة   أعرافهن لأيدينا مناديل

غير أنّ هذه السذاجة الأليفة، غير المتكلفة، يكمن وراءها تعشق وحبٌّ

---

(١) يعني بلال بن أبي بردة.

للمغامرة، تخبرنا عنهما الأبيات التالية:

ومخرّق عنه القميص تخاله ... بين البيوت من الحياء سقيما
حتى إذا رفع اللواء رايته ... تحت اللواء على الخميس زعيما
حتى إذا ما القوم صاروا أنجية ... واضطرب القوم اضطراب الأرشية
وشدَّ فوق بعضهم بالألوية ... هناك فأوصيني ولا توصي بيه

بعد هذا التطواف القصير عن عفوية العربي؛ نورد نصوصاً تعطينا الكثير من الصور الحبيبة إلى النفس، والآخذة بكل أقطارها: حبّاً وألفةً وإعجاباً:

١) فهذا نصيب العبد الصالح يمدح مولاه أمير مصر عبد العزيز أبا عمر، ويجعل وصف كلب ممدوحه من متممات محبّرته السائرة:

لعبد العزيز على قومه ... وغيرهم منن غامرة
فبابك ألين أبوابهم ... ودارك مأهولة عامرة
وكلبك أنسُ بالمعتفين ... من الأمّ بابنتها الزائرة
وكفّك حين ترى السائلين ... أندى من الليلة الماطرة
فمنك العطاء ومنّا الثناء ... بكلِّ محبرة سائرة

٢) وهذا هو الأحيمر السعدي، خليط الوحوش في إجامها، يصف لنا استحياءه من عدم امتلاكه بعيراً، واستنكافه أن يستعير من عبد، بينما الصحراء ممتلئة بالأبعرة المنتشرة فيها، فليأخذ منها مستغنياً عن استجداء عبد السوء:

رأى اللّه إنّي للأنيس لشانئ ... وتبغضهم لي مقلة وضمير
فلليل وإداني الليل حكمه ... وللشمس إن غابت علي نذور
وإني لأستحي لنفسي أن أرى ... أمرُّ بحبل ليس فيه بعير
وأن أسأل العبد اللئيم بعيره ... وبعران ربِّي في البلاد كثير

٣) وابن أبي ربيعة وما أمره بسرّ نصح رفيقه، فلمّا لم ينتصح كان سبّاقاً لما نهى عنه:

وخلٌ كنت عين النصح منه إذا نظرت ومستمعاً سميعا
أطاف بغيّةٍ فنهيتُ عنها وقلت له أرى أمراً شنيعا
أردت رشاده جهدي فلمّا أبى وعصى أتيناها جميعا

٤) والمجنون من أطبع الناس شعراً، يسرح مع ذكرياته، فيعرض لنا شيئاً من أمنياته البريئة العذبة، عن أقحوان الرمل، وعن لمّته المرسلة، تعبث بها النسمات، وهو طائر براحلته السريعة السير، وهذا هو الشعر الذي أصرُّ على تسميته الفيتامين:

ألا ليت شعري عن عوارضتي قنى لطول الليالي هل تغيرّتا بعدي
وعن علويات الرياح إذا جرت بريح الخزامي هل تهبُّ على نجد
وعن أقحوان الرمل ما هو فاعلٌ إذا هو أسرى ليلةً بثرى جعد
وهل تنفضنَّ الريح أفنان لمتي على لاحق الرجلين مندلق الوخد
وهل أسمعنَّ الدهر أصوات هجمة تطالع من وهدٍ خصيبٍ إلى وهد

٥) وإذا كنا سمعنا ابن أبي ربيعة الثري الأنيق، والمجنون بطلاقته وبراءته؛ فلنستمع إلى أبي النجم الراجز، يقدّم لنا لوحة عن بنته ـ لا أحلى ولا أمتع ـ على ما في الصورة من بؤس وإسغاب:

كأن ظلامة أخت شيبان يتيمةٌ ووالداها حيّان
العنق منها عُطل والأذنان وليس في الرجلين إلا خيطان
وقصةٌ قد شيطتها النيران تلك التي يضحك منها الشيطان

٦) وأبو الهندي نوع طريف من أنواع العفوية، كان مولعاً بالشراب، ثم وفق لإقلاعٍ عنه والتوبة منه، وإن كان في قرارة النفس من ذلك شيء:

تركت الخمور لأربابها وأقبلت أشرب ماءً قراحا
وقد كنت حيناً بها مغرماً كحبِّ الغلام الفتاة الرداحا
فلم يبق في الصدر من حبّها سوى أن إذا ذكرت قلت آحا

٧) أمّا خلف بن خليفة، فيزور أمير العراق ابن هبيرة، وقد أهديت إليه تحف؛ فتطلع لينال نصيبه منها، ولماذا؟ ليتحف صاحبته بها:

كـأنّـا شـمـامـيـس فـي بـيـعـةٍ تـقـسـس فـي بـعـض عـيـداتـهـا
وقـد حـضـرت رسـل الـمـهـرجـان وصـفـوا كـريـم هـدايـاتـهـا
عـلـوت بـرأسـي فـوق الـرؤوس فـأشـخـصـتـه فـوق هـامـاتـهـا
لأكـسـب صـاحـبـتـي صـحـفـة تـغـيـظ بـهـا بـعـض جـاراتـهـا

٨) وفي الشعر العربي مجموعة غير قليلة مما يمكن تسميته بشعر «الصعاليك»، مليء بالقوة والمغامرة، ولا غرو فقد كانوا رمز الفتوة الجسورة، من أمثال تأبط شراً، والسليك، وعروة، وهو أميرهم، نسمعه في أبياته يذكر الصعاليك بنوعيهم: الخامل القانع بالفتات، أو كما يقول هو في بيته الأول:

(مصافي المشاشي آلفاً كل مجزر)

يعني: الملازم للعظام الرخوة، التي تلقى في السلخانات. والنوع الجسور المقدام (صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنوّر) وبين هذا وذاك، تلتقط أبيات عروة مشاهد فيّاضة بالعفوية، من حال أولئك الصعاليك:

لـحـا الـلّـه صـعـلـوكـاً إذا جـنّ لـيـلـه مـصـافـي الـمـشـاشـي آلـفـاً كـل مـجـزر
يـعـدُّ الـغـنـى مـن نـفـسـه كـل لـيـلـة أصـاب قـراهـا مـن صـديـق مـيـسـر
يـنـام عـشـاءً ثـم يـصـبـح نـاعـسـاً يـحـثّ الـحـصـا عـن جـنـبـه الـمـتـعـفـر
يـعـيـن نـسـاء الـحـي مـا يـسـتـعـنّـه ويـمـسي طـلـيـحـاً كـالـبـعـيـر الـمـحسّـر
ولـكـن صـعـلـوكـاً صـفـيـحـة وجـهـه كـضـوء شـهـاب الـقـابـس الـمـتـنـور
مـطـلاً عـلـى أعـدائـه يـزجـرونـه بـسـاحـتـهـم زجـر الـمـنـيـح الـمـشـهـر
إذا بـعـدوا لا يـأمـنـون اقـترابـه تـشـوف أهـل الـغـائـب الـمـتـنـظـر
لـذلـك إنْ يـلـق الـمـنـيـة يـلـقـهـا حـمـيـداً وإن يـسـتـغـن يـومـاً فـأجـدر

٩) وهذا هو شبيب الطائي، كان يقطع الطريق، فبعث عليه الإمام علي من رجاله ابني شميط، وحين علم بمقدمهما؛ ركب فرسه (العصا) نجاة بنفسه من سجن علي بالكوفة، وكان يسمى المخيّس، ولم ينس شبيب أن يخلدّ تجربته في شعر:

ولـمـا إن رأيـت ابـنـي شـمـيـط بـسـكـة طـيءٍ والـبـاب دونـي

تجللت العصا وعلمت أني رهين مخيس إن أدركوني
ولو أني لبثت لهم قليلاً لجرّوني إلى شيخ بطين
شديد مجامع الكتفين باقٍ على الحدثان مختلف الشؤون

١٠) ويقصُّ منصور بن مسجاح طريقته في إكرام (المختبط) الطالب ضيافته دون سابق معرفة، وكيف أنه يحتبس إبله ليختار منها البوازل الفحول أو (السدس) التي بلغت ثمانية أعوام:

ومختبطٍ قد جاء أو ذي قرابة فما اعتذرت إبلي عليه ولا نفسي
حبسنا ولم نبرح لكي لا يلومنا على حكمه صبراً معودة الحبس
فطاف كما طاف المصدّق وسطها يخيّر منها في البوازل والسدس

١١) وكما شقيت إبل منصور بتخييره الضيفان فيها، فإنَّ ضئان شاعر آخر تشقى به لنفس السبب:

تركت ضئاني تودُّ الذئب راعيها وأنها لا تراني آخر الأبد
الذئب يطرقها في الدهر واحدة وكل يوم تراني مدية بيدي

١٢) والضيافة في الصحراء ليلاً نجدة أي نجدة، ولكلب الكريم وناره دور مهم فيها مع (المهبين) في البيت الثالث (الضيوف) قلّما نظفر بشعر يصوّر واقعة الحال، كهذه الأبيات القلائل:

ومستنبح تستكشط الريح ثوبه[١] ليسقط عنه وهو بالثوب معصم
عرى في سواد الليل بعد اعتسافه لينبح كلب أو ليفزع نومّ
فجاوبه مستسمع الصوت للقرى له عند إتيان المهبين مطعم
يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلاً يكلمه من حبِّه وهو أعجم

١٣) ومن أجمع النصوص تصويراً لخابط الليل، وكيفية إكرامهم له بشاشة

(١) كان الطارق يحاكي صوت كلب؛ كي يستدل في الظلماء على مواقع القوم نباح الكلب.

كلب الكريم بمقدمه، واستياء الكوماء (الناقة) من نزوله، وتصوير التغرغر الأليم لها عند ذبحها، هذا النص:

ومستنبح تهوي مساقط رأسه ... إلى كل شخص فهو للسمع أصور[1]
يصفقه أنف من الريح بارد ... ونكباء ليل من جمادى وصرصر
حبيب إلى كلب الكريم مناخه ... بغيض إلى الكوماء والكلب أبصر
حضأت له ناري فأبصر ضوءها ... وما كاد لولا حضئاة للنار يبصر
دعته بغير اسمٍ هلمَّ إلى القرى ... فأسرى يبوع الأرض والنار تزهر
فلما أضاءت شخصه قلت مرحباً ... هلمَّ وللصالين بالنار أبشروا
فجاء ومحمود القرى يستفزّه ... إليها وداعي الليل بالصبح يصفر
تأخرت حتى لم تكد تصطفي القرى ... على أهله والحق لا يتأخر
وقمت بنصل السيف والبرك هاجد ... بهازره والموت في السيف ينظر
فأغضته الطولى سناماً وخيرها ... بلاءً وخير الخير ما يتخيّر
فأوفضن عنها وهي ترغو حشاشة ... بذي نفسها والسيف عريان أحمر
فباتت رحاب جونة من لحامها ... وفوها بما في جوفها يتغرغر

(٤) القوة:

للقوة سلبياتها وإيجابياتها، فلها وجهها الأسود الغاشم؛ حين تصبح طغياناً واكتساحاً للآخرين، ولها وجهها الأبيض الجميل؛ حين تكون نصيرة حق، وينبوع خير، ومصدر اطمئنان. وقد حرص بلغاء العرب على تعزيز وجهها الإيجابي، وتعميق ينبوعها الخيِّر؛ حين عمدوا إلى انتقاء نصوص معينة من عالي أشعارهم لخدمة هذه الأغراض، وكان ما عرف بمدونات للحماسة، وأقدمها وأهمّها لأبي تمام ثم للبحتري ثم لابن الشجري.

---

(١) أصور: مائل العنق.

وإنَّ من يتمعن واقع العرب جاهلياً وصدر الإسلام؛ يجد القوة ملاك أمرهم، وملتقى هممهم، ووسام مفاخرهم، قوة في الأجسام جعلتهم يتبارون في الجرأة والإقدام. وقوة في العقول منحتهم ثقابة الفكر، وقوة في النفوس طبعتهم على الحرية. وقوة في اللغة هي الجزالة الفخمة، والمعاني الرائعة المبتكرة.

ولم تكن صداقتهم للحرية، وتعاليهم بها خاصة برجالهم دون الإناث، إذ لولا الأمهات المطبوعات على الحرية لما كان الأبناء الكرام. ومن طريف أخبارهم بهذا الصدد ما حدث لعروة الورد أمير الصعاليك، مع زوجته الحرّة، التي جاء بها إلى مضارب قومه، من مكان قصي؛ فحسبوها مولاة له، فكانوا إذا دعوها قالوا: مولاة عروة. ومع حسن عشرته لها وإنجابه منها، إلا أنها حين سنحت لها أول فرصة لإثبات حريتها؛ رفعت قضيتها، وخيرت بين زوجها وأولادها والعبودية، وبين قومها والحرية، فآثرت الثانية على الأولى، وفي ذلك يقول عروة:

ولو كاليوم كان عليَّ أمري ومن لك بالتدبر في الأمور
إذاً لملكت عصمة أم عمرو على ما كان من حسك الضمير
فيا للناس كيف أطعت نفسي على شيءٍ ويكرهه ضميري

ولأجل الحرية الكريمة، قال العرب مثلهم السائر: (تموت الحرة ولا تأكل بثدييها). وعنترة البطل الصمصامة لم تنطلق يده في ميدان الفداء حتى قال له أبوه: (كرّ وأنت حرّ) وسيكون حديثنا عن القوة هنا موزعاً في نقاط ثمان:

صفات القائد الناجح.

من معارك العرب ضد الأجنبي.

من منصفاتهم، وهي التي أنصف العربي فيها أخاه العربي المقارع له في الميدان.

من جهاديات الإسلام.

من أناشيد الخوارج.

صرخات في وجه الظلم.

من آهات السجون.

من أغاريد الزهو والفخار.

١) ونبدأ من الأولى: فالعرب أمة منذ أخرجتهم الصحراء لا يلتزمون بطاعة قيادة؛ إلا أن تكون منتخبة منهم، حائزة لرضاهم، وطبعي أنّ القبيل القوي العصي الأبي لا يعطي قياده إلا للقائد المؤهل جسمانياً وعقلياً.

ومن نصوصهم في صفات القائد الجدير أبيات للقيط الإيادي:

فقلدوا أمركم للّه درّكم ... رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه ... همٌّ يكاد حشاه يقصم الضلعا
لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده ... ولا إذا عضّ مكروه له خشعا
ما زال يحلب هذا الدهر أشطره ... يكون متبعاً طوراً ومتبعا
حتى استمرت على شزر مريرته ... مستحكم الرأي لا قحماً ولا ضرعا

٢) وقد كان يوم ذي قار أولّ يوم أدّبت فيه السيوف العربية طغيان العنجهية الكسروية، وقد كان للشعر دوره الإيقاظي لإعداد العدّة، ودوره التسجيلي لروعة النصر. نقرأ ذلك في النصّين التاليين أولهما للقيط:

يا لهف نفسي إن كانت أموركم ... شتى وأبرم أمر الناس فاجتمعا
أحرار فارس أبناء الملوك لهم ... من الجموع جموع تزدهي القلعا
فهم سراع إليكم بين ملتقط ... شوكاً وآخر يجني الصاب والسلعا
هو الجلاء الذي تبقى مذلته ... إن طار طائركم يوماً وإن وقعا
قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم ... ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعا

والثاني للعديل:

ما أوقد الناس من نار لمكرمة ... إلا اصطلينا وكنا موقدي النار
وما يعدّون من يوم سمعت به ... للناس أفضل من يومٍ بذي قار

جئنا بأسلابهم والخيل عابسة ... يوم استلبنا لكسرى كل أسوار

٣) وممّا أنصف العربي الشاعر فيه أخاه، من معاركهم الكثيرة التي دارت بينهم، أبيات منتقاة لعبد الشارق، لم يورد له التبريزي في شرح الحماسة ترجمة:

ألا حييت عنا يا ردينا ... نحييها وإن كرمت علينا
ردينة لو رأيت غداة جئنا ... على أضماتنا وقد اجتوينا
فأرسلنا أبا عمروٍ ربيئا ... فقال إلا انعموا بالقوم عينا
ودسّوا فارساً منهم عشاءً ... فلم نغدر بفارسهم لدينا
فجاءوا عارضاً برداً وجئنا ... كمثل السيل نركب وازعينا
تنادوا يا لبهثة إذ رأونا ... فقلنا أحسني ضرباً جهينا
سمعنا دعوة عن ظهر غيبٍ ... فجلنا جولةً ثم ارعوينا
فلما أن تواقفنا قليلاً ... أنخنا للكلاكل فارتمينا
فلمّا لم ندع قوساً وسهما ... مشينا نحوهم ومشوا إلينا
تلألؤ مزنةٍ برزت لأخرى ... إذا حجلوا بأسياف ردينا
شددنا شدةً فقتلت منهم ... ثلاثة فتية وقتلت قينا
وشدّوا شدة أخرى فجرّوا ... بأرجل مثلهم ورموا جوينا
وكان أخي جوين ذا حفاظٍ ... وكان القتل للفتيان زينا
فآبوا بالرماح مكسراتٍ ... وأبنا بالسيوف قد انحنينا
فباتوا بالصعيد لهم أحاح ... ولو خفت لنا الكلمى سرينا

٤) وقد حفلت سيرة ابن هشام بعشرات النصوص الشعرية؛ التي دارت مصاحبة للغزوات والسرايا طوال العهد النبوي، حبّذا لو تفرّغ صاحب ذوق للانتقاء منها وتقديمها، ولما كانت الردة في عهد الصديق، وكان لابن الوليد مواقفه المشهورة، قال شاعر من بني أسد، يسجل تلك الملاحم، التي أعادت للإسلام انتصاره، وللعروبة وحدتها:

أقول لنفسي حين خوّد رألها | مكانك لما تشفقي حين مشفق
مكانك حتى تنظري عمَّ تنجلي | عماية هذا العارض المتألق
وكوني مع التالي سبيل محمد | وإن كذبت نفس المقصّر فاصدقي
إذا قال سيف اللّه كرّوا عليهم | كررنا ولم نحفل بقول المعوق

٥) وإذا كان الحكم الأموي قد شهد انتشار الفتح مشرقاً ومغرباً، فإنّه قد شهد أيضاً بوادر الشقاق في الصف المسلم من شيعة وخوارج، إلى جانب الأفكار الناجمة من مثل المجبرة، القدرية، المرجئة، المعتزلة؛ ولأنَّ الخوارج أقوى تلك الفرق شكيمة؛ فقد امتلأت بملاحمهم ووقائعهم الأسفار، وكان للمهلب بن أبي صفرة الأزدي إيقاعه البالغ بهم، ووطأته الشديدة عليهم، وقد بذل نفسه وولده وكانوا عشرة أبناء في تلك المهمة الجليلة، وسقط أحبّ أولاده وأكثرهم فتوةً وإقداماً المغيرة؛ فكثرت مراثيه وأشعار العزاء فيه. ومن أبلغها نص أورده صاحب الكامل «كامل المبرد» وليس «كامل ابن الأثير»:

أبت إلا بكاءً وانتحابا | وذكراً للمغيرة واكتئابا
ألم تعلم بأنّ القتل ورد | لنا كالماء حين صفا وطابا
وقلت لها قري وثقي بقولي | كأنك قد قرأت به كتابا
فقد جاء الكتاب به فقولي | ألا لا تعَدم الرأي الصوابا
جلبنا الخيل من بغداد شعثاً | عوابس تحمل الأسد الغضابا
بكل فتى أغر مهلبي | تخال بضوء صورته شهابا
ومن قحطان كل أخي حفاظٍ | إذا يدعى لنائبةٍ أجابا
فما بلغت قرى كرمان حتى | تخدّد لحمها عنها فذابا
وكان لهنّ في كرمان يوم | أمرّ على الشراة بها الشرابا
وإنّا تاركون غداً حديثاً | بأرض السند سعداً والربابا
تفاخر بابن أحوزها تميم | لقد حان المفاخر لي وخابا

٦) وليزيد المهلبي نصّ في المعنى، لا يستغنى عنه:

سقى اللّه مصراً خف أهلوه من مصر ... ومن ذا الذي يبقى على عقب الدهر
ولو كنت فيه إذ أبيح حريمه ... لمت كريماً أو صدرت على عذر
أبيح فلم أملك له غير عبرة ... تهب بها أن حاردت لوعة الصدر
ونحن رددنا أهلنا إذ ترحلوا ... وقد نظمت خيل الأزارق بالجسر
ومن يخشى أطراف المنايا فإننا ... لبسنا لهنّ السابغات من الصبر
فإن كريه الموت عذب مذاقه ... إذا ما مزجناه بطيب من الذكر
وما رزق الإنسان مثل منيةٍ ... أراحت من الدنيا ولم تخز في القبر

٧) ومن أناشيد الخوارج التي لا يملك قارئها وسامعها إلاّ التأسف لانحراف أصحابها عن السبيل السويّ، هذه الأبيات لأحد شعرائهم يأس فيها لمصرع بعض رفاقه:

الآ في اللّه لا في الناس شالت ... بداود وإخوته الجذوع
مضوا قتلاً وتمزيقاً وصلباً ... تحوم عليهم طير وقوع
إذا ما الليل أظلم كابدوه ... فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا ... وأهل الأمن في الدنيا هجوع

٨) ومن أناشيدهم ليزيد بن حبناء، يشرح لزوجته سبب خلو يديه من الهدايا، وتعلقه بالغايات العليا:

دعي اللوم إن العيش ليس بدائم ... ولا تعجلي باللوم يا أمّ عاصم
فإذ عجلت منه الملامة فاسمعي ... مقالة معنيٌ بحقك عالم
ولا تعذلينا في الهدية إنما ... تكون الهدايا من فضول المغانم
فليس بمهد من يكون نهاره ... جلاداً ويمسي ليله غير نائم
يريد ثواب اللّه يوماً بطعنة ... غموس كشدق العنبري بن سالم
أبيت وسربالي دلاص حصينة ... ومغفرها والسيف فوق الحيازم
حلفت بربّ الواقفين عشية ... لدى عرفات حلفة غير آثم

لقد كان في القوم الذين لقيتهم بسابور شغل عن بزوز اللطائم
توقد في أيديهم زاعبية ومرهفة تفري شئون الجماجم

٩) ولقد روى المبرد لجوء عمران بن حطان، من فرسانهم وشعرائهم، متستراً على نفسه، مخفياً اسمه إلى روح بن زنباع الجذامي، وكان روح سميراً لعبد الملك؛ ينقل إليه أخباراً وأشعاراً لم يعهدها عبد الملك منه، ولما استفسره عرف أنها من لدن اللاجئ المتستر، عندها عرف عبد الملك ـ وكان خبيراً أن صاحب روح ما كان ليكون إلا عمران بن حطان ـ وطلب استصحابه إليه، وحين طلب روح منه مصاحبته إلى دمشق؛ انتهز أول فرصة مفارقاً منزل روح وتاركاً وراءه نصّاً شعرياً رائعاً. وكقصة عمران مع روح كانت قصة سبرة بن الجعد مع الحجاج، كما فصلها المسعودي في (مروج الذهب) فلنستمع إلى عمران:

يا روح كم من أخي مثوى نزلت به قد ظنّ ظنك من لخم وغسان
حتى إذا خفته فارقت منزله من بعد ما قيل عمران بن حطان
قد كنت جارك حولاً ما تروعني فيه روائع من إنس ومن جان
حتى أردت بي العظمى فأدركني ما أدرك الناس من خوف ابن مروان
فاعذر أخاك ابن زنباع فإنّ له في النائبات خطوباً ذات ألوان
يوماً يمان إذا لاقيت ذا يمنٍ وإن لقيت معدّياً فعدناني
لو كنت مستغفراً يوماً لطاغية كنت المقدم في سري وإعلاني
لكن أبت لي آيات مطهرة عن الولاية في (طه) و(عمران)

١٠) ومن صرخات الشعر في وجه الظلم؛ أبيات ألقاها صاحبها بين يدي الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز:

إنّ الذين أمرتهم أن يعدلوا نبذوا كتابك واستحل المحرم
وأردت أن يلي الأمانة منهم برٌّ وهيهات الأبرّ المسلم
طلس الثياب على منابر أرضنا كل بنقص نصيبنا يتكلم

١١) ومنها تَبَرُّماً بولاية خالد القسري على العراق:

بكت المنابر من فزارة شجوها ... فالآن من قسر تضجُّ وتخشع
وملوك خندف أسلمونا للعدى ... للَّه درُّ ملوكنا ما تصنع
كانوا كتاركة بنيها جانباً ... سفهاً وغيرهم تصون وترضع

١٢) وما أكثر آهات الشعر الشاكية ظلمة السجن وغلظة السجان، حسبنا منها هذه الأبيات الرائعة لجحدر، في سجن الحجاج، نقلاً عن الأمالي:

تأوبني فبِتُّ لها كنيعاً ... هموم ما تفارقني حواني
هي العوّاد لا عوّاد قومي ... أطلن عيادتي في ذا المكان
إذا ما قلت قد أجلين عني ... ثنى ريعانهنّ عليَّ ثاني
وكان مقرّ منزلهن قلبي ... فقد أنفهنه والهمّ آني
أليس اللَّه يعلم أن قلبي ... يحبُّك أيها البرق اليماني
وأهوى أن أردّ إليك طرفي ... على عدواء من شغلي وشاني
نظرت وناقتاي على تعاد ... مطاوعة الأزمة ترحلان
إلى ناريهما وهما بعيد ... تشوقان المحبّ وتوقدان
ومما هاجني فازددت شوقاً ... بكاء حمامتين تجاوبان
تجاوبتا بلحنٍ أعجمي ... على غصنين من غربٍ وبان
فكان البان أن بانت سليمي ... وفي الغرب اغتراب غير دان
أليس الليل يجمع أم عمرو ... وإيانا فذاك لنا تداني
نعم وترى الهلال كما أراه ... ويعلوها النهار كما علاني
فما بين التفرق غير سبع ... بقين من المحرّم أو ثماني
فيا أخوي من كعب بن عمرو ... أقلا اللوم إن لم تنفعاني
إذا جاوزتما سعفات حجرٍ ... وأودية اليمامة فانعياني
وقولا جحدر أمسى رهيناً ... يحاذر وقع مصقول يماني
يحاذر صولة الحجاج ظلماً ... وما الحجاج ظلام لجاني
إلى قوم إذا سمعوا بقتلي ... بكى شبّانهم وبكى الغواني

فإن أهلك فرب فتى سيبكي ... عليَّ مهذبٌ رخص البنان
ولم أك قد قضيت حقوق قومي ... ولا حق المهند والسنان

١٣) وهذا هو يزيد بن المفرغ الحميري، يضجُّ من سجن ابن زياد:

حيٌّ ذا الزور وانهه أن يعودا ... إن بالباب حارسين قعودا
من أساوير لا ينون قياماً ... وخلاخيل تسهر المولودا
لا ذعرت السوام في غلس الليل ... مغيراً ولا دعيت يزيدا
يوم أعطى من المخافة ضيماً ... والمنايا يرصدنني أن أحيدا

١٤) ونختتم وقفتنا عن القوة بهذه الأغرودة الخالدة، لشاعر من قيس بن ثعلبة:

إنّا محيوك يا سلمى فحيينا ... وإن سقيت كرام الناس فاسقينا
وإن دعوت إلى جلّي ومكرمة ... يوماً سراة كرام الناس فادعينا
إنّا بني نهشل لا ندّعي لأب ... عنه ولا هو بالأبناء يشرينا
إن تبتدر غاية يوماً لمكرمةٍ ... تلق السوابق منّا والمصلّينا
وليس يهلك منا سيدُ أبداً ... إلا افتلينا غلاماً سيِّداً فينا
إنّا لنرخص يوم الروع أنفسنا ... ولو نسام بها في الأمن أغلينا
بيض مفارقنا تغلي مراجلنا ... نأسو بأموالنا آثار أيدينا
إني لمن معشر أفنى أوائلهم ... قيل الكماة إلا أين المحامونا
لو كان في الألف منا واحد فدعوا ... من فارس خالهم إيّاه يعنونا
إذا الكماة تنحّوا أن يصيبهم ... حدّ الظباة وصلناها بأيدينا
ولا تراهم وإن جلّت مصيبتهم ... مع البكاة على من مات يبكونا
ونركب الكره أحياناً فيفرجه ... عنا الحفاظ وأسياف تواتينا

(٥) العذوبة والإشراق:

أسلفنا أنَّ مهمة هذا الباب توضيح خصائص الشعر العربي القديم، من حيث

المفردة والبيت والقيمة الجمالية، وهذه هي الوقفة الخامسة من هذا القسم يتلوها القسم الثاني المتناول لخصائصه من حيث الإطار العام، وهي الخصائص التي نفتقدها في الشعر العربي المعاصر، ومع أنَّ النصوص التي مررنا بها في الوقفات السابقة تشتمل على خصائصها المحددة لها، وميزات أخرى متداخلة معها من طلاوة البيان وروعة الخيال والأداء، إلا أننا أحببنا في هذه الوقفة الإلمام بأشتات من النصوص تنتظمها على اختلاف مواضيعها، ناظمة العذوبة والإشراق، سنمرُّ فيها بما هو عذب الموضوع، كالغزل، وما هو بعيد عن اخضرار الغريزة ونشوة الاشتهاء، كموضوع وصف آلة من آلات السلاح.

ورغم ذلك فقد أجاد الشاعر في هذا الموضوع المجدب عاطفياً، وأخرجه إخراجاً حيّاً، وسنرى جوانب من علاقات الآباء والأبناء في حالتي البرّ والعقوق، والإعجاب والشكوى، وسنقف على أكثر من نصّ يعرض لنا نفحات طرية من حبّ المواطن للوطن، ونماذج بلاغية ترينا كيف أمكن للشعر العربي القديم أن يضع القصة المسرودة إخبارياً، والقصة الممسرحة درامياً، وكل ذلك كله ذروة في الإبداع والإمتاع، والطراوة والطلاوة، والسهولة المشرقة، والعذوبة المزنبقة؛ التي يعجز عن تقديمها أيّ شعرٍ آخر غير شعرنا العربي القديم.

ونبدأ بالغزل الموضوع الغضير النضير الذي تمرَّغ به الشعر الحديث في أوحال الجنسية المكشوفة والرداءة التعبيرية. وقبل إيراد النصوص نلفت إلى أنّ العرب حتى بعد الإسلام، وحتى لدى أشدّ أُمرائهم تقوى وصرامة في حق الله (عمر بن عبد العزيز) لم يكونوا يضيقون بالشعر الشفّاف المعبّر عن هتفات النفس في احتشام ونقاء، وإنما يتجاوبون معه ويأخذون بيد أصحابه إلى أريكة الإحصان والعفاف والستر. وهذه واقعة أوردها المسعودي في مروج الذهب؛ تعطينا ما يكفي عن سلوكيات القوم أُمراء ومأمورين.

قال في المجلد الثالث ص ١٩٩:

كان بالمدينة فتى من بني أمية من ولد عثمان، وكان يهوى جارية لبعض قريش، وكانت الجارية تحبّه ولا يعلم، ويحبها ولا تعلم، ولم تكن محبة القوم إذ ذاك لريبة ولا فاحشة. فأراد يوماً أن يبلو ذلك؛ فقال لبعض من عنده: امض بنا

إليها فانطلقا، ووافهما وجوه أهل المدينة من قريش والأنصار وغيرهما. وما كان فتى يجد بها وجده. ولا تجد بواحد منهم وجدها بالأموي، فلما أن أخذ الناس مواضعهم؛ قال لها الفتى: أتحسنين أن تقولي:

أحبّكم حبّا بكل جوارحي فهل عندكم علم بما لكم عندي؟
أتجزون بالودّ المضاعف مثله؟ فإنّ كريماً من جزى الودّ بالودّ

قالت: نعم، وأحسن منه، وقالت:

للذي ودّنا المودّة بالضعف وفضل البادي به لا يجازى
لو بدا ما بنا لكم ملأ الأرض وأقطار شامها والحجازا

قال: فعجب الفتى من حذقها، مع حسن جوابها، وجودة حفظها، فازداد كلفاً بها. وقال:

أنت عذر الفتى إذا هتك الستر وإن كان يوسف المعصوما

فبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز؛ فاشتراها بعشر حدائق، ووهبها له بما يصلحها، فأقامت عنده حولاً، ثم ماتت؛ فرثاها، وقضى في حاله تلك نحبه؛ فدفنا معاً ا هـ.

وإليك نماذج للقوم في هذا المجال.

١) يقول جرير:

لقد قادني من حبّ ماوية الهوى وما كنت ألقى للحبيبة أقودا
أحنُّ إلى نجد وبالغور حاجتي فغار الهوى يا عبد قيس وأنجدا
أقول له يا عبد قيس صبابة بأي ترى مستوقد النار أوقدا
فقال أراها أرثت بوقودها بحيث استفاض الجزع شيحاً وغرقدا

٢) وقد عرف الناس خبر كثير وصاحبته عزة، ولكنّ نصّاً شعريّاً لكثير ينمُّ، بل يبوح بشيء من أخلاقيات القوم، وأسلوب تخاطبهم:

حيتّك عزة بعد الوصل وانصرفت فحيّ ويحك من حيّاك يا جمل؟

لو كنت حييتها ما زلت ذا مقة عندي وما مسّك الإدلاج والعمل
ليت التحية كانت لي فأجعلها مكان يا جملاً حييت يا رجل

٣) وما أحسب شاعراً أبدع في تصوير غمامات الخدور، وجاذبية حديثهن كالقطامي:

وفي الخدور غمامات برقن لنا حتى تصيّدننا من كل مصطاد
يقتلنا بحديث ليس يعلمه من يتقين ولا مكنونه باد
فهن ينبذن من قول يصبن به مواقع الماء من ذي الغلة الصادي

٤) وإذا كان القطامي قد اعتصر في نصّه القصير إشعاع النجوم؛ فإنَّ الصمة بن عبد الله القشيري، وهو من أشهر شهداء الحب، يعرض وهج اللواعج في قلبه المحرور، ووجدانه المحترق:

حننت إلى ريا ونفسك باعدت مزارك من ريا وشعبا كما معا
فما حسن أن تأتي الأمر طائعاً وتجزع أن داعي الصبابة أسمعا
قفا ودّعا نجداً ومن حلَّ بالحمى وقلَّ لنجد عندنا أن يودعا
بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربى وما أحسن المصطاف والمتربعا
وليست عشيّات الحمى برواجع عليك ولكن خلّ عينيك تدمعا
ولما رأيت البشر[1] أعرض دوننا وحالت بنات الشوق يحنن نزّعا
بكت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
تلفتُّ نحو الحيّ حتى وجدتني وجئت من الإصغاء ليتا وأخدعا
وأذكر أيام الحمى ثمَّ أنثني على كبدي من خشية أن تصدعا

٥) وقد أحسن المبرد بحفظ نصوص شعرية لابن أبي عيينة المبدع المجيد المنسيّ، ومن نصوصه الرائعة فيما نحن فيه:

ألم تنه نفسك أن تعشقا وما أنت والعشق لولا الشقا

---

(١) البشر: جبل.

أمن بعد شربك كأس النهى وشمّك ريحان أهل التقى
عشقت فأصبحت في العاشقين أشهر من فرسٍ أبلقا

٦) ولكي نعرف شيئاً عن عقائل ذلك العصر ديناً ودنيا؛ فلنستمع إلى أمّ ضيغم البلوية، تصف تجربتها:

فبتنا فويق الحيّ لا نحن منهم ولا نحن بالأعداء مختلطان
وبات يقينا ساقط الطلّ والندى من الليل بردا يمنةٍ عطران
نعدّي بذكر الله في ذات بيننا إذا كاد قلبانا بنا يردان

٧) ومن الغزل إلى موضوع يمكن لنا أن نصفه بالجفاف العاطفي، هو موضوع السلاح، نشهد فيه إجادة الشاعر الأول أوس بن حجر، وهو جاهلي قديم:

كتوم طلاع الكف لا دون ملئها ولا عجسها عن موضع الكف أفضلا
إذا ما تعاطوها سمعت لصوتها إذا أنبضوا عنها نئيماً وأزملا
كساهنّ من ريش يمان طواهراً سخاماً لؤاماً ليّن المسّ أضحلا
يجزن إذا أنفزن في ساقط الندى وإن كان يوماً ذا أهاضيب مخضلا
خوار المطافيل الملمعة الشوى وإطلاؤها صادفن عرفان مبقلا

٨) وفي ذات الموضوع، يقول الشماخ، وهو إسلامي أموي:

وذاق فأعطته من اللين جانباً كفي ولها أن يغرق السهم حاجز
إذا أنبض الرامون عنها ترنمت ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز

٩) ومن الطريف أن نرى شاعراً قديماً كيزيد بن الطثرية، يصف في هالة من الروعة الرائعة، خادماً للقوم كريم الأخلاق، كريم المقام، لدى مخدوميه:

وأبيض مثل السيف خادم رفقة أشمّ ترى سرباله قد تقدّدا
كريم على غراته لو تسبُّه لفدّاك رسلاً لا تراه مربدا
يعجل للقوم الشواء يجرّه بأقصى عصاه منضجاً أو مرمدا
حلوف لقد أنضجت وهو ملهوج بنصفين لو حركته لتقصدا

يجيب بلبيه إذا ما دعوته ويحسب ما يدعى له الدهر أرسدا

١٠) ونقف أمام نصيّن يتناولان علاقة الإنسان بأخيه من منظارين: جادّ وساخر سخرية مبطنة، أولهما للحسين بن مطير الأسدي، في رثاء معن بن زائدة الشيباني، يندر مثله في سائر شعر الرثاء العربي:

ألمّا على معن وقولا لقبره سقتك الغوادي مربعاً ثم مربعا
فيا قبر معن أنت أول حفرة من الأرض خطت للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف واريت جوده وقد كان منه البرّ والبحر مترعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميت ولو كان حياً ضقت حتى تصدعا
فتى عيش في معروفة بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
ولما مضى معن مضى الجود وانقضى وأصبح عرنين المكارم أجدعا

١١) والثاني ليحيى بن نوفل، يهنئ القاضي أبا شبرمة بالسلامة من حادث، ويخبره أنه أعتق استبشاراً بسلامته (غزوان) و(أم الوليد)، غير أنّ جاره الذي كان يسمعه ينشد الأبيات على مسمع القاضي، كشف أن العتيقين غزوان وأم الوليد ليسا غير سنّورين سائبين في بيت الشاعر:

أقول غداة أتانا الخبير يدس أحاديثه هينمة
لك الويل من مخبرٍ ما تقول ابن لي وعَدِّ عن الجمجمة
فقال خرجت وقاضي القضاة منفكة رجله مؤلمة
فقلت وضاقت عليّ البلاد وخفت المجللة المعظمة
فغزوان حرٌّ وأم الوليد إن الله عافى أبا شبرمة
جزاءً لمعروفه عندنا وما عتق عبدٍ له أو أمة

١٢) ومن وطنيات الشعر القديم، يقول ابن أبي عيينة في وصف البصرة:

يا جنة فاتت الجنان فما تبلغها قيمة ولا ثمن
ألفتها فاتخذتها وطناً إنّ فؤادي لحسنها وطن
زوّج حيتانها الضباب بها فهذه كنة وذا ختن

فانظر وفكر فيما تطيف به إن الأديب المفكر الفطن
من سفن كالنعام مقبلة ومن نعام كأنها سفن

١٣) ويقول شاعر نجدي في وصف ربوات نجد، بعد القطار (المطر):

أقول لصاحبي والعيس تهوى بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجدٍ فما بعد العشية من عرار
آلا يا حبذا نفحات نجد وريّا روضه بعد القطار
وأهلك إذ يحل الحيّ نجداً وأنت على زمانك غير زاري
شهور ينقضين وما شعرنا بأنصاف لهنّ ولا سرار

١٤) بعد هذا ننتقل إلى ما يمكننا أن نسمّيه شعر الأسرة، فإذا كانت نعم الله كثيرة على العباد؛ فإنّ أجلّها نجابة الأولاد كما قال الأول، وهذا إعجاب أب بابن كريم (رباط):

رأيت رباطاً حين تمّ شبابه وولى شبابي ليس في بره عتب
إذا كان أولاد الرجال حزازة فأنت الحلال الحلو والبارد العذب
لنا جانب منه دميث وجانب إذا رامه الأعداء ممتنع صعب
وتأخذه عند المكارم هزة كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب

١٥) ومن إعجاب الأب إلى إشفاقه على بنته، أو بناته، كما يصوره هو في نصّه:

لولا أميمة لم أجزع من العدم ولم أقاس الدجى في حندس الظلم
وزادني رغبة في العيش معرفتي ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
أحاذر الفقر يوماً أن يلمّ بها فيهتك الستر عن لحم على وضم
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً والموت أكرم نزّال على الحرم
أخشى فظاظة عمٍّ أو جفاء أخٍ وكنت أبقي عليها من أذى الكلم

١٦) أما قلب الأب ومشاعره نحو الأولاد، ففي هذه الأبيات الخالدة لحطان بن المعلى:

أنزلني الدهر على حكمه ... من شامخ عالٍ إلى خفض
وغالني الدهر بوفر الغنى ... فليس لي مال سوى عرضي
أبكاني الدهر ويا ربما ... أضحكني الدهر بما يرضي
لولا بنيات كزغب القطا ... رددن من بعض إلى بعض
لكان لي مضطرب واسع ... في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبّت الريح على بعضهم ... لامتنعت عيني من الغمض

١٧) وقد عرفنا خبر الابن البارّ (رباط)، وهذا هو أمية بن أبي الصلت يخبرنا خبر ابنه العاقّ:

غذوتك مولوداً وعلتك يافعاً ... تعل بما أدنى إليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت ... لشكواك إلا ساهراً أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي ... طرقت به دوني وعيني تهمل
تخاف الردى نفسي عليك وإنها ... لتعلم أن الموت حتم مؤجل
فلما بلغت السنّ والغاية التي ... إليها مدى ما كنت فيك أومّل
جعلت جزائي منك جبهاً وغلظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوّتي ... فعلت كما الجار المجاور يفعل
وسميتني باسم المفند رأيه ... وفي رأيك التنفيد لو كنت تعقل
تراه معدّاً للخلاف كأنه ... بردٍّ على أهل الصواب موكل

١٨) وكما عرض النص شكوى الأب من العقوق؛ فإنّ أم ثواب الهزانية تبدع في نصّها التالي، وتعرض خبرها مع ابنها، في قصة مسرودة إخبارياً، رائعة فنياً:

ربيته وهو مثل الفرخ أعظمه ... أمُّ الطعام ترى في جلده زغبا
حتى إذا آضى كالفحال[1] شذبّه ... أباره ونفى عن متنه الكربا

---

(١) الفحال: ذكر النخل.

وصرت أبصر في ترجيل لمّته وخطّ لحيته في خدّه عجبا
أنشا يمزق أثوابي ويضربني أبعد شيبي يبغي عندي الأدبا
قالت له عرسه يوماً لتسمعني مهلاً فإنّ لنا في أمنّا أربا
ولو رأتني في نار مسعرة ثم استطاعت لزادت فوقها حطبا

١٩) وأخيراً فها نحن أولاء نلتقي بأبي حية النميري، يقدّم نصّاً مشتملاً على قصة ذات فصول وأدوار، يمكن للمسرح أن يعتبرها أول نصّ شعري درامي مسرحي في شعر العرب. وإنّ من يغوص في بواطن المفردات والأبيات؛ يعرف صدق ما نقوله:

رمته أناة من ربيعة عامر نؤوم الضحى في مأتم أيّ مأتم
فجاء كخوط البان لا متتابع ولكن بسيما ذي وقار وميسم
فقلنا لها سراً فديناك لا يرح صحيحاً وإن لم تقتليه فالممي
فألقت قناعاً دونه الشمس واتقت بأحسن موصولين كفٍ ومعصم
وقالت فلما أفرغت في فؤاده وعينيه منها السحر قلنا له قم
فودّ بجدع الأنف لو أنّ صحبه تنادوا وقالوا في المناخ له نم
فراح وما يدري أفي ساعة الضحى تروّح أم داجٍ من الليل مظلم

(ب) من حيث الإطار العامّ

(٦) التماسك البيتي

اللاغطون لهدم مدماك الشعر العربي القديم يهرفون بالكثير والكثير من العيوب المختلقة من سخائمهم ضد ذلك البنيان الوطيد، وبالإمكان تلخيص مزاعمهم في:

١) أن القافية التزمها العربي الأول، وكان أمياً؛ ليضبط بها قرارة البيت.

٢) أن العربي الأول لأميته كان يتخذ البيت وحدة شعرية مستقلة، يفرغ فيه مضموناً كاملاً؛ ليسهل عليه حفظه، حيث كانوا لا كتابة لهم.

٣) وبناءً على زعمهم الآنف في البيت، كان التفكك في بنيان القصيدة الواحدة، لاشتمالها على أبيات متفككة المواضيع، متباعدة الأغراض، بحيث يسهل أن تؤخر البيت الأول وتقدم البيت الأخير دون أن تلحظ شيئاً. ورداً على هذه المزاعم المفتعلة نلفت النظر إلى:

١) أنّ العربي الذي هداه ذوقه السليم إلى اختراع البحور، واختراع التفعيلات على التداخل الدقيق بينها، لن يعجزه الاهتداء إلى معرفة قرارة النغم، فالقافية لديه ضرورة شعرية مثلما هي متعة فنّية.

٢) أن العربي الأول على أميّته كان بذوقه الفطري، وسليقته المطبوعة؛ أذكى وأحجى في انتقاء الكلمة المعبرة، والصورة المؤدية لمضامينه من حملة الشهادات العليا في جامعات اليوم. وهذا هو شعرهم مضى عليه أكثر من خمسة عشر قرناً حيٌّ لم يمت، وجديد لا يبلى، وصحيح أنّه كان يؤثر صياغة البيت الواحد المستوعب للمضمون قدر الإمكان، ولكنه لا يبنيه من لِبْن وتبن، ولكنه يبنيه بالشموس والأقمار، فترى البيت الواحد وقد حلت فيه الإشارة محل العبارة، واللمح محلّ الشرح، وقد ضربنا أمثلة من ذلك في كلامنا عن الإيجاز، غير أنّ العناية بالبيت لم تكن لديه على حساب القصيدة كاملة، فإنّ من يرجع إلى أمهات سجلاتهم الشعرية؛ يشهد من بنيان القصيد منتهى الرونق والإحكام.

٣) وإذا نظرنا إلى قصائدهم المطولة، فضلاً عن مقطعاتهم؛ وجدناها سبيكة متصلة الجزئيات متسقة الإخراج. ولننظر مصداقية هذا القول في المعلقات، ولتكن معلقة امرئ القيس وقد ابتدأها بالطلل ثم براحلة الحبيب، فالكلام عن الخيل والليل والتعريج على الذئب، كل هذه المواضيع يجمعها رباط واحد هو إطار الوجدانية الذاتية للشاعر، فقد كانت معلقاتهم تلك بمثابة المذكرات التي يودعها كبار رجالات العصر شجونهم وشؤونهم، ولهذا فقد خلت تلك المعلقات من مدح أو رثاء، وإنما هي سيمفونية النفس الشاعرة، وبوح وجدانها الخاصّ.

ولقد تجنى العقاد رحمه الله، وغفر له، على شوقي حين تعقّب شعره، وأكثر من التجريح له، وإذا كان قد ظفر بالقصيدة أو القصيدتين من شعره، إلا أن مجمل

الشوقيات في القمة من المتانة والإبداع، وشاء الله للعقاد أن يطول به العمر ليرى قصور محاولاته في فتوّته من تنويع القافية واجتزاء التفعيلات، وقد أصبحت نفثات لم تتلقفها الآذان والأنفاس، ذهبت أدراج الرياح؛ فعاد إلى عمود الشعر، فأبدع شعراً جديراً بالخلود من مثل رائعته (العقاب الهرم):

يهمُّ فيعييه النهوض فيجثم ويعزم إلا ريشه ليس يعزم

وقصيدته التي ألقاها على قبر سعد زغلول فور خروجه من السجن:

إلى الذاهب الباقي ذَهَاب مجَدَّد وعند ثرى سعد مثابٌ ومَسْجِد

كما أنَّ سيد قطب رحمه الله كان يظن إجداب الشعر العربي من الصور الشعرية المتناسقة فنياً، ويشايع أستاذه العقاد في اعتبار ابن الرومي متفرداً في هذا المجال، ولكنه عاد في كتابه (النقد الأدبي أصوله ومناهجه) يقرر غزارة النصوص الشعرية في شعر العرب القديم، التي اكتمل لها التناسق الفني في أبهى وأوسع صوره، من مثل قصيدة البحتري في إيوان كسرى:

صنت نفسي عما يدنس نفسي وتنزهت عن جدى كل جبس

وقصيدة ابن خفاجة الأندلسي في الجبل:

وأرعن طمّاح الذوائب شامخ يطاول أعنان السماء بغارب

وقصيدة المعري في رثاء عبد المجيد:

غير مجدٍ في ملتي واعتقادي نوح باكٍ ولا ترنّم شادي

ولقد أوردنا فيما سلف نصوصاً مطولة، تشهد بالتماسك البيتي للقصيدة العربية القديمة. ونورد الآن قصيدة لفارس اليمن عمرو بن معدي كرب الزبيدي محكمة البناء رائعة الأداء، ونتبعها بعدة نصوص يجمعها كلها إطار الوجدانية الذاتية ابتداءً من العصر الجاهلي، وانتهاءً بمنتصف العصر العباسي:

ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن ردّيت بردا
إنَّ الجمال مكارم ومناقب أورثن مجدا
أعددت للحدثان سا بغة وعدّاءً علندى

نهداً وذا شطبٍ يقدّ ... البيض والأبدان قدّا

وعلمت أني يوم ذاك ... منازل كعباً ونهدا

قوم إذا لبسوا الحديد ... تنمّروا حلقاً وقدّا

كلّ امرئ يجري إلى ... يوم الهياج بما استعدّا

لما رأيت نساءنا ... يفحصن بالمعزاء شدّا

وبدت لميس كأنها ... بدر السماء إذ تبدّى

وبدت محاسنها التي ... تخفي كأن الأمر جدّا

نازلت كبشهم ولم ... أرَ من نزال الكبش بدّا

هم ينذرون دمي ... وأنذر إن لقيت بأن أشدّا

كم من أخٍ لي صالح ... بَوَّأته بيديَّ لحدا

ما إن جزعت ولا هلعت ... ولا يردّ نكاي زندّا

ألبسته أثوابه ... وخلقت يوم خلقت جلدا

أغني غناء الذاهبين ... أعدّ للأعداء عدّا

ذهب الذين أحبهم ... وبقيت مثل السيف فردا

٢) ويقولِ شاعر أموي، واصفاً مروءته مع الكاشحين، من أقربائه وأصدقائه:

وإنّي لأستغني فما أبطر الغنى ... وأعرض ميسوري على مبتغي قرضي

وأعسر أحياناً فتشتدّ عسرتي ... وأدرك ميسور الغنى ومعي عرضي

وما نالها حتى تجلت وأسفرت ... أخو ثقةٍ منّي بقرض ولا فرض

وأبذل معروفي وتصفو خليقتي ... إذا كدرت أخلاق كل فتى محض

ولكنه سيب[1] الإله ورحلتي ... وشدّي حيازيم المطية بالعرض

وأستنقذ المولى من الأمر بعدما ... يزلُّ كما زلَّ البعير عن الدَّحض

وأمنحه مالي وودّي ونصرتي ... وإن كان مَحنيَّ الضلوع على بغضي

(١) سيب: عطاء.

ويغمره حلمي ولو شئت ناله قوارع تبري العظم عن كَلِمٍ مَضٍّ
وأقضي على نفسي إذا الأمر نابني وفي الناس من يقضى عليه ولا يقضي
ولست بذي وجهين فيمن عرفته ولا البخل فاعلم من سمائي ولا أرضي
وإنّي لسهل ما تغيّر شيمتي صروف ليالي الدهر بالفتل والنقض
أكفُّ الأذى عن أسرتي وأذوده على أنني أجزي المقارض بالقرض
وأمضي همومي بالزماع لأهلها إذا ما الهموم لم يكد بعضها يمضي

٣) وهذا هو العاشق الحكيم والشاعر الرصين المخضرم جاهليةً وإسلاماً؛ سويد بن أبي كاهل يصف فتاته رابعة، وليله الطويل، ونجومه الظلع العرجاء البطيئات السير:

بسطت رابعة الحبل لنا فوصلنا الحبل منها ما اتسع
حرّةٌ تجلو شتيتاً واضحاً كشعاع الشمس في الغيم سطع
صقلته بقضيب ناضر من أراكٍ طيباً حتى نصع
أبيض اللون لذيذاً طعمه طيّب الريق إذا الريق خدع
تمنح المرآة وجهاً واضحاً[(١)] مثل قرن الشمس في الصحو ارتفع
صافي اللون وطرفاً ساجياً أكحل العينين ما فيه قمع
وقروناً سابغاً أطرافها غللتها ريح مسك ذي فنع
هيج الشوق خيال زائر من حبيب خفر فيه قرع
شاحطٍ جاز إلى أرحلنا عصب الغاب طروقاً لم يرع
آنس كان إذا ما اعتادني حال دون النوم مني فامتنع
وكذاك الحبُّ ما أشجعه يركب الهول ويعصي من وزع
فأبيت الليل ما أرقده وبعينَيَّ إذا النجم سطع
وإذا ما قلت ليل قد مضى عطف الأول منها فرجع

---

(١) يصف أسنانها.

يسحب الليل نجوماً ظلعاً فتواليها بطيئات التبع
ويزجيها على إبطائها مغرب اللون إذا اللون انقشع

٤) ويمرُّ عوف بن محلم الخزاعي مع لزيمه وممدوحه عبد الله بن طاهر بن الحسين، ويسمع هديل ورقاء، ويقترح عبد الله عليه الإتيان بشعر في المعنى؛ فتهيج بلابله ويقول ما عنده، وبعد حين يدعوه عبد الله فلا يجيبه عوف. ولماذا؟

لأنَّ الثمانين قد أوهنت قواه، ومن قواه سمعه وبصره، ولمّا أخبره الجلساء بنداء عبد الله وعدم إجابته له، أنشأ معتذراً يبث بنات قلبه وخبيئة صدره معتذراً إليه، وطالباً منه إعفاءه من ملازمته، والإذن له بزيارة أهله، وقد طال غيابه عنهم:

يا ابن الذي دان له المشرقان وألبس الأمن به المغربان
إنَّ الثمانين وبلّغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان
وأبدلتني بالشطاط انحنا وكنت كالصعدة تحت السنان
وعوضتني من زماع الفتى وهمتّي همَّ الجبان الهدان
وقاربت مني خطى لم تكن مقارباتٍ وثنت من عنان
وأنشأت بيني وبين الورى عنانة من غير نسج العنان
ولم تدعْ فيَّ لمستمتع إلا لساني وبحسبي لسان
أدعو به اللّه وأثني به على الأمير المصعبي الهجان
وهمت بالأوطان وجداً بها وبالغواني أين مني الغواني
فقرباني بأبي أنتما من وطني قبل اصفرار البنان
وقبل منعاي إلى نسوة أوطانها حرّان والرقتان
سقى قصور الشاذياخ الحيا من بعد عهدي وقصور الميان
فكم وكم من دعوة لي بها بأن تخطاها صروف الزمان

٥) ونصغي قليلاً إلى الشاعر المبدع حقاً ابن الرومي، في أبياته النادرة في موضوعها وأدائها:

ظلمت حاجتي فلاذت بحقويك فأسلمتها لكفّ القضاء

وقــضــاء الإلــه أحــوط لــلــنــاس   مـــن الأمـــهـــات والآبـــاء
غـيـر أن الـيـقـيـن أضـحـى مـريـضـاً   مـرضـاً بـاطـنـاً شـديـد الـخـفـاء
مـا وجـدت امـرءاً يـرى أنـه   يـوقـن إلا وفـيـه شـوب امـتـراء
لـو يـصـحّ الـيـقـيـن مـا رغـب   الـراغـب إلا إلـى مـلـيـك الـسـمـاء
وعـسـيـر بـلـوغ هـاتـيـك جـداً   تـلـك عـلـيـا مـراتـب الأنـبـيـاء

٦) ولقد أورد ابن عبد ربه قصيدة في العقد الفريد، لشاعر يدعى جعفر بن جدار كاتب ابن طولون، لم أعثر له على ترجمة رغم طول البحث. وهي قصيدة طويلة كلما وقفت عليها لم أستطع مبارحتها حتى أستعيدها. تكاد من حسن إحكامها وعذوبة نغمتها وروعة معانيها؛ تجري على فمّ قارئها، وتهزج في أعماقه، نورد شطراً منها:

كـم بـيـن بـاري وبـيـن بَـمَّـا   وبـيـن بَـونٍ إلـى دنَـمّـا
مـن رشـاءٍ أبـيـض الـتـراقـي   أغـيـد ذي غُـنـة أحـمّـا
وطـفـلـة رخـصـة الـمـرائـي   لـيـسـت تـحـلّـى ولا تـسـمّـى
إلا وسـلـك مـن الـلآلـئ   يـعـجـز مـن يـخـرج الـمـعـمّـى
صـغـرى وكـبـرى إلـى ثـلاث   مـثـل الـتـعـالـيـل أو أتَـمّـا
وكـم بِـبَـمّ وأرض بَـمٍّ   وكـم بـرّمٍ وأرض رمـا
مـن طـفـلـة بـضّـةٍ لـعـوب   تـلـقـاك بـالـحـسـن مـسـتـتـمّـا
مـنـهـنّ ريّـا وكـيـف ريّـا   ريّـا إذا لاقـت الـمـشّـمـا
لـو شـمّـهـا طـائـر بـدّو   لـخـرّ فـي الـتـرب أَوْ لَـهَـمّـا
تـسـحـب ثـوبـيـن مـن خـلـوق   قـد أفـنـيـا زعـفـران قـمّـا
كـأنـمـا جـلـيًّـا عـلـيـهـا   مـن طـيـب مـا بـاشـرا وشـمّـا
وألـفـيـا زعـفـران قـمٍّ   فـانـغـمـسـا فـيـه واسـتـحّـمـا
فـهـي: (نـظـيـر) اسـمـهـا الـمـعـلـى   يـفـوح لا مـرطـهـا الـمـذمـا
هـيـهـات يـا أخـت أرضٍ بـم   غـلـطـت فـي الاسـم والـمـسـمـى

لو كان هذا وقيل سَمٌ مات إذاً من يقول سَمّا
قد قلت إذ أقبلت تهادى كطلعة البدر أو أتمّا
تومي بأسروعة وتخفي بالبرد مثل القداح حمّا
لو كنت ممّن لكنت ممّا لكنني قد كبرت عمّا
عاتبني الدهر في عذاري بأحرف فارعويت لمّا
قوّس ما كان مستقيماً وابيضّ ما كان مدلهمّا
وكيف تصبو الدّمى إلى من كان أخاً ثم صار عمّا
لي عنك يا أخت أهل بَمٌ شغل بما قد دنا مهمّا
فلست من وجهك المفدّى ولست من قدّك المحمّى
أذهلني عنك خوفُ يوم يحيا له كل من ألمّا
ما كسبته يداي وهما خيراً وشراً أصبت ثمّا
تحشر فيه الجنان زفّا وتحشر النار فيه زمّا
تقول هذي لطالبيها هيتَ وهذي لهم هلمّا
نفسي أولى بأن أذمّا من أمرها كل ما أشتُذِمّا

(٧) الفرادة النغمية

يقطع الدارسون المطلعون على اللغات الأجنبية وآدابها؛ أنَّ العروض والقوافي خصيصة تفردّت بها العربية بين سائر اللغات والآداب قديماً وحديثاً، ذلك ما يؤكده مثلاً الأستاذ العقاد في كثير من أبحاثه ودراساته، ويفيض التفصيل فيه بثنايا كتابه (اللغة الشاعرة) ويعلل ذلك بالخاصية التي تميزت بها لغة الضاد في حروفها ومفرداتها، وتراكيبها واشتقاقاتها، من الانطباع على النغمة الشائعة في كل تضاعيفها، كما أنه يعتبر الحداء هو الإيقاع الأول الذي ألقى في الأذن العربية تفعيلاتها وأوزانها، وذلك هو ما ذهب إليه المسعودي في المروج؛ حيث يقول في المجلد الرابع ص ٢٢١:

كان الحداء في العرب قبل الغناء، وقد كان مضر بن نزار سقط عن بعير في

بعض أسفاره، فانكسرت يده، فجعل يقول: (يا يداه. يا يداه) وكان من أحسن الناس صوتاً، فاستوسقت الإبل وطاب لها السير، فاتخذه العرب حداء برجز الشعر، وجعلوا كلامه أول الحداء، فمن قول الحادي:

يـا هـاديـا يـا هـاديـا ويـا يـداه يـا يـداه

فكان الحداء أول السماع والترجيع في العرب، ثم اشتق الغناء من الحداء ونُحْنَ نساء العرب على موتاها، ولم تكن أمة من الأُمم بعد فارس والروم أولع بالملاهي والطرب من العرب، وكان غناؤهم النصب ثلاثة أجناس: الركباني، والسناد الثقيل، والهزج الخفيف ا هـ.

وعلى هذا، فإن الرجز هو أول الأوزان العروضية ظهوراً وانتشاراً، ويذكر ابن قتيبة: أن الأغلب الجشمي هو أول من شبّه الرجز بالقصيد وأطاله، وكان الرجز قبله إنما يقول الرجل منه البيتين أو الثلاثة، إذا خاصم، أو شاتم، أو فاخر. وقد تطوّر الرجز من وعورته البدوية إلى ديباجته الحضرية، كما رأيناه في رجز بشار تحدّياً لعقبة بن رؤبة بن العجاج، الذي ظنّ الرجز وقفاً عليه وعلى أبيه وجدّه. وقد ترقّقت أوزانهم وقوافيهم على أيدي رجال في العهدين الأموي والعباسي، فممّا رواه ابن قتيبة في ذلك: أن عبد الله بن قيس الرقيات أنشد عبد الملك بيتيه:

إنّ الحوادث بالمدينة قد أوجعنني وقرعن مروتيه
وجببنني جبَّ السنام ولم يتركن ريشاً في مناكبيه

فقال له: أحسنت، لولا أنك خنثت في قوافيه! فقال:

ما عدوت كتاب الله (ما أغنى عنّي ماليه. هلك عني سلطانيه) وقد تنافس القوم في توضيح علم العروض والقوافي، حتى رأينا نابغة اليمن إسماعيل بن أبي بكر المقرئ يهدي الدنيا كتابه (عنوان الشرف الوافي) بعلومه الخمسة، ومنها: العروض والقوافي، مصبوبة في خمسة جداول، شاهداً بتغالي القوم بذلك العلم، واعتباره من مفاخرهم وحميد معارفهم، ومن أحسن منظوماتهم في تيسيره للحفظ منظومة ابن عبد ربه، وقد أوردها في العقد موضحاً قيمة العروض العلمية، وسبق الخليل فيه، وتفرّد العربي به:

وكل علم فله فنون | وكلّ فنّ فله عيون
أولها جوامع البيان | وأصلها معرفة اللسان
فإنّ في المجاز والتأويل | ضلت أساطين ذوي العقول
حتى إذا عرفت تلك الأبنية | واحدها وجمعها والتثنية
طلبت ما شئت من العلوم | ما بين منثورٍ إلى منظوم
فداو بالإعراب والعروض | داءَك في الإملاء والقريض
كلاهما طب لداء الشعر | واللفظ من لحنٍ به وكسر
ما فلسف البطليس جالنيوس | وصاحب القانون بطليموس
ولا الذي يدعونه بهرمس | وصاحب الأركند والإقليدس
فلسفة الخليل في العروض | وفي صحيح الشعر والمريض

ولأنَّ فقيد العربية، الأستاذ عباس محمود العقاد، رحمه الله، قد عاصر البدايات الأولى لدعاة الهدم التراثي في هذه الأمة، واستقصى بواعثها الخفيّة والظاهرة، وكان أعرف الناس بمخاطرها الكثيرة، وجرائرها المبيرة، فيما لو قدر لتلك الدعوات بلوغ غرضها وتحقيق مأربها الهدام، وهو فعلاً ما تمَّ اليوم، وما نرى جنايته المنكرة المنتشرة في حياتنا الشعرية. أقول: لأنَّ الأستاذ العقاد كان كذلك، فمن حقّه علينا أن نصغي إليه قليلاً، وهو يفضي بكلمته المهمة في هذا الصدد من كتابه (اللغة الشاعرة) ص ٣٨:

ومن هنا يظهر لنا كل الظهور: أن الدعوة إلى إلغاء الأوزان ذات البحور والقوافي في اللغة العربية؛ لا تأتي من جانب سليم، ولا تؤدي إلى غاية سليمة، فلا يدعو إليها غير واحد من اثنين: عاجز عن النظم الذي استطاعه الشاعر العامي في نظم القصص المطولة والملاحم التأريخية من أمثال: السيرة الهلالية، وسيرة الزير، وغيرها من السير المشهورة المتداولة. أو عاجز عن النظم الذي استطاعه الشاعر العامي، والشاعرة العامية، في نظم أغاني الأعراس ونواح المآتم، وأمثال الحكمة والنصيحة على ألسنة المتكلمين باللهجات الدارجة. ولا خير للفن في كَلام يقوله من يعجز عن هذا القدر من السليقة الشاعرية والملكة الفنية، وأحرى به أن

يأتي بما عنده في كلام منثور، ويترك النظم وشأنه بدلاً من هدم الفن كله، وحرمان اللغة من آثار القادرين عليه. ونحن نستشهد بالقصاصين وناظمي الملاحم العامية والأغاني الشائعة، لأنَّ في استطاعتهم نظم القصص والملاحم والأغاني والأناشيد بغير تعلم، ولا معرفة ثقافية؛ ينفي عن الأوزان العربية تلك الصعوبة المزعومة، التي يدعي الأدعياء أنها تجعل النظم العربي من أصعب فنون النظم في اللغات العالمية، ونسكت عمداً في هذا المقام عن الملاحم المترجمة، التي نقلها إلى العربية أناس من المثقفين المطلعين على الآداب والعلوم، فإن المتشاعرين الأدعياء قد يزعمون أن تذليل هذه الصعوبة عمل يحتاج إلى الثقافة والاطلاع، ولا يقتدر عليه عامة المترجمين.

فإن لم يكن نقص الملكة الفنية سبب العجز عن أوزان الشعر العربي، والدعوة إلى إبطال هذه الأوزان، فهو إذن من أعمال الهدم الصراح، عن سوء نيّة، وخبث طويّة؛ يتعمده المجاهرون به لتقويض معالم اللغة، ومحو آثار الأدب، وفصم العلاقة الفكرية بين روائع الثقافة العربية في مختلف العصور. وتلك شنشنة نعهدها في العصر الحاضر من دعاة الهدم، المستترين وراء كلمات التقدم والتجديد.

وأين يعمل هؤلاء عملهم الهادم إن لم يكن هذا عملهم المقصود من وراء الستار؟

إنَّ هدم الفن الجميل الذي امتازت به لغة العرب بين لغات العالم لا يصدر إلا عن عجز أو إصرار على الهدم، ولا خير في دعوة يتولاها العجز العقيم والضغينة النكراء.

(٨) التقنين البياني

ولقد ظلّت عملية البنيان البياني في لغة الضاد شعراً ونثراً عطاء أجيال وقرون، ربما أوفت على عشرة قرون قبل الإسلام، ثم بعد مجيئه، ويمكننا حصر مصادر تلك العملية الضخمة في خمسة مصادر هي:

القرآن، والسنة، والخطباء، والشعراء، والكتّاب.

إذ لم يكن الشعر والشعراء منفردين بذلك البنيان الضخم، كما يمكننا إيجاز المراحل المتعاقبة في ابتكار وتأسيس وتدوين تلك العملية وتقنينها، من خلال المسيرة الشعرية، في خمس مراحل:

١) مرحلة الابتكار والإبداع:

وهي تبدأ من الزمن السحيق، الذي لا يستطيع تحديده دارس، يوم أن دارت أول تفعيله، واكتمل أول وزن، وتتابع العطاء في دور الابتكار، وذلك يستغرق أجيالاً، وتتابع العطاء في دور الإبداع، وقد وصل إلينا شيء منه، ممّا هو مدّون للشعر الجاهلي. وإذا كان كعب بن زهير، وهو مخضرم يقول:

ما أرانا نقول إلا معارا أو معاداً من قولنا مكرورا

وابتداء عنترة مذهبته الطويلة بهذا الاستفهام:

هل غادر الشعراء من متردّم؟

استبانت لنا البداية الطويلة، والتواصل الفيّاض للشعر قبلهما؛ حتى لم يترك ميداناً جديداً لمرتاد في رأيهما.

ولقد كانت تنقلات العرب في هجراتهم الداخلية ابتغاء النجعة من جنوب إلى شمال وبالعكس، والتجارة والحروب ووفادات الشعراء كأعشى بكر، وكثيراً ما غشي ملوك اليمن، وامتدحهم بأحسن مدائحه:

وكان سلامة ذا فائشى إذا زاره الضيف حيّا وبشّ

والمرقش الأكبر، وأبي دهبل الجمحي، كل تلك ساعدت على انتشار الشعر العربي وذيوعه في الأرجاء.

٢) مرحلة الإثراء:

وقد كانت مع مطلع النبوة ونزول القرآن ونصوص السنة. وإن من يتوقف قليلاً لدى ما جاء به القرآن من المفردات الجديدة: الفاتحة، السورة، الآية، وما استحدثه من استعمال لبعض المفردات، والإضافة إليها: الصلاة، والصيام،

والجهاد، الكفارة، النفاق إلى غير ذلك. إنّ من يعرف ذلك، ويعرف ما فاهت به البلاغة المحمدية: مفردات وتراكيب لا عهد لهم بها من قبل؛ يدرك حجم الإثراء الذي جادت به تلك المرحلة.

٣) مرحلة الإمتاع والنقاء:

وتتمثل في العهد الأموي، وما جاء به فحول ذلك العهد، وما استحدثوه من الأغراض الشعرية: كالغزل العذري، ولوحات ذي الرمة، والنقائض القبلية، والقصائد السياسية. وهو العهد الذي ظلَّ بحق محل اهتمام الرواة، ومصدر احتجاج المحتجّين شعرياً ولغوياً ونحوياً وصرفياً، وقد رأيت في نصٍّ سابق مدى حفظ الرشيد لنصوص شعراء ذلك العهد.

٤) مرحلة الإيناع والترجمة والتأليف:

وقد كانت في القرنين الأولين للدولة العباسية، حيث بلغ الشعر حينذاك أرقى أساليبه، وأنضج صوره وتعبيراته، ولما شاعت الترجمة لتراث الفرس أولاً على يد ابن المقفع، ثم ترجمة اليونان على يد إسحاق بن حنين وأمثاله؛ كان لذلك أثره في إنتاج البيان العربي شعراً ونثراً.

ثم كانت:

٥) مرحلة الاصطناع والنضوب:

حين شاعت في أواخر الدولة العباسية تأليفات المناطقة والفلاسفة، وتبويبات البلاغيين، وتحول الشعر من إبداع فوّار العاطفة إلى صنعة باردة متكلفة، إلا أفراداً من الشعراء المبدعين.

ولقد أحسن الدكتور محمد علي سلطاني صنعاً بتلخيص الدراسات البلاغية في تيارات ثلاثة: أولها تيار المتابعين للبلاغة العربية، في عطائها الصافي غير المشوب بأية رائحة أجنبية، وأبرز رجال هذا التيار: الجاحظ وابن المعتز في كتابه (البديع)، وعبد القاهر الجرجاني في كتابه (أسرار البلاغة). ثانيها: تيار تلامذة

الترجمات الأجنبية، الحريصين على تطبيقات قوانين إرسطو طاليس في كتابيه (فنّ الخطابة) و(فنّ الشعر) وأبرزهم: قدامة بن جعفر صاحب كتاب (نقد الشعر). ولم يعدُ فيه تقسيمات المناطقة واصطلاحات الفلاسفة.

ثالثها: تيار الإعجاز القرآني، بدءاً بأبي عبيدة معمر بن المثنى، وإلى أبي بكر الباقلاني ومن تلاه، وقد كان لكل من الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني مشاركة في هذا التيار. وممّا ينبغي معرفته هنا: أن القوم ظلوا يطلقون كلمة البديع كتعريف واحد للبلاغة، حتى جاء أبو يعقوب السكاكي، أوائل القرن السابع الهجري، ووضع كتابه (مفتاح العلوم) الذي لخصّه القزويني، وشرحه المقريزي، وظل مع طراز الإمام يحيى بن حمزة؛ مصدري التعليم البلاغي حتى وقتنا هذا.

ولكي نعرف شيئاً من جهد تلك الأجيال، وأولئك الرجال؛ يحسن العودة إلى كتاب تاريخ البلاغة الجامع، على صغر حجمه، ما يكفي ويشفي في هذا المجال، حيث استقصى في تتبع عجيب ميلاد كل مصطلح بلاغي من بداية جريان الشفاه والأقلام به، وحتى استقرّ التصنيف والتأليف على وضعه الموضع المحدد في علوم البلاغة الثلاثة: البيان، المعاني، البديع.

ولقد كان للجاحظ دور الريادة في ذلك، كما كان لعبد القاهر الجرجاني دوره الفذّ في التنظير البياني والتقنين البلاغي، وإغناء ذلك بالأمثلة القرآنية والنبوية والشعرية والنثرية. ولا نحب أن نبارح كلامنا عن عبد القاهر قبل أن نشير إلى النبع الذي استقى منه نظريته الرائعة في النظم، وهو تقديره لأهمية النحو في الصياغة البلاغية، وتعريفه للغة، وذلك ما يوجزه لنا الدكتور محمد علي سلطاني في كتابه (مع البلاغة العربية في تأريخها) ص ١٤٥:

ويقال: إنّه ألفّ على الإيضاح أربعة كتب لا كتابين؛ مما كان له تأثيره الواضح في اتساع نظرة عبد القاهر إلى النحو بوصفه مهندساً للعربية، يرعى أساليبها، ويسدد آلة التعبير فيها، ونافذة نطل منها على المعاني وراء التراكيب والأساليب ومكنوناتها. فهو إذن صورة لطرائق تفكير الناطقين بها، وذلك ليتخذ منه عبد القاهر أساساً لنظرية النظم التي نادى بها في كتابه (دلائل الإعجاز) ا هـ.

ولأنَّ الجرجاني كان شافعي المذهب، أشعري المعتقد، وكان الأشعري

يقول: إن للكلام صورتين: أصلية وهي التي تكون في نفس المتكلم، ولفظية وهي التي تخرجها الحروف والألفاظ، هادفاً من ذلك إلى أن كلام الحق سبحانه وتعالى في صورته النفسية قديم. أما خروجه في الحروف والألفاظ القرآنية فهو الذي يمكن أن يقال: إنّه مخلوق، وقد جرى مجراه الجرجاني؛ فكانت رؤيته للغة بنفس المصدر ص ١٤٧.

(وأن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ؛ بل مجموعة من العلاقات بين الدلالات ورموز المعاني المتمثلة في الألفاظ لأداء ما في النفس. وأنه لا قيمة للألفاظ في ذاتها، فلو أنهم اصطلحوا لفظة (ربض) بدل (ضرب) لما اختلف الحال للدلالة على الفعل المقصود. وقد ترتب على هذا عند الجرجاني أن إعجاز القرآن لا يتعلق بالألفاظ، لأنها لا تعدو كونها رموزاً للمعاني ودليلاً عليها. وبذلك تدنت اللفظة المفردة في نظره عن مكانتها التي تتبوأها عند اللفظيين. فلم يعد لها أهمية خاصة بها من حيث هي لفظ، مهما بلغ من انسجام حروفها، وحسن وقعها وجرسها، وإنما تبرز مكانتها في نظره ويظهر فضلها على سواها؛ حين تنتظم مع غيرها فتتبدى ملاءمتها لجاراتها، وتوافقها معها) ا هـ.

وإذا كان قدامة بن جعفر كما أسلفنا الممثل البارز لتيار المناطقة البلاغيين، فإنّ أبا تمام، وقد كان واسع الإطلاع على كلامهم، ومتمثلاً لذلك في كثير من نصوصه ـ كان أبرز شعرائهم ـ وقد دار جدل بشأنه كبير بين محبّذ ومفند كالقاضي الجرجاني والآمدي. وننبّه هنا إلى أن التقنين البلاغي بعلومه قد يعين على إيجاد ملكة تحليلية متذوقة، ولكنه لا يخلق الموهبة الشعرية الإبداعية، وذلك واضح مما حدث للشعر الإبداعي من نضوب، بعد استقرار الكتب البلاغية، وتقعيد قواعدها، وتسابق القادرين على النظم في ملء قوالبها ليس غير، وإذا كانت البلاغة اليوم عامة والشعر خاصة قد أصبحت محلّ تنازع بين المحافظين، وبين المغيرين على التراث؛ فما أجدر، بل ما أوجب على ذوي المواهب الإبداعية أن يثروا مواهبهم بمعارف العصر، لتكون عوناً لمواهبهم على اتساع الإبداع، وتنوّع الإمتاع.

العنقود الثالث

إضاءة النصّ للعصر والشاعر

العنقود الثالث:

إضاءة النصّ للعصر والشاعر:

ينظر المحرومون من التذوّق الشعري، الجاهلون لمكانة النشاط اللساني في هذه الحياة، والشعر على الأخصّ، ينظرون إلى هذا الفنّ الرفيع حقاً؛ المختزن لمشاعر الأجيال ومشاهدهم وبواطنهم وظواهرهم وجدّهم وهزلهم (الشعر) وكأنه ليس إلا عبثاً كلامياً، وترفاً ذهنياً تقف حدود تأثيره عند شخصية قائله، ومن قيلت فيه. وقد أردنا في هذا الباب أن نعرض شيئاً من إيجابية الشعر التي تتجاوز به الأجيال المتعاقبة، والأحقاب المتكاثرة، فيبقى معرضاً للنفسيات وللشخصيات وللعصور.

وإذا كان المؤرخ بتسجيله للأحداث يعرضها في كراريسه وسجلاته مفصلة، فإنَّ الشعر يعرضها بلمحة المعبّر ولغته المكثفة، بل إن له مظهري تفوق على جهد المؤرخ ومداه، أولهما: نفاذه إلى الأعماق في طوايا الأنفس مصوراً انفعالاتها وطموحاتها، بينما المؤرخ يقف عند السطوح. وثانيهما: أنّه بشحنته الكهربائية ينفخ في المتلقى على تباعد القرون نفخته الموحية الخلاقة. وذلك ما لا يتأتى للمؤرخ، وإلى هذا المعنى يشير أبو تمام:

ولولا خلال سنّها الشعر ما درى بناة العلى من أين تؤتى المكارم

وسنرى في هذا الباب بعون الله ـ إيجابية الشعر في مجال العصر الذي ولد فيه، ومجال الشخصية التي فاهت به ـ ولا شك في أن الشعر مسبار صادق، ومعرض أمين في دلالته على القوة العقلية لصاحبه، وفي ذلك يقول حسان:

وإنما الشعر لبّ المرء يعرضه على المجالس إن كيساً وإن حمقا

أما المدى التأثيري للشعر، فيتفاوت بحسب ما يقدّر له من توفيق وامتلاء بالإيحاء، فبينما يراه الشاعر أحمد الآنسي:

ومـا الـشـعـر إلا كـالـنـسـيـم وإنّـمـا   يهزّ النسيم الغصن لا الصخرة الصلعا

فإنَّ الشاعر العراقي «الرصافي» يتغالى بتأثيرية الشعر، وقوة فاعليته، على حدّ قوله:

ومـا الـشـعـر إلا كـل مـا رنّـح الـفـتـى   كـمـا رنّـحـت أعـطـاف شـاربـهـا الـخـمـر

ذلك هو الشعر الموحي الخالد الذي لا يبلى في هذه الدنيا، وسنبدأ بحديثنا عن القسم الأول منه من قسمي هذا الباب الذي هو معرض العصور، ثم نقفيه بالقسم الثاني الذي هو معرض الذوات الشاعرة.

(أ) إضاءته للعصر

الحضارة شعلة بشرية، وشمس إنسانية، تشرق في أفق قوم وتأفل عن أفق آخرين في مجالها المكتوب لها. ولقد كان العرب من الضياع والضّعة قبل الإسلام ما لا يخفى على أحد. ثم جاء هذا الدين بمقدم رسوله الكريم محمد ﷺ الذي هو بحق منقذ البشرية الأعظم، مثلما هو خاتم النبيّين، ووارث تراث المرسلين، ومحقق كمالات الإنسان العليا، في هذه الدنيا. وكانت البعثة، ثم كانت الهجرة، والتقت الجزيرة بعد شتات، وارتفعت بعد سقوط، واحتملت مشعل الهداية والحضارة لتملأ فراغ الكسروية والقيصرية، وتضيء أكثر من نصف المعمورة، وتحضن عشرات القوميات، وكلُّ ذلك نبت وقام واستوى على أسس ثلاث متينة، لا حضارة راشدة بدونها: عقيدة، نظام، إنتاج، وهي متلاحمة عضوياً، متساوية عملياً؛ بحيث لا تتحقق الثانية إلا بعد تحقق الأولىٰ، ولا تستقيم الثالثة حتى تستقيم الثانية.

فلا نظام، ونعني به الشريعة على كل الأصعدة، إلا إذا كانت العقيدة واضحة للبصائر والأبصار، مكينة في المشاعر والنفوس. ولا إنتاج إلا إذا استقام النظام عملياً على الصراط المستقيم. وكذلك الأمر في تداخلها عند الهرم والتفكك.

وقد رأينا بوادر ذلك في العصر الأموي حين اضطرب الحكم من شورى إلى استبداد، نتيجة لاضطراب في العقيدة، وركونٍ إلى الدنيا، وبدأت تشيع مظاهر الجاهلية الأولى، ومن مظاهرها الهدامة المقيتة بروز الولاء القبلي من جديد،

وشيوع المظالم، وتتابعت محنة الأمة عَصراً فعصراً حتىٰ أغرقها الترف، وأرهقها الظلم، وهذان (الترف والظلم) جماع أمراض الحضارات وأدواء المجتمعات، ومع نفعية الكثير من الشعراء، وسقوطهم على الرغائب، واستهانتهم بأهمية الكلمة إلا أن نصوصاً جمّة من الشعر، ورجالاً كباراً من الشعراء كانت لهم المقدرة التأريخية على تحمل شهادات الشعر على عصورهم وأجيالهم، فالتأريخ يروي أنّه حين آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز؛ كان يأمر عماله بالرفق بمواطنيهم في أخذ الزكاة، وقبول الداخلين من الذميين في دين الله، خلافاً لما كانوا في عصر من قبله، من أمراء الدولة الأموية، الذين كان بعضهم يحرص على الأموال أكثر من الحرص على هداية العباد، حتى قال عمر كلمته الباقية مؤدّباً أولئك العمال: (إنّ الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً) وما إن لحق ابن عبد العزيز بربه، حتى عادت مظالم جباة الزكاة تنقض الظهوَر، لا لبيت المال، ولكن ليستأثر الولاة والجباة بكرائم أنعام الزكاة، ولا ينال بيت المال من العشار الكريمة إلا الأفيل، الذي هو صغار الإبل، كما يسجله الراعي النميري، في نصّه المفصّل الموجع:

أخليفة الرحمٰن إنّا معشر ... حنفاء نسجد بكرة وأصيلا
عرب نرى للّه في أموالنا ... حق الزكاة منزلاً تنزيلا
إنّ السعاة عصوك يوم أمرتهم ... وأتوا دواهي لو علمت وغولا
أخذو العريف فقطعوا حيزومه ... بالأصبحية قائماً مغلولا
حتى إذا لم يتركوا لعظامه ... لحماً ولا لفؤاده معقولا
جاءوا بصكهم وأحدب أسارت ... من السياط يراعة إجفيلا
أخذوا حمولته وأصبح قاعداً ... لا يستطيع عن الديار حويلا
كهداهد كسر الرماة جناحه ... يدعو بقارعة الطريق هديلا
أخليفة الرحمٰن إنّ عشيرتي ... أمسى سوامهم عزين[1] فلولا
قوم على الإسلام لما يتركوا ... ما عونهم ويضيعوا التهليلا

---

(١) عزين: شراذم متفرقة.

قطعوا اليمامة يطردون كأنهم قوم أصابوا ظالمين قتيلا
يحدون حدباً مائلاً أشرافها في كل مقربة يدعن رعيلا
وأتاهم يحيى فشدّ عليهم عقداً يراه المسلمون ثقيلا
كتبا تركن غنيهم ذا عيلة بعد الغنى وفقيرهم مهزولا
أنت الخليفة عدله ونواله وإذا أردت لظالم تنكيلا
فارفع مظالم عيّلت أبناءنا عنا وانقذ شلونا المأكولا
فنرى عطية ذاك إن أعطيته من ربنا فضلاً ومنك جزيلا
إنّ الذين أمرتهم أن يعدلوا لم يفعلوا مما أمرت فتيلا
أخذوا الكرام من العشار ظلامة منا ويكتب للأمير أفيلا

وقد ذهب دارسو تأريخ الأمة الإسلامية إلى أنّ أهمّ المعاول تخريباً لصرحها هو معول النعرة القبلية، التي بدأت في صفين، وكانت من أوجع جرائرها خسارة المسلمين في بلاط الشهداء. ويقدّم النصّ التالي شيئاً من ضرر ذلك المعول الهدام، فيما ينقله ابن عبد ربّه بعقده، المجلد الأول ص ١٤٨:

قال أبو عبيدة: بُنِيَ دكان بسجستان، بنته بكر بن وائل، فهدمته تميم، ثم بنته تميم فهدمته بكر، فتواقعوا في ذلك أربع وقعات، فقال ابن حلزة اليشكري في ذلك:

قرّبي يا خلي ويحك درعي لقحت حربنا وحرب تميم
إخوة قرشوا الذنوب علينا في حديث من دهرهم وقديم
طلبوا صلحنا ولات أوانٍ إن ما يطلبون فوق النجوم

ولما استفاض الثراء، وجنح الناس إلى الترف، ووهنت رابطة الدين في القلوب شاع الرياء، وأصبح تسجيل مشاهده أمراً يتوصل به الشعراء إلى قلوب العلية للاستشفاع لهم والعطف عليهم، كما فعل أبو نواس في أبياته التالية التي بعثها من سجنه إلى الفضل بن الربيع وزير الخليفة العباسي ساخراً:

أنت يا ابن الربيع علمتني الخير وعوّدتنيه والخير عادة

فارعوى باطلي وراجعني الحلم وأحدثت عفةً وزهادة
لو تراني ذكرت بي الحسن البصري في حال نسكه أو قتادة
من خشوع أزينه بنحولٍ واصفرار مثل اصفرار الجرادة
التسابيح في ذراعي والمصحف في لبتي مكان القلادة
فإذا شئت أن ترى طرفة تعجب منها مليحة مستفادة
فادع بي لا عدمت تقويم مثلي فتأمل بعينك السجّادة
ترَ سيماً من الصلاة بوجهي توقن النفس أنها من عبادة
لو رآها بعض المرائين يوما لاشتراها بعدها للشهادة
ولقد طال ما شقيت ولكن أدركتني على يديك السعادة

ولقد كان خلع الأمين لأخيه المأمون من ولاية العهد بداية الضرام، الذي لم ينطفئ بعد في الدولة العباسية، ولما انتهى الأمين تلك النهاية الأليمة، تطلع الأمير الفنان الأسود إبراهيم بن المهدي إلى السُّدة، وتشبث بها أياماً، ثم سقط عنها فلم يغفل الشاعر الثائر «دعبل الخزاعي» عن أن يسجل تلك الحادثة بأسلوبه الساخر:

إن كان إبراهيم مضطلعاً بها فلتصلحن من بعده لمخارق
ولتصلحنْ من بعد ذاك لزلزل ولتصلحن من بعده للمارق
أنّى يكون ولا يكون ولم يكن لينال ذلك فاسق عن فاسق

ومن يقرأ أخباريات الأدب يعرف أنّ دعبل هو القائل: (لقد حملت خشبة صلبي على كتفي أربعين عاماً؛ فلم أجد من يصلبني) فلا غرو أن نرى ذلك المغامر يصرخ في وجه المأمون بهذه الأبيات معبراً عن حنق النصير، الذي كان بالأمس في جيش طاهر بن الحسين، وكان طاهر مولى لخزاعة، قبل أن يكون القائد الأول للجيش العباسي، وفاتح أبواب بغداد للمأمون، بعد إسقاط أخيه:

ويسومني المأمون خطة عارف أو ما رأى بالأمس رأس محمد
توفي على رأس الخلائق مثلما توفي الجبال على رؤوس القردد
ونحلُّ في أكناف كلّ ممنع حتى يذلل شاهقاً لم يصعد

إنّي من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرّفوك بمقعد
إن الترات مسهدّ طلابها فاكفف مذاقك عن لعاب الأسود

وعلى كثرة النصوص الشعرية المصورة للرقي المدني، والإبداع الحضاري، الذي بلغته بغداد في منسوجاتها الشفافة التي تنمُّ عن بدن لابسها، والمجوهرات والآنية والأشربة والطيوب، إلى آخر مظاهر الترف الذي غرقت فيه المدينة، وانتحرت به قبل أن تذبحها شفرة هولاكو. أقول: على كثرة النصوص في ذلك إلا أن ابن الرومي يبقى وحده الأقدر على تصوير الواقع، ونقله في شعره؛ معرضاً بارزاً للعيون والآذان:

أتراني دون الألى بلغوا الآ مال من شرطة ومن كتّاب
وتجار مثل البهائم فازوا بالمنى في النفوس والأحباب
خير ما فيهم ولا خير فيهم أنهم غير آثمي المغتاب
ويظلّون في المناعم واللذات بين الكواعب الأتراب
لابساتٍ من الشفوف لبوسا كالهواء الرقيق أو كالسراب
ومن الجوهر المضيء سناه شعلاً يلتهبن أيّ التهاب
شرط خولوا عقائل بيضا لا بأحسابهم بل الأكساب
أصبحوا ذاهلين عن شجن النا س وإن كان حبلهم ذا اضطراب
في أمور وفي خمور وسمّور وفي قاقم وفي سنجاب
وتهاويل غير ذاك من الرقم ومن سندس ومن زرياب
في حبير منمنم وعبير وصحان فسيحة ورحاب
في ميادين يخترقن بساتين تمس الرؤوس بالأهداب
عندهم كل ما اشتهوه من الآلات والأشربات والأشواب
والطروقات والمراكب والولدان مثل الشوادن الأسراب
واليلنجوج في المجامر والندّ ترى نشره كمثل الضباب
والغوالي وعنبر الهند والمسك على الهام واللحى كالخضاب

ولديهم وذائل الفضض البيض تباهي سبائك الأذهاب
لم أكن دون مالكي هذه الأملاك لو أنصف الزمان المحابي

وقد كان القرن الخامس الهجري متلفعاً بنذر الدمار لكبريات الحواضر الإسلامية في المغرب، فالدولة الأندلسية متداعية الأوصال، وإن كبرت فيها ألقاب الحاكمين وتكاثرت في أرجائها الرايات، والشمال الأفريقي عامة وتونس خاصة وهو كرسيّ الدولة الباديسية التي تجنح شمسها إلى الاحتضار، وما أن أغار المغيرون الهمج على القيروان والمهدية، حتى استبان فراغ رهيب يخيّم على تلك الأصقاع، وكان في النازحين من القيروان إلى صقلية شاعرا الغرب الإفريقي والأندلسي في وقتهما بلا منازع: الحسن بن رشيق القيراوني، ومحمد بن شرف القيرواني، وقد نزحا معاً إلى صقلية، ولما اقترح ابن شرف على زميله ابن رشيق الالتحاق بالأندلس، كان الواقع السياسي الكئيب فيها صارفاً لابن رشيق، ملخصاً ذلك الواقع السياسي الكئيب في بيتيه:

ممّا يزهدني في أرض أندلس أسماء مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهرّ يحكي انتفاخاً صولة الأسد

ويتفرد ابن شرف بنصّ جريح دامع، يروي مأساة القيروانيين في مدينتهم، وانتهاب الأعراب لهم في الصحراء، وهوانهم على إخوانهم في صقلية والأندلس:

آه للقيروان أنّه شجو من فؤاد بجاحم الحزن يصلى
حين عادت بها الديار قبورا بل أقول الديار منهنّ أخلى
ثم لا شمعة سوى أنجم تخطو على أفقها نواعس كسلى
بعد زهر الشماع توقّد وقدا ومتان الذبال تفتل فتلا
والوجوه الحسان أشرق منهنّ ويفضلنهن معنى وشكلا
بعد يوم كأنما حشر الخلق حفاةً به عواري رجلى
ولهم زحمة هنالك تحكي زحمة الحشر والصحائف تتلى
وعجيج وضجة كعجيج الخلق يبكون والسرائر تبلى

من أيامي وراءهن يتامى ... ملئوا حسرة وشجواً وثكلا
وحصانٍ كأنها الشمس حسنا ... كنفتها الأطمار نجلاء كحلا
فات كرسّها الجلاء فأضحت ... في ثياب الجلاء للناس تجلى
جار فيهم زمانهم وأولو الأمر ... ففروا يرجون في الأرض عدلا
تركوا الربع والأثاث وما ... يثقل لا حامل من الناس ثقلا
لبسوا الباليات من خشن الصوف ... وعاد النبيه في الناس غفلا
نادباتٍ عفراء تسعد سُعدى ... وسعاد تجيب بالنوح جملا
ليس منهنّ من يودّع جارا ... لا، ولا حرمة تشيع أهلا
كلهنّ اعتدى الفراق عليه ... فاقتحمن الجلاء حفلاً فحفلا
فإذا القفر ضمّهم فوّق الدهر ... لهم غير ذلك النبل نبلا
من ثعابين حاملين نيوبا ... عصلاً ذابلاً ونبلاً ونصلا
وشياطين رامحين يلاقون ... بجوف الفلا مساكين عزلا
فتعرّي الظهور تعتل عتلا ... وتشق البطون تغسل غسلا
فإذا مطمع أصابوه في أحشاء ... قوم غمّوا بذلك كلا
فإذا أنجت المقادير منهم ... راحلاً بالخلاص يحمل رحلا
لقي الهون والمذلة أنى ... كان في سائر البلاد وحلا
ليس يلقى إلا امرءاً مستطيلا ... طالباً عنده حقوداً وذحلا
فترى أشرف البرية نفسا ... ناكساً رأسه يلاطف نذلا
فهمو كلما نبت بهم أرض ... مطايا الفراق خيلاً ورجلا
مزقوا في البلاد شرقاً وغربا ... يسكبون الدموع هطلاً ووبلا
لا يلاقي النسيب منهم نسيبا ... يتعزى به ولا الخلّ خلا

وهذا هو الشاعر الفاضل محمد البوصيري، المتوفى أواخر القرن السابع الهجري، يعرض صورة موجعة لواقع الحال في مصر. وإذا كان التأريخ يروي استحياء فرعون لبنات إسرائيل، وقتل الأبناء، وتسخير الآلاف لعمارة الأهرام.

ويروي سلخ الرومان لأبشار الآلاف المعذبة للدخول في عقيدة قسراً، والأداء للإتاوات ظلماً، فإنَّ الإسلام الذي أنقذهم، وأعاد لهم كرامتهم الإنسانية، وصل الأمر بولاته إلى التسيب والانفلات، فلا أقول: تسامحوا مع اليهود والنصارى، فما ذلك بالتسامح المحمود، ولكنهم استسلموا لهم، وأطلقوا أيديهم على رقاب العباد المسلمين، يعبثون بالأموال والدماء، كما يسجله النص ملفتاً النظر إلى أن النصّ، الشعري هنا لا يسجل الواقعة كحادثة فردية ولا حتى كخطأ جماعي، وإنما هي ظاهرة منتشرة مكرورة ومستمرة في أكثر من قطر، ولأكثر من قرن:

فقدت طوائف المستخدمينا ... فلم أر فيهم رجلاً أمينا
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم ... مع التجريب من عمري سنينا
فكتّاب الشمال هم جميعا ... فلا صحبت شمالهم اليمينا
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا ... بهم فكأنما سرقوا العيونا
ولولا ذاك ما لبسوا حريرا ... ولا شربوا خمور الأندرينا
ولا ربّوا من المردان مردا ... كأغصان يقمن وينحنينا
وقد طلعت لبعضهم ذقون ... ولكن بعد ما نتفوا ذقونا
وأقلام الجماعة جائلات ... كأسياف بأيدي لاعبينا
وقد ساوقتهم حرفاً بحرف ... وكل اسم تخطوا منه سينا
أمولاي الوزير غفلت عمّا ... يتمُّ من اللئام الكاتبينا
تنسّك معشر منهم وعدُّوا ... من الزهّاد والمتورعينا
وقيل لهم دعاء مستجاب ... وقد ملأوا من السحت البطونا
تفقهت القضاة فخان كلٌّ ... أمانته وسمّوه الأمينا
وما أخشى على أموال مصر ... سوى من معشر يتأولونا
يقول المسلمون لنا حقوق ... بها ولنحن أولى الآخذينا
وقال القبط نحن ملوك مصر ... وإنّ سواهم هم غاصبونا
وحللت اليهود بحفظ سبت ... لهم مال الطوائف أجمعينا

وما ابن قطيبة إلا شريك لهم في كل ما يتخطفونا
أغار على قرى فاقوس منه بجور يمنع النوم الجفونا
وصيرّ عينها حملا ولكن لمنزلة وغلّتها خزينا
وأصبح شغله تحصيل تبرٍ وكانت راؤه من قبل نونا
وقدّمه الذين لهم وصول فتمّ نقصه صلة اللذينا
وفي دار الوكالة أي نهب فليتك لو نهبت الناهبينا
فقام بها يهودي خبيث يسوم المسلمين أذى وهونا
إذا ألقى بها موسى عصاه تلقفت القوافل والسفينا
وشاهدهم إذا اتهموا يؤدي عن الكلّ الشهادة واليمينا

كان ذلك الذي ذكره البوصيري في القرن السابع الهجري، وتفاقم الداء في جسد الأمة قرناً فقرناً. وإذا كانت الدولة العثمانية أكبر امبراطورية إسلامية، بسطت نفوذها على ثلاث قارات، واستمر لها الأمر أكثر من خمسة قرون، وبرز في سلاطينها رجال ميامين إلا أن أخطاءً كبيرة ألمت بإدارتها، وجراحاً خطيرة تورمت بجسد الأمة من جراء اهمالها.

وإذا كان السلاطين يشتركون مع غيرهم من الحكام في الجهل بأساسيات الإسلام في الحكم، كالشورى، إلا أنهم ينفردون بأخطاء أخرى، من أبرزها: إطلاق نفوذ الحريم في مقاليد الأمر، وتمكين الجهلة النفعيين والخونة المندّسين من أمور العباد، والجهل بحركة التاريخ من حولهم في أوروبا وغيرها. (وأتوقراطية) مفهومهم للحكم، الذي يكاد يجعل من السلطان إلهاً معبوداً في الأرض. ويكفي أنَّ شاعراً محبّاً لآل عثمان كل الحب، كشوقي، لم يملك حين طلع النهار بخلع السلطان وإعلان الدستور سنة ١٩٠٨م إلا أن يلوم السلطان المخلوع، وإن كان يكنّ له الكثير من الإجلال:

عبد الحميد حساب مثـ ـلك في يد الملك الغفور
سُدتَ الثلاثين الطوا ل ولسنَ بالحكم القصير
تنهى وتأمر ما بدا لك في الكبير وفي الصغّير
لا تستشير وفي الحمى عدد الكواكب من مشير

كم سبحوا لك لدى الروا ح وألّهوك لدى البكور
ورأيتهم لك سُجّدا كسجود موسى في الحضور

وجاء فتيان سلانيك من أحداث الأتراك، يظنّون أنّه لن يصلح حال الوطن والأمة إلا بالابتعاد عن الإسلام، وإلغاء الخلافة، وعَلمنة الدولة وابتعاث القومية الطورانية، وكانت النتيجة تفكك الإمبراطورية، وهزيمة بلادهم أمام أعدائها. وبدلاً من حالهم يوم كانوا سادة العالم الإسلامي أصبحوا ذيولاً محقورة لأوروبا، وصدقت موعظة العبد الصالح سعيد النورسي، حين قال للشيخ بخيت:

(إنّ أوروبا اليوم حاملة بالإسلام، وستلده يوماً ما، والدولة العثمانية حاملة بالنهج الأوروبي، وستلده يوماً ما).

واستشرافه الثاقب للمستقبل حين قال محذراً:

(كما أنّه لا يناسب الشيخ الوقور أن يلبس لباس الراقصين؛ فكذلك لا يناسب إستانبول أن تلبس أخلاق أوروبا).

وفي فاجعة إلغاء الخلافة الإسلامية، أرسل شوقي زفرته الجريحة، يخاطب الخلافة المؤودة، والغازي المغرور، والأمة الثكلى الجاهلة، نقتطف منها:

ضجّت عليكِ مآذن ومنابر وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهة ومصر حزينة تبكي عليك بمدمع سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس أمحا من الأرض الخلافة ماح
إن الذين أست جراحك حربهم قتلتك سلمهمو بغير جراح
هتكوا بأيديهم ملاءة فخرهم مؤشية بمواهب الفتاح
نزعوا عن الأعناق خير قلادة ونضوا عن الأعطاف خير وشاح
حسب أتى طول الليالي دونه قد طاح بين عشية وصباح
وعلاقة فصمت عرى أسبابها كانت أبر علائق الأرواح
نظمت صفوف المسلمين وخطوهم في كل غدوة جمعة ورواح
بكت الصلاة وتلك فتنة عابث بالشرع عربيد القضاء وقاح

أفتى خزعبلة وقال ضلالة ... وأتى بكفر في البلاد بواح
إنَّ الذين جرى عليهم فقهه ... خلقوا لفقه كتيبة وسلاح
أدّوا إلى الغازي النصيحة ينتصح ... إنّ الجواد يثوب بعد جماح
إن الغرور سقى الرئيس براحه ... كيف احتيالك في صريع الراح
نقل الشرائع والعقائد والقرى ... والناس نقل كتائب في الساح
تركته كالشبح المؤله أمةٌ ... لم تسل بعد عبادة الأشباح
هم أطلقوا يده كقيصر فيهم ... حتى تناول كل غير مباح
غرّته طاعات الجموع ودولة ... وجد السواد لها هوى المرتاح
وإذا أخذت المجد من أمية ... لم تعط غير سرابه اللمّاح
فلتسمعنَّ بكلّ أرضٍ داعيا ... يدعو إلى «الكذاب» أو لسجاح
ولتشهدن بكل أرض فتنة ... فيها يباع الدين بيع سماح
يُفتّى على ذهب المعزّ وسيفه ... وهوى النفوس وحقدها الملحاح

تلك كانت بعض غلطات فتيان الأتراك، وعلى إثرهم جاءت غلطات فتيان العرب، فأرادوا إحلال القومية محل الإسلام، والتبعية الأوروبية محل الأصالة العربية، واستمرت الهزيمة الفكرية والروحية، حتى إن كثيراً من ساسة العالم الإسلامي كانوا يخجلون من انتسابهم إليه، كما يسجّله النصّان التاليان، لمجاهد اليمن وشاعرها: محمد محمود الزبيري، يخاطب في الأول شيخ الإسلام بباكستان (شبير):

العالم اليوم بأيدي عصبة ... لا عقل يهديها ولا معتقد
تؤله القوة والمال ولا ... ترى إلهاً غير هذا يعبد
(شبير) أنت منقذي من محنتي ... وأنت شيخ الملة الممجد
إن كان ذنبي أنني مجاهد ... داع فأنت الحكم المجتهد
قد طورد الإسلام إلا ههنا ... فهل تراه من هنا سيطرد؟!

ويخاطب في الثاني الأستاذ عبد الوهاب عزام، من قصيدة طويلة رائعة، هي من روائعه الباكستانية:

انـظـر إلـى الإسـلام مـا بـالـه أجـمـعـت الـدنـيـا عـلـى حـربـه
قـاطـعـه حـتـى حـواريـه وأجـفـلـوا عـنـه وعـن قـربـه
عـلامَ هـذا الـخـوف مـن نـوره وفـيـمَ هـذا الـضـيـق مـن رحـبـه؟
سـادت عـلـى الـدنـيـا بـسـلـطـانـه وراعـت الأعـداء مـن عـضـبـه
وجـاء عـهـد جـاهـل مـا انـطـوى مـن مـجـده الـمـاضـي ومـن غـيـبـه
يـأخـذ مـن أعـدائـه رأيـه فـي سـعـيـه الأعـمـى وفـي دربـه
ويـقـبـل الـزعـم بـأن الـدوا فـي كـفـه يـفـضـي إلـى رحـبـه
يـخـجـل مـن روح بـه أعـرقـت كـأنـمـا يـخـجـل مـن ذنـبـه
وانـظـر إلـى الأوطـان مـنـكـوبـة تـخـبـط فـي الـلـيـل وفـي رعـبـه
فـي كـل أرض وطـن مـوثـق يـعـيـش فـي الـقـيـد وفـي كـربـه
قـد عـقـه الـخـارج مـن صـلـبـه وخـانـه الـنـابـت مـن تـربـه
قـد شـاركـوا الـطـاعـم مـن لـحـمـه وسـاعـدوا الـغـاصـب فـي غـصـبـه

وما كان للموعظة أن تنفذ إلى عقول المغرورين، وقلوب الخاطئين؛ حتى تتابعت القوارع وتوالت الهزائم، وكان أكبرها هزيمة ثلاث دول عربية أمام إسرائيل سنة ١٩٦٧م، وكان لتلك القارعة الكبرى أن أضاءت أمام الجميع مواطن الخطأ، وبواعث الداء، إلا أن الكثيرين من ضحايا التغريب عادوا يعزفون على وتر الدعوة للاستسلام، وقبول الأمر الواقع. وأقرب النصوص الشعرية لذلك اللون أبيات لكمال عبد الحليم تقول:

كـيـف تـدعـونـي إلـى رقـصـتـنـا أنـا لا أمـلـك سـاقـاً ثـانـيـة؟
أفـلا تـذكـر مـن قـصـتـنـا هـذه الـسـاق وحـربـاً دامـيـة

* * *

يـوم عـاشـت فـي سـمـاء الـقـاهـرة وسـمـائـي وشـبـابـي طـائـرة
لـم أفـق إلا عـلـى عـكـازة ودمـوع كـالـيـتـامـى حـائـرة

* * *

كـيـف لا تـذكـر آثـام دجـىً قـد لـبـسـنـاهـا طـويـلاً فـي نـهـاد

وصراخاً يتلوى مزعجا   وعيوناً مفعمات بالحداد
وشظايا أغرقتنا في دمٍ   وأنين وحطام ورماد
ودموعاً لم نطق نيرانها   فسكبناها على هذا السواد

* * *

لم يكن يخفق في جوف الدجى   غير أضواء تعالت كاشفة
تبعث الحيرة في حيرتها   والملايين توارت طائفة
إنني أحمل في عكازتي   ذكريات كالشظايا جارفة
إنني أسمع في داناتها   لعنات من بقايا العاصفة
أين ساقي أين غاصت قدمي   كيف أنسَى أن ساقي زائفة؟

* * *

رقصة الموت سئمناها معا   وذَوى الجسم على ألحانها
وسكبت في خطاها أدمعا   وفقدت الساق في ميدانها

* * *

كيف تدعوني إلى رقصتنا   أنا لا أملك ساقاً ثانية؟
سكب الماضي على قصتنا   لحنه المرَّ وحرباً دامية

وكان من أسرع الأقلام رداً على تلك الدعوة في الصحف المصرية، قلم المؤرخ الإسلامي، والشاعر، والكاتب المسرحي الأصيل: علي أحمد باكثير:

لست أدعوك إلى رقصتنا   نحن لا ندعو إليها الضعفاء
أنت لا تذكر من قصتّنا   يوم كنا نملأ الدنيا ضياء
لا ولا بعينك يوم اتحدت   كتلة السوفيت والغرب علينا
ساقتا الرجس إلى محرابنا   بفلسطين ليغزو عنصرينا

* * *

ثم يبني إمبراطورية   من ربى النيل إلى أعلى الفرات
حلم للرجس ما أهوله   إن بقينا في سبات وشتات

* * *

كيف ادعوك إلى رقصتنا رقصة الأبطال للثأر المقدس؟
والذي يعنيك من رقصتنا هو أن نلعق بلوانا ونيأس

* * *

نقبل الذل قبول الذاعنينا ونشيع اليأس فينا والأنينا
لم لا؟ إن سلام العالمينا سوف يودي أن وثبنا ثائرينا
أيها الهائم في وادي الخيال لم تضع ساقك بل ضاع وجودك!!
تتغنى اليوم بالسلم المحال شدّ ما يدعو إلى الموت نشيدك

* * *

لست أدعوك إلى رقصتنا رقصة الموت إلى وادي الحياة
رقصة تفضل في شرعتنا وقفة الخاشع في قدس الصلاة
أيها الباكي على ساقك مهلك قبل أن تقطع كانت زائفة
أنا أيضاً تلفت ساقي مثلك غير أني لست أبكي التالفة

* * *

في سبيل الله من أجل بلادي جدت بالأولى وبالأخرى أجود
دون أن أفسد بالمنّ جهادي أنا للّه... وللّه أعود

* * *

ليت لي مليون ساق أيدة أنبري رقصاً بها في المعمعة
ثم لا تسلم منها واحدة لترى نعشي والنصر معه

(ب) إضاءته للشاعر

قال الشافعي تعريفاً للشعر حين عوتب فيه: هو كلام حسنه حسنٌ، وقبيحه قبيح. وإلى هذا التعريف الصائب البسيط للكلام الحسن (الشعر) نضيف أنّه يحلو أكثر ما يحلو، ويعلو أكثر ما يعلو حين يصفو للبوح الداخلي، ويتمحّض للوجدانية الذاتية، هنالك يكون الشعر ذوب قلب، وعصير روح، ينفذ إلى الشغاف، ويصهر المبدع، والمتلقي في بوتقته المتوهجة بإشعاع الفنية. ومن ذا الذي يسمع ذا القروح

في تغريبته المبعدة، وبكائيته الأخيرة، ومهمته الثأرية العصبية، يصف حالة مع رفيقة وقد فارقا درب حلب ميممين شمالاً شطر أنقرة، ثم لا يتعاطف معه؟!

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا
فقلت له: لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

ويسمع شاعراً ماجناً، وقد لذعته جمرة الندامة، وتقشعت عنه سحب الغواية؛ فاستبان الطريق بعد طول عماية كأبي نواس، ثم لا يشعر أنه يلتقي معه في حروفه المجمرة، وكلماته الملتهبة:

أيّةُ نار قدح القادح وأيّ جدٍّ بلغ المازح
لله دَرُّ الشيب من واعظ وناصح لو سُمِعَ الناصح

وسمع جبّار الطموح، مارد الإرادة كأبي الطيب، وقد أنهكه التطواف، وأرهقته الصداقات والخصومات، ووقف في الأخير على طبيعة الأيام، وحصيلة التجربة، ثم لا ينفتح له قلبه، ولا يتأوه معه بنفس آهته:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأنه ما عنانا
وتولّوا بغصّة كلهم منـ ـه وإن سرّ بعضهم أحيانا

تحت قنديل مثل هذه النصوص المتجمرة الحروق، الملتهبة المشاعر؛ نتتبع إضاءة النصّ الشعري للذات الشاعرة من خمس زوايا:

(١) الحالة النفسيَّة

يصرّح القرآن الكريم: أن وجود الإنسان حياتيًا كان لحكمة الابتلاء:

هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] وللابتلاء صنوفه التي لا تنتهي، وصوره التي لا تحصر. وأهمهّما الابتلاء بالموت وساعته المكروبة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الإنبياء: ٣٥] وهي الساعة التي يؤمن فيها الكافر، ويتوب فيها الفاجر، والابتلاء بالرزق عطاءً أو حرماناً. وفي الحديث: (إنّ من عبادي من لو أغنيته لكفر، ومن لو أفقرته لكفر)[١].

وما أكثر ما يتحدث الإنسان عامة، والشاعر خاصة، مغالياً في مدح نفسه،

(١) ضعيف الجامع (١/ ٧٥)، والحديث في الاتحافات السيئة (٢٧١).

ومثنياً عليها بما هي أهله، وبما ليست من أهله غير أن حقيقة الحالة النفسية للذات الشاعرة تتجلى عند هذين المأزقين: ساعة الكرب (الاحتضار) أعاننا الله على تجاوزها بخير، وضنك الرزق، وسنعرض هنا نماذج لشعراء تفاوت حالهم عند هذين المأزقين، أول هذه النماذج موقف شاعرين أسيرين قبيل القتل، أولهما ارتفع به الإيمان بالجزاء الأخروي إلى السماوات العلى هو: خبيب بن عدي؛ فكانت غاياته الذروة السامقة والأفق الرفيع:

ولست أبالي حين أقتل مسلما — على أيّ جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله إن يشأ — يبارك على أوصال شلو ممزع

وعبد يغوث الحارثي، وقد كان جاهلياً، ولا نلومه على جاهليته، لأنّه كان من أهل الفترة، وإنما نريد بهذا فقط كيف يرتقي الإيمان بصاحبه. وكيف تهبط هموم غير المؤمن إلى ما لا مزيد عليه من التحتيّة والضِّعة:

أحقا عباد اللّه أن لست سامعا — غناء الرعاء المعزبين المتاليا

وتضحك مني شيخة عبشمية — كأن لم ترَ قبلي أسيراً يمانيا

النموذج الثاني: شاعر جاهلي كريم النفس هو: عبيد بن الأبرص، لخَّص تجربته مع الآخرين في القناعة التالية:

من يسأل الناس يحرموه — وسائل اللّه لا يخيب

في حين نرى الحطيئة قد أدرك الإسلام، يوصي قبل موته فيما نقله ابن قتيبة ـ السائلين بإلحاف ـ السؤال إلى آخر وصيته الجاهلية الرجيمة.

ثالثهما: شاعران إسلاميان هما: ذو الرمة، والفرزدق، أولهما التقى الموت مخبتاً ضارعاً، مردداً بيته الأخير:

يا قابض الروح من نفسي إذا احتضرت — وغافر الذنب زحزحني عن النار

والثاني ذكَّرته أمةُ ربِّه ساعة الاحتضار، فكافأها بإلغاء ما كان قد أوصى به من عتقها.

ويتفوّق النص الشعري كما أسلفنا على قلم المؤرخ برسمه لخوالج النفس التي لا تسجلها ريشةِ الرسام، ولا محبرة مسجل الأحداث، فهذا هو البطل الشهيد عبد الله بن رواحة، يزجر نفسه يوم مؤتة، وقد أنس منها تراجعاً وإشفاقاً من الموت:

أقسمت يا نفسي لتنزلنه طائعة أو لتكرهنه
ما لي أراك تكرهين الجنة

ومن الناس أبطال وفيهم جبناء، والبيتان التاليان يلخصان فلسفة كل منهما. يقول البطل مفلسفاً بطولته:

تأخرت استبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياةً مثل أن أتقدّما

ويقول الهيابة المشفق مفلسفاً جبنه:

ألا لا تلمني إن فررت فإنني أخاف على فخارتي أن تحطما

وهذان رجلان ابتليا في رزقهما، فكان أحدهما عظيماً حقاً في قناعته وشممه قولاً وفعلاً، نظرية وتطبيقاً هو الإمام الشافعي:

أمطري لؤلؤاً جبال سرنديب وفيضي آبار تكرور تبرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتا وإذا مت لست أعدم قبرا
همتي همة الملوك ونفسي نفس حرٌ ترى المذلة كفرا

بينما المتنبي وقد ملأ الدنيا إعجاباً بنفسه، وإعلاءً لمكانته:

وفؤادي من الملوك وإن كان لساني يرى من الشعراء

ثم لا تملك الحقيقة الخبيئة في نفسه، إلا أن تبدي صفحتها في أستكانته أمام الذي كان ينعته بالأسود المخصي؛ طالباً منه الحثالة ليشربها:

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله فإنّي أغني منذ حين وتشرب

(٢) المستوى العقلي

حين يحتكم دارس النص إلى النصّ وحده، دون التفات إلى معلومات سابقة؛ يظفر بإشعاعات كاشفة للكثير من خبايا الشاعر، شاهدة بما تتمتع به تلك الذات من قوى روحية أو عقلية، أو ما يفوتها من تلك القوى بهذه الطريقة. نرى مثلاً: أنّ أقوى شاعرين في الحظّ الكبير من العَقل الراجح، والمنطق السديد في شعراء الجاهلية هما: زهير والنابغة؛ إذ كان زهير كثيراً ما يجود بالنصوص الفيّاضة بالمعاني الواضحة الفاضلة في غرضها، بحيث لا يملك قارئ نصوصه إلا أن

يعجب بمنطقه وسداد حكمته، وكثيراً ما أعجب الفاروق بذلك الشاعر المزني مستشهداً بأقواله من مثل:

فإنَّ الحقّ مقطعه ثلاث ... يمين أو جلاء أو نفار

ومن مثل:

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ومن مثل:

وكائن ترى من صامت لك معجب ... زيادته أو نقصه في التكلم

وكلها في غاية الإصابة التعبيرية عن قضايا الحياة، ودلالة المظاهر على الخبايا. أمّا النابغة وقد كان نديم النعمان حيناً، ثم حدثت بينهما جفوة، ولجأ النابغة إلى ملوك غسان، حتى آنس من صاحبه استعداداً للعفو، وإمكانية للتصالح؛ عاد إليه معتذراً بأفضل أسلوب، وأحبّ اعتذار، وما دلَّ على عقل الرجل، وحسن كياسته، مثل وقوعه في مأزق يتطلب سداد الجنان، وروعة البيان، وهو الأمر الذي توفر للنابغة، هو ذا يبدأ تسلله إلى قلب النعمان وطول بأسه:

نبئت أنّ أبا قابوس أوعدني ... ولا قرار على زأر من الأسد

ثم يشفع ذلك بتصوير مقدرة النعمان على ملاحقته، والإحاطة به، والتغلب عليه:

فإنك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ويعقب بعد ذلك بتأكيد الولاء بالقسم:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب

أما أعقل شاعرين في الصدر الإسلامي فيما يبدو لي والله أعلم، فأبو عقيل لبيد بن ربيعة، والنابغة الجعدي. وبحسب لبيد أن يقول النبي ﷺ في كلمته: «أنها أصدق كلمة قالها شاعر»[1]:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وبحسبه أن يكون البيت الوحيد الذي قاله بعد إسلامه:

---

(١) البخاري (٣/ ٥٢) كتاب مناقب الأنصار، باب أيام الجهلية، حديث (٣٨٤١).

مـا عـاتـب الـحـرّ الـكَـريـم كـنـفـسـه   والـمـرء يـصـلـحـه الـجـلـيـس الـصـالـح

له من السنّة النبويّة حديثان يصدقانه. فمما يؤيد الشطر الأول: «إذا أحبّ الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه»[1] ويؤيد الثاني: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»[2].

ويظهر أن لبيد كان من أصحاب الفطرة المحتفظة بنقائها، في ليل الجاهلية الأليل، فهو القائل قبل دخوله في الإسلام:

لـعـمـرك مـا تـدري الـضـوارب بـالـحـصـى   ولا زاجـرات الـطـيـر مـا الـلّـه صـانـع

ولأبي عقيل محامد منها: جوده على المعوزين حين يستكلب الشتاء بكل ما في يده، الأمر الذي يشهد بنبل أخلاقه وعلو مروءته، كما أنّ له مع معاوية خبراً ظريفاً يشهد بحسن كياسته. أمّا النابغة الجعدي؛ فيكفيك من خبره أنه وهو الذي قطع ثمانين عاماً في الجاهلية من عمره، محتفظاً بعذرية فطرته، فلم يسجد لصنم، ولم يأت فاحشة، ولم يشرب خمراً حتى أسلم، وهداه الله إلى دينه القويم. ويكفيك منه أنه القائل بين يدي رسول الله ﷺ والحائز لدعوته المباركة: «لا يفضض الله فاك»[3].

أتينا رسول اللّه إذ جاء بالهدى   ويـتـلـو كـتـابـاً كـالـمـجـرة نـيِّـرا

بـلـغـنـا الـسـمـاء مـجـدنـا وجـدودنـا   وإنّـا لـنـبـغـي فـوق ذلـك مـظـهـرا

يعني الجنة، وهو صاحب الكلمة الشعرية الموحدة:

الـحـمـد لـلّـه لا شـريـك لـه   مـن لـم يـقـلـهـا فـنـفـسـه ظـلـمـا

ومن تمام القول عن دلالة النص، في توضيح القوى العقلية لصاحبه؛ أن نشير إلى أنه ربما كان أطيش شاعرين جاهليين هما: طرفة، والأعشى «أعشى بكر». فمع أن طرفة ابن العشرين عاماً أكثر شعراء عصره خصباً في الموهبة، وانثيالاً بالقول البديع الآسر، إلا أن طيشه كان يطغى على تصرفاته، ويفسد عليه أمره، فقد أكرمه يوماً ملك الحيرة وأدناه من مجلسه، فلم يجد طرفة ما يقابل به ذلك الإكرام، إلا أن يتغزل في أخت الملك!!:

ألا بأبي الظبي الذي يبرق شنفاه   ولولا الملك القاعد قد ألثمني فاه

---

(١) اتحاف السادة المتقين (٩/ ٦١٤).   (٢) مسند أحمد (٢/ ٣٠٣).

(٣) دلائل النبوّة (٥/ ٢٥١).

ويقول الرواة: إن هذين البيتين كانا سبب أمره لعامله في البحرين؛ بقتل طرفة. وسجل الأخباريون أن ذلك الفتى المنكود، لم تخنه موهبته الشاعرة، حين شدّت عليه الحبال لصلبه وقتله، فحين رأى الأمير يطارد الكروان لاصطياده، وهي تفرُّ من بين يديه؛ قارن بين حاله البائس وحال ذلك الطير الطريد، فأنشأ:

لنا يوم وللكروان يوم   تطير البائسات ولا نطير
فأما يومهن فيوم نحس   تطاردهن بالحدب الصقور
وأمّا يومنا فنظل ركبا   وقوفاً ما نحلّ وما نسير

وقد عجب الجاحظ من مؤاتاة الشعر لطرفه، ولعبد يغوث الحارثي في مقام الموت، وحق له أن يعجب. أما أعشى بكر فقد طال به العمر، وتغلبت عليه الوقائع، وتملأ من لذائذ الحياة ما اتسع له جسمه وقواه. ولما جاء الإسلام، ورأى دخول الناس في دين الله أفواجاً؛ رغب في اللحاق بصاحب الدعوة محمد ﷺ والانضمام إلى حزبه، فعرض له في الطريق أبو سفيان قبل إسلامه، وأخبره بتحريم دين محمد للزنا والخمر، فقال الأعشى: أما الزنا فلا حاجة لي إليه. وأما الخمر ففي النفس منها شيء، فسأشرب بقية عامي، ثم أعود إلى محمد من قابل، وعاد فنفرت به ناقته، واندقّت رقبته، وكان قد أعدَّ رائعة في مدح المنقذ الأعظم محمد ﷺ والثناء على دينه، فحال الجريض دون القريض. يقول لناقته فيها:

متى ما تناخي عند باب ابن هاشم   تراحي وتلقي من فواضله يدا
نبيٌّ يرى ما لا يرون وذكره   أغار لعمري في البلاد وأنجدا

ولعلّ مما يزيد حديثنا عن انعكاس المستوى العقلي للشاعر في نصه، أن نذكر رجلين هما في مزاجهما النفسي على طرفي نقيض، فأحدهما وهو ابن الرومي أسير الانطوائية ولزيم الطِّيرة، وثانيهما وهو: أبو الحسن الجزار كثير الانبساط، ساخر من كل مخاطر الدنيا سخريته من أصحابها، ولقد توسع العقاد في عرض صور طيرة ابن الرومي في كثير من المجالات، فنكتفي هنا برأي ابن الرومي في ركوب متن دجلة، الذي يراه الناس متعة متمناة، ويراه هو خطراً محققاً:

وأما بلاء البحر عندي فإنّه   طواني على روع من الروح واقب

ولو ثاب عقلي لم أدع ذكر بعضه ... ولكنه من هوله غير ثائب
ولم لا؟ ولو ألقيت فيه بصخرة ... لوافيت منه القعر أول راسب
ولم أتعلم قطّ من ذي سباحة ... سوى الغوص والمضغوف غير مغالب
فأيسر إشفاقي من الماء أنني ... أمرّ به في الكوز مرّ المجانب
وأخشى الردى منه على كل شارب ... فكيف بأمنيه على نفس راكب؟
أظلّ إذا هزته ريح ولألأت ... له الشمس أمواجاً طوال الغوارب
كأنّي أرى فيهن فرسان بهمة ... يليحون نحوي بالسيوف القواضب
فإن قلت لي قد يركب اليم طاميا ... ودجلة عند اليمّ بعض المذانب
فلا عذر فيها لامرئ هاب مثلها ... وفي اللجة الخضراء عذر لهائب
فإن احتجاجي عنك ليس بنائم ... وإنّ بياني ليس عني بعازب
لدجلة خب ليس لليمّ إنها ... تراءى بحلم تحته جهل واثب
تطامن حتى تطمئن قلوبنا ... وتغضب من مزح الرياح اللواعب
وأجرافها رهن بكل خيانة ... وغدر ففيها كل عيب لعائب
يرانا ـ إذا هاجت بها الريح هيجة ... تزلزل في حوماتها بالقوارب ـ
نوائل من زلزالها نحو خسفها ... فلا خير في أوساطها والجوانب
زلازل موج في غمار زواخر ... وهدات حسف في شطوب خوارب

أمّا أبو الحسن الجزار الشاعر الساخر، فما أكثر نصوصه التي يسخر فيها من نفسه ومن خلطائه. وبحسبنا منه ما قاله على لسان السجادة، التي انطوت في بيته شهوراً وسنوات، دون أن يكرمها بالسجود، إلا ما كان مراءأة لضيف يحلّ به، كما أورده ابن شاكر في فوات الوفيات قال:

وأهدى إلى الصاحب كمال الدين ابن العديم سجادة خضراء. وكتب معها: المملوكة سجادة أبي الحسين الجزار:

أيها الصاحب الأجلّ كمال الد ... ين لا زلت ملجئاً للغريب
كن مجيري لأنني قد تغربـ ... ـت لكوني وقعت عند الأديب

أنـا سـجـادة سـئـمـت مـن الـطـ ـيّ فـهـب لـي نـشـراً فـنـشـرك طـيـبـي
طال شوقي إلى السجود وكم لي مـن شـروق فـي بـيـتـه وغـروب
وإذا مـا أتـاه ضـيـف أرانـي مـنـه عـنـد الـصـلاة وجـه مـريـب
لـم يـرقـه اخـضـرار لـونـي وهـيـهـا ت، ومـا راعـه اسـوداد الـذنـوب
فـأقـل عـثـرتـي ووفـرّ بـإحـسـا نـك مـن وجـهـك الـكـريـم نـصـيـبـي
واجبر اليوم كسر قلبي فلا زلـ ـت مـدى الـدهـر جـابـراً لـلـقـلـوب

(٣) المدى الخيالي

ربما ظنَّ البعض أنَّ التشبيه بأقسامه هو مَجْلى الخيال الوحيد، وإطاره المنفرد، وليس الأمر كذلك فلا يعدو التشبيه بصورة البسيطة مقارنة شيء بشيء، ويترقى به الأمر صوراً وتعبيراً؛ حتى يخرج بصاحبه إلى مجال أرحب، وفضاء أوسع؛ هو فضاء الخيال الذي يروعك بتخيلاته الفائتة لمدارك غير المبدعين. ويتسامى فعل الخيال حتى يتبوأ ذروة الرمز، ولنضرب أمثلة توضح ما ذكرناه في نماذج تطبيقية. فالمعلوم أن للتشبيه أغراضاً متعددة لأجلها وجد، وبسببها وضع، فالبوصيري حين يذهب في تقرير أن تشبيهات المشبهين لأخلاقه ﷺ لم تكن إلا من باب التقريب، وإلا فهو سماء لم تطاولها سماء:

إنـمـا شـبّـهـوا صـفـاتـك لـلـنـاس كـمـا مـثـل الـنـجـوم الـمـاءُ

ويأتي التشبيه للتحذير وللإطراء، يمثلهما قولي في إخٍ كريم أرهقه حرصه على نصرة الحق حتى أوهن جسمه، وأضعف قواه:

رأيـتـك كـالـشـمـعـة الـسـاهـرة تـحـاورهـا الـظـلـمـة الـداعـرة
فـرفـقـاً بـنـفـسـك يـا ثـورةً ويـا مـصـحـفـاً فـي يـد فـاجـرة

ومن التشبيه إلى التخيل، والفارق بينهما أن المتخيل يضفي على المادة المعنية نشاطاً ليس من طبيعتها.

وهو يشمل كل صور الاستعارة، ويتجاوزها إلى ما وراء ذلك؛ نفاذاً إلى بواطن المادة وابتكار تصورات عنها. ومن ذلك خلع صفات الحياة على

الجمادات، ومنه حسن تعليل أمر عارض للمادة المعنية. مثالاً على الأول قوله تعالى عن الجدار: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] ومثالاً على الثاني خاطرةٌ لي في وصف شمس كانون الثاني الكليلة، وانتشار الضباب في الآفاق؛ حتى لا تكاد ترى في نهاره شمساً، ولا في ليله بدراً ونجوماً، وهو ما يسميه البديعيون بحسن التعليل:

أسلمت خدّها المذهب للموج   بشطِّ الهنديِّ كي تستحما
واستطال الشمال ينثال شوقا   لاثماً بضّة الأسارير ادماء
أنهكتها مسيرة العام شوطا   جاوز القطب في الشمال وهما
وانثنت للجنوب تستأنف السير   وقد هدّها المسير المدّمى
فلها أن تقيل في يَخْتِها الهنديّ   وأن تستضيف بدراً ونجما
وليلفّ الضباب أفق جمادى   وإذا شاء فليلفّ الأصمّا[1]

ومن صور التخيل استبطان الشاعر للمشهد الجامد، خارجاً منه بصورة الحي، وإعراض حياته من سرور وحزن وانبساط وانطواء. وقد أكثر البحتري في سينيته من هذا المعنى، وهو القائل عن إيوان كسرى، بعد انحسار العزّ عنه:

يتضنّى من الكآبة أن يبدو   لعيني مصبح أو ممّسي

أما الرمز، وهو قليل في شعر الأقدمين، فمن أمثلته: قول حميد الهلالي رامزاً بالنخلة عن الحبيبة:

ألا يا نخلةً في ذات عرق عليك   ورحمةُ اللّه السلام

وسنتوسع آخر هذه الوقفة في الحديث عن الرمز، ولا شك في أن المقابلة بين موقف شاعرين فأكثر من موضوع واحد كافٍ لإظهار رحابة الخيال، وروعة التشبيه لدى كل منهما. يقول بشار في وصف سوداء:

أشبهك المسك وأشبهته   قائمة في لونه قاعدة
لا شكَّ إذ لونكما واحد   أنكما من طينة واحدة

(١) الأصمّ: رجب.

ويقول ابن الرومي في نفس الموضوع:

رب سوداء وهي بيضاء فعل حسد المسك عندها الكافور

مثل حبّ العيون يحسبه الناس سواداً وإنما هو نور

فأنت ترى إلحاح بشار على إثبات وحدة الطينة بين السوداء والمسك، على حين تجاوز ابن الرومي ذلك في بيته الثاني، بأنَّ سوداءه هي نور في حقيقتها كبؤبؤ العين الأسود.

ومشهد آخر يتناوله فحلان هما: ابن المعتز وابن رشيق القيرواني، وكلاهما مجيد، ولكن الآخر فات الأول في كثير من الالتفاتات والإضافات العالية، كما تراه في النصين:

يقول ابن المعتز:

كم من عناق لنا ومن قبل مختلسات حذار مرتقب

نقر العصافير وهي خائفة من النواطير يانع الرطب

ويقول ابن رشيق بعد ثنائه على ليلة الوصل:

خلونا بها ننفي القذا عن عيوننا بلؤلؤة مملوءة ذهباً سكبا

وملنا لتقبيل الثغور ولثمها كميل جناح الطير يلتقط الحبّا

نضيف إلى ما سبق تباري ثلاثة فرسان مجيدين في وصف روضةٍ؛ كان لكل منهم لوحتهم البديعة، وتعبيره الرائع، والفارق بينهم كما ستراه في نصوصهم أنّ أولهم وهو المنازي وصف وادياً مخضراً في صحراء قاحلة؛ كما ستراه في أول كلمة من بيته الأول:

(وقانا لفحة الرمضاء وادٍ): بينما صاحباه: ابن عبد ربّه والحمدوني وصفا روضة من رياض الأندلس، الواكفة السحب، المهتزة العشب.

يقول المنازي:

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ وسقاه مضاعف الغيث العميم

نـزلـنـا دوحـة فـحـنـى عـلـيـنـا حـنـوّ الـمـرضـعـات عـلى الـفـطـيـم
وأرشــفـنــا عــلــى ظـمـإ زلالا ألـذّ مـن الـنـدامـة لـلـنـديـم
يـراعـي الـشـمـس أنّـى قـابـلـتـه فـيـحـجـبـهـا ويـأذن لـلـنـسـيـم
تـروع حـصـاه حـالـيـة الـعـذارى فـتـلـمـس جـانـب الـعـقـد الـنـظـيـم

ويقول ابن عبد ربّه:

وروضـة عـقـدت أيـدي الـربـيـع بـهـا نـوراً بـنـورٍ وتـزويـجـاً بـتـزويـج
بـمـلـقـح مـن سـواريـهـا ومـلـقـحـة ونـاتـج مـن غـواديـهـا ومـنـتـوج
تـوشـحـت بـمـلاة غـيـر مـلـحـمـة مـن نـورهـا ورداء غـيـر مـنـسـوج
فـألـبـسـت حـلـل الـموشـى زهـرتـهـا وجـلـلـتـهـا بـأنـمـاط الـديـابـيـج

ويقول الحمدوني:

بـروضـة صـبـغـت أيـدي الـربـيـع لـهـا بـرودهـا وكـسـتـهـا وشـيـهـا عـدن
عاجت عليها مطايا الغيث مسبلة لـهـن فـي ضـحـكـات أدمـع هـتـن
كـأنـمـا الـبـيـن يـبـكـيـهـا ويـضـحـكـهـا وصـل حـبـاهـا بـه مـن بـعـده سـكـن
فـولّـدت صـفـراً أثـوابـهـا خـضـر أحـشـاؤهـن لأحـشـاء الـنـدى وطـن
من كل عسجدة في خدرها اكتتمت عـذراء فـي بـطـنـهـا الـيـاقـوت مكـتـمـن

ولا شك في أن تعاملك الهادئ مع النصوص سيقودك إلى إدراك فوارق الخيال لدى كل منهم، واهتمامه بتسليط الأضواء على جانب دون الجانب الذي عنى به صاحبه. وللعرب في شعرهم القديم تسابق في مجال التشبيه، يعرض فيه الشاعر سبقه الخيالي، وتفوقه التعبيري. فمن تشبيههم للماديّ بالمادي قول امرئ القيس في وصف وكر العقاب، وقد قالوا: إنه إذا مرض لا يشفى إلا بأكل أكباد صغار الطير. وقد جاء في ذلك بتشبيهين اثنين في بيت واحد:

كـأن قـلـوب الـطـيـر رطـبـاً يـابـسـا لدى وكرها العناب والحشف البالي

وحرص بشار على محاكاته؛ بالإتيان بتشبيهين في بيت واحد:

كـأن مـثـار الـنـقـع فـوق رؤوسـنـا وأسـيـافـنـا لـيـل تـهـاوى كـواكـبـه

وجاء المعري وهو الكفيف؛ ليرسم صوراً لم يقدر عليها المبصرون، يقول في وصف مروق النجم في السماء:

يسرع اللمح في احمراركما تسرع في اللمع مقلة الغضبان

ومن تشبيههم للمعنوي بالمادي والعكس؛ قول ابن مقبل في جمال بيته الشعري حين يتراءى للناس:

أغرَّ غريباً يمسح الناس وجهه كما تمسح الأيدي الجواد المشهرا

ومثل قولي:

منضرّ الوجه بإشراقةٍ كأنه من حسنه الفاتحة

ومن تشبيه المنظور بغير المنظور، قول بشارة الخوري:

ليل حريريّ النسيج كأنه شكوى الهوى وصبابة الملتاح

بعد هذا نخلص إلى الرمز، فإذا كان ابن الخطيم يشبه حبيبته بالشمس:

تبدّت كأن الشمس تحت قناعها بدا حاجب منه وضنّت بحاجب

فإن طرفة يرقى بذات المشهد من التشبيه إلى التصور، إذ يرى الجميلة في السماء (الشمس) وقد أعارت رداءها جميلته في الأرض:

ووجه كأن الشمس ألقت ردَاءها عليه نقيّ اللون لم يتخدّد

ثم يأتي «أبو الشيص» في العهد العباسي ليتحول بالشمس من التشبيه والتصور إلى الرمز، فيغدو هارون الرشيد هو شمس أبي الشيص في بيتيه الرامزين الباكيين لغروب الشمس في الشرق مدينة طوس، وهي شرق بغداد، وبها دفن هارون:

غربت بالمشرق الشمس فقل للعين تدمع
ما رأينا قطّ شمسا غربت من حيث تطلع

وسنرى كيف أن أمير شعراء العصر «أحمد شوقي» انتقل بذات المشهد «الشمس» الرامزة للزعيم الراحل، إلى مشهد أكثر إثارة ودرامية، فحين لحق زعيم مصر سعد زغلول بربّه بكته كبار اليراعات الشعرية، وكان من أبرزهم أخطل لبنان:

قالوا دهت مصر دهياء فقلت لهم   هل غيض النيل أم هل زلزل الهرم
قالوا أشدّ وأدهى قلت ويحكم   إذاً لقد مات سعد وانطوى العلم

وقال شاعر النيل حافظ إبراهيم:

إيهِ يا لَيْلُ هل رأيت المصابا   كيف ينصب في القلوب انصبابا؟
بلغ المشرقين قبل انبلاج الصُّبح   أن الرئيس وَلّى وغابا

أما الأمير فيعتصر روحه في عصماء نادرة في الشعر العربي الحديث، يستهلّها بالبيتين التاليين:

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها   وانحنى الشرق عليها فبكاها
ليتني في الركب لما آفلت   «يوشع» همّت فنادى فثناها

(٤) الأفق الثقافي

هل الموهبة أو الثقافة هي أهمّ ما يتطلبه الشعر والشاعر؟ لا شك أن الموهبة هي النبع، تزيدها الثقافة إخصاباً وتحليقاً. وثقافة الشاعر العربي الأول تنحصر في محفوظه التراثي؛ لغة وشعراً وأمثالاً وخطابة وأيام ناس، وقليل منهم من كتب.

وبهذه الثقافة المحدودة أبدعوا وأجادوا، لأن الموهبة فياضة. ومن معارفي أشخاص توفرت لهم الموهبة، وحفظ القرآن، وشيء من الشعر؛ فقالوا وأبدعوا على محدودية ثقافتهم، وضآلة حالهم، أقربهم إلى الذهن أحمد عياش حنشل من سادة قرية التريبة بزبيد، كان مصدر رزقه المحاماة في القضاء، وكان يتأتى له أن ينظم القضية بتفاصيلها في بيان فصيح، وطلاوة أخاذة، يحضرني منها قوله لأحد القضاة، وكان قد ألغز له شعراً عن غريميه، وكانا يدعيان بالقاصرين، وآخر يدعى المسكين، فأجابه في مقطوعة له منها:

إنَّ حلي القريب للغز أنّي   لا حزاماً أخشى ولا أولاده
إذ حوى القاصران رشداً فقاما   بوجوب تصحّ فيه الشهادة
وتجلى المسكين في قوة العدل   الذي قد ترجحون اعتماده
ولعمري لقد أقمت من البرهان   ما اكتفي به وزيادة

ومن الخير أن يحقق راجيك   بك اليوم قصده ومراده

وكان يتيسر للشاعر الجاهلي أحياناً حظوة لدى أمير الحيرة أو أمراء غسان، فيتسنى له شيء من الإلمام بالكتابة، والاطلاع على جانب ضئيل من الثقافة الأجنبية، وكان أوس بن حجر التميمي كثير التردد على ملك الحيرة - والحيرة هي النافذة الشرقية المطلة على الفرس - وبسبب من ذلك وردت في شعره بعض المفردات الأعجمية. قال ابن قتيبة ص ١٠١:

(قالوا: وجمع ثلاثة ألفاظ أعجمية في بيت واحد؛ فقال:

وقارفت وهي لم تجرب وباع لها   من الفصافص بالنميّ سفسير

الفصافص: الرطبة، وهي بالفارسية إبستْ، والنمي: الفلوس بالرومية، والسفسير: السمسار).

كما كان عدي بن زيد العبادي من أوفرهم حظاً في الاتصال بالأكاسرة، أيام أنوشروان وولده هرمز، وفي أيام هذا قام بسفارة بينه وبين طيباريوس قيصر الرّوم. وكان - فيما يذكر الزركلي - أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى، وتزوج بهند بنت النعمان. ومعلوم ما كان للنابغة من مكانة لدى النعمان وغسان؛ الأمر الذي انعكس على شعره من أناقة الحضر، ونعومة المدنية. يقول حسان بن ثابت عن خبره مع ملك غسان نقلاً عن ديوانه ص ١٧٨:

(قال حسان بن ثابت: قدمت على عمرو بن الحارث، فاعتاص الوصول إليه، فقلت للحاجب بعد مدة: إن أذنت لي عليه وإلا هجوت اليمن كلها، ثم انقلبت عنكم. فأذن لي فدخلت عليه فوجدت عنده النابغة، وهو جالس عن يمينه، وعلقمة بن عبده وهو جالس عن يساره؛ فقال لي: يا ابن الفريعة! قد عرفت عيصك ونسبك في غسان فارجع، فإني باعث إليك بصلة سنية، ولا أحتاج إلى الشعر؛ فإني أخاف عليك هذين السبعين: النابغة وعلقمة أن يفضحاك. وفضيحتك فضيحتي، وأنت والله لا تحسن أن تقول:

رقاق النعال طيِّب حجزاتهم   يحيّون بالريحان يوم السباسب

تحيتهم بيض الولائد بينهم   وأكسية الإضريج فوق المشاجب

يصونون أجساداً قديماً نعيمها بخالصة الأردان خضر المناكب
ولا يحسبون الخير لا شر بعده ولا يحسبون الشرَّ ضربة لازب
حبوت بها غسان إذ كنت لاحقا بقومي وإذ أعيت عليَّ مذاهبي

فأبيت وقلت: قدمتماني لا بد منه، فقال: ذاك إلى عميّك، فقلت لهما: بحق الملك إلا قدمتماني، فقالا: قد فعلنا).

وقد انعكست تلك الأناقة أيضاً في شعر حسان، وهي أوضح ما تكون في قصيدته:

لـلّـه درّ عـصـابـة نـادمـتـهـم يـومـاً بـجـلـق فـي الـزمـان الأول

وقد اكتسب الشاعر في العهدين النبوي والراشدي، ثم في العهدين الأموي والعباسي معارف جمّة، واطلاعاً واسعاً على الثقافات العربية، وقد انتقلت من المشافهة إلى التدوين. وعلى الثقافات الأجنبية عند انتشار الترجمة وقيام سوق النسخ والوراقة في الحواضر الإسلامية، وقد أطال ابن قتيبة الثناء على ثقافة أبي نواس، غير أن ثقافة النواسي ما كانت إلا جانباً ضئيلاً بالنسبة لثقافة شعراء الكتاب كإبراهيم بن العباس الصولي، وابن المدبر، وابن الداية ومن قبلهم ابن المقفع. ومما ينبغي إيراده هنا للصولي، وكان يأتي في مقطعاته بما لا يأتي غيره في القصائد الطوال:

إذا مـا الـفـكـر ولّـد حـسـن لـفـظ وأسـلـمـه الـوجـود إلـى الـعـيـان
ووشّـاه فـنـمـنـمـه بـيـانٌ فـصـيـح فـي الـمـقـال بـلا لـسـان
تـرى حـلـل الـبـيـان مـنـشـرات تـجـلـى بـيـنـهـا حـلـي الـمـعـانـي

أمّا إذا أردنا أن نقف بحق على ضخامة التحصيل الثقافي الذي كان الشاعر والكاتب والنديم يتوفر عليه، وينفق الجهد من أجله؛ فلنقرأ طرفة ممّا كتبه ياقوت في ترجمة إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وكان ذلك الفاضل أنموذجاً يقتدي به أدباء عصره وشعراؤه قال:

(وموضعه من العلم، ومكانه من الأدب والشعر، لو أردنا إستيعابه؛ طال الكتاب، وخرجنا عن غرضنا من الاختصار، ومن وقف على الأخبار، وتتبع

الآثار؛ علم موضعه، وأما الغناء فكان أصغر علومه، وأدنى ما يوصف به، وإن كان الغالب عليه، لأنه كان له في سائر علومه نظراء، ولم يكن له في هذا نظير، لحق فيه من مضى، وسبق من بقي فهو، إمام هذه الصناعة، على أنه كان أكره الناس للغناء والتسمّي به، ويقول: وددت أني أُضْرَبُ كُلَّما أراد مني من يندبني أن أغني، وكلما قال قائل: إسحاق الموصلي المغني ـ عشر مقارع، ولا أطيق أكثرِ من هذا، وأعفى من الغناء والنسبة إليه.

وكان المأمون يقول: لولا ما سبق لإسحاق على ألسنة الناس، وشهر به من الغناء عندهم؛ لوليته القضاء بحضرتي، فإنّه أولى به، وأحق وأعف وأصدق تديناً وأمانة من هؤلاء القضاة. قال: بقيت زماناً من دهري أغلسُ إلى هشيم، فأسمع منه الحديث، ثم أصير إلى الكسائي، فاقرأ عليه جزءاً من القرآن، وآتي الفراء، فأقرأ عليه جزءاً، ثم آتي منصوراً زلزل، فيضاربني طريقين أو ثلاثة، ثم آتي عاتكة بنت شهدة، فآخذ منها صوتاً أو صوتين، ثم آتي الأصمعي، فأناشده، وآتي أبا عبيدة فأُذاكرُه ثم أصير إلى أبي، فأعلمه ما صنعت، ومن لقيت، وما أخذت، وأتغدّى معه، وإذا كان العشاء رحت إلى الرشيد.

وقال الأصمعي: خرجت مع الرشيد فلقيت إسحاق الموصلي بها، فقلت له: هل حملت شيئاً من كتبك؟ فقال: حملت ما خف. فقلت: كم مقداره؟ فقال: ثمانية عشر صندوقاً. فعجبت وقلت: إذا كان هذا ما خفَّ؛ فكم يكون ما ثقل؟ فقال: أضعاف. وكان الأصمعي يعجب بقول إسحاق:

إذا كانت الأحرار أصلي ومنصبي ... ودافع ضيمي خازم وابن خازم

عطست بأنفِ شامخٍ وتناولت ... يداي الثريّا قاعداً غير قائم

وقال جعفر بن قدامة: حدثني علي بن يحيى المنجم قال: سأل إسحاق الموصلي المأمونَ أن يكون دخوله إليه، مع أهل العلم والأدب، والرواة، لا مع المغنين، فإذا أراد الغناء غناه، فأجابه إلى ذلك، ثم سأله بعد ذلك بمدة أن يكون دخوله مع الفقهاء، فأذن له في ذلك، فكان يدخل ويده في يد القضاة، حتى يجلس بين يدي المأمون وقال: ولا كل هذا يا إسحاق، وقد اشتريت منك هذه

المسألة بمائة ألف درهم وأمر له بها.

وحدث المرزباني عن محمد بن عطية الشاعر قال: كنت عند يحيى بن أكثم في مجلس له، يجتمع إليه أهل العلم فيه، وحضره إسحاق، فجعل يناظر أهل الكلام حتى انتصف منهم، ثم تكلم في الفقه فأحسن واحتج، ثم تكلم في الشعر واللغة ففَاق من حضر، فأقبل على يحيى بن أكثم، فقال: أعزَّ الله القاضي، أفي شيء مما ناظرت فيه تقصير؟ قال: لا والله، قال: فما بالي أقوم بسائر العلوم قيام أهلها، وأنسب إلى فنٍ واحد قد اقتصر الناس عليه؟ قال العطوي: فالتفت إليَّ يحيى بن أكثم وقال: جوابه في هذا عليك. قال: وكان العطوي من أهل الجدل والكلام، فالتفت إلى إسحاق وقلت: يا أبا محمد، أخبرني إذا قيل: من أعلم الناس بالشعر واللغة. أيقولون إسحاق، أم الأصمعي وأبو عبيدة؟ فقال: بل الأصمعي وأبو عبيدة. قال: فإن قيل: من أعلم الناس بالنحو؟ أيقولون إسحاق، أم الخليل وسيبويه؟ قال: بل الخليل وسيبويه.

قال: فإن قيل: من أعلم الناس بالأنساب؟ أيقولون إسحاق، أم ابن الكلبي؟ قال: بل ابن الكلبي. قال: فإن قيل: من أعلم الناس بالكلام؟ أيقولون إسحاق، أم أبو الهذيل والنظام؟ قال: بل أبو الهذيل والنظام. قال: فإن قيل: من أعلم الناس بالفقه؟ أيقولون إسحاق، أم أبو حنيفة وأبو يوسف؟ فقال: بل أبو حنيفة وأبو يوسف، قال: فإن قيل: من أعلم الناس بالحديث؟ أيقولون إسحاق، أم علي بن المديني ويحيى بن معين؟ قال: بل علي بن المديني ويحيى بن معين. قال: فإذا قيل: من أعلم الناس بالغناء، أيجوز أن يقول قائل: فلان أعلم من إسحاق؟ قال: لا. قلت: فمن ههنا نسبت إلى ما نسبت إليه، لأنه لا نظير لك فيه، وأنت في غيره لك نظراء. فضحك وقام وانصرف. فقال لي يحيى بن أكثم: لقد وفيت الحجة، وفيها ظلم قليل لإسحاق، لأنه ربما ماثل أو زاد على من فضلته عليه. وإنه ليقل في الزمان نظيره). أهـ.

ومن شعر إسحاق الدالّ على تأصّل الغنائية فيه؛ بيتاه اللذان جعلهما لعلوية؛ ليغني بهما المأمون حين أعرض عنه أياماً. والمحلأ في البيت الأخير: هو الممنوع

عن ورود الماء:

يا مَشْرَعَ الماء قد سدت موارده ... أما إليك طريق غير مسدود؟
لحائم حام حتى لا سبيل له ... محلأ عن طريق الماء مطرود

وقد توسع الزمن بالشعر والشاعر، فأصبح الصوفي والفيلسوف والطبيب من معازف الشعر، وجداوله المتدفّقة، نورد لكل منهم نصّاً يضيء اتجاه صاحبه؛ فمن شعر الصوفية العالي أبيات للسهروردي:

لا ذنب للعشاق إن غلب الهوى ... كتمانهم فنما الغرام وباحوا
سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها ... لما دروا أن السماح رباح
ودعاهم داعي الحقائق دعوة ... فغدوا بها مستأنسين وراحوا
والله ما طلبوا الوقوف ببابه ... حتى دعوا وأتاهم المفتاح
لا يطربون بغير ذكر حبيبهم ... أبداً فكل زمانهم أفراح
حضروا وقد غابت شواهد ذاتهم ... فتهتكوا لما رأوه وصاحوا
أفناهم عنهم وقد كشفت لهم ... حجب البقا فتلاشت الأرواح
فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالكرام فلاح
قم يا نديم إلى المدام فهاتها ... في كأسها قد دارت الأقداح
من كرم إكرام بدن ديانة ... لا خمرة قد داسها الفلاح

والأبيات الثلاثة التالية: تعلن عن نفسها أنّها للرئيس أبي علي، قبل أن أدلّك على صاحبها الفيلسوف ابن سينا:

هذب النفس بالعلوم لترقى ... فترى الكل فهي للكل بيت
إنما النفس كالزجاجة والعلم ... سراج وحكمة الله زيت
فهي إن أشرقت فإنك حي ... وهي إن أظلمت فإنك ميت

ومن شعر ابن التلميذ، وكان طبيباً نصرانياً:

لولا حجاب أمام النفس يمنعها ... عن الحقيقة عما كان في الأزل
لأدركت كل شيء عزّ مطلبه ... حتى الحقيقة في المعلول والعلل

وقال:

العلم للرجل اللبيب زيادة — ونقيضةُ للأحمق الطياش
مثل النهار يزيد أبصار الورى — نوراً ويعمى مقلة الخفاش

(٥) الاهتمامات:

يمتاز العصر العباسي بين سائر العصور الإسلامية، بولع شعرائه في غالبيتهم بالخروج على المألوف العربي، خروجاً عاماً في الحياة والشعر. وكان لذلك الولع أثره الإيجابي فنياً، وأثره السلبي حياتياً؛ فعلى الصعيد الفنيّ كان المولدون هم حملة لواء التجديد، ابتداءً من و«البة» ومن تلاه من الشعراء أبناء الموالي، إلى جانب الشعراء العرب الأقحاح. وكان لكل منهم مداه في ذلك التجديد، فمنهم من جمع في تجديد الجانبين اللفظي والمعنوي. ومنهم من عني بالمعنى وحصر همَّه عليه، وأطلقوا على كل ذلك مصطلح «البديع» وكانوا يعنون به الجديد، واستمرَّ ذلك المصطلح شائعاً حتى القرن السادس كما أسلفنا في وقفة سابقة، فمما استحدثه والبة أستاذ أبي نواس في وصف أثر الحُمَيَّا في نفوس شاربيها، خلافاً لما كان عليه منوال الأقدمين:

فتمشت في مفاصلهم — كتمشّي البرء في السقم

وكان لبشار بخياله الجبار؛ أن يستحدث وصف المعنوي بالماديّ:

وكأن رجع حديثها — قطع الرياض كسين زهرا

وجمع الحسين بن الضحاك بين التجديد فيما يسمى اليوم بالموسيقى الداخلية للبيت الواحد، وما يسميه البديعيون بالجناس غير التام:

قد نام لا قام من يراقبنا — وغاب لا آب سامر الخدم

وبين التجديد في المعنى. فإذا كان الشاعر العربي الأموي يكثر الحديث عن غزارة دمعه وتقطع كبده على الحبيب الهاجر النافر؛ فإنَّ الحسين يقول هكذا:

لا وحبيِّك لا أصافح بالدمع مدمعا
من بكى شجوه استراح وإن كان موجعا

كـبـدي فـي هـواك أسـقـم مـن أن تـقـطـعـا

وكان يطيب «لمسلم» مولى الأنصار؛ الإكثار من التصريع في البيت، الذي أطلق عليه البديعيون اسم «التفويف» أو «الترصيع»:

موفٍ على مهج في يوم ذي رهج　　كـأنـه أجـل يـسـعـى إلـى أمـل

أمّا الشعراء العرب الأقحاح الذين سايروا شعراء الموالي في بديعهم، وفاتوهم فأبرزهم: أبو تمام، وعبد الله بن المعتز، وكلثوم العتابي. وقد كان لأبي تمام من محفوظه التراثي الضخم من الشعر العربي، الذي يقال: إنه كان يستظهر منه أربعة عشر ألف أرجوزة، عدا المقطعات والقصائد. ولاتساع اطلاعه على الترجمات الأجنبية لمنطق اليونان وفلسفتهم، مع خصوبة موهبته، وجبروت عقله؛ أن يفوت الجميع في مضمار التجديد المعنوي واللفظي، ويستحدث صوراً لا عهد للعمود الشعري بها. وبدلاً من أن يحتسبها المنصفون إنجازاً رائعاً له، اعتبرها المتحاملون جناية استحق بها في رأيهم الطرد من جنة الشعر. وكيف يجرؤ ناقد على إصدار مثل ذلك الحكم في حق رجل وثاب الخيال، ربيعيّ التعبير، من مثل قوله في رسالة صديق له إليه:

لـقـد جـلـى كـتـابـك كـلَّ بـثّ　　جـو وأصـاب شـاكـلـة الـرَّمـيِّ
فـضـضـت ختـامـه فـتـبـلـجـت لـي　　غـرابـتُـهُ عـن الـخـبـر الـجـلـيِّ
وكـأن أغـضّ فـي عـيـنـي وأنـدى　　عـلـى كـبـدي مـن الـزهـر الـجـني
وأحـسـن مـوقـعـاً عـنـدي ومـنـي　　مـن الـبـشـرى أتـت بـعـد الـنـعـيّ
وضـمـن صـدره مـا لـم تـضـمـن　　صـدور الـغـانـيـات مـن الـحـلـيِّ
فـكـائـن فـيـه مـن مـعـنـىً خـطـيـر　　وكـائـن فـيـه مـن لـفـظ بـهـيِّ
فـيـا ثـلـج الـفـؤاد وكـان رضـفـا　　ويـا شـبـعـي إذا نـمـضـي وريِّ
وكـم أفـصـحـت[1] عـن بـرّ جـلـيـل　　بـه ووأيـت مـن وأى[2] سـنـيّ
كـتـبـت بـه بـلا لـفـظ كـريـهٍ　　عـلـى إذنٍ ولا خـطٍّ قـمـيّ

(١) الإفصاح: الإنابة.
(٢) الوأي: تضمين الشيء شيئاً آخر.

رسالة من تمتع منذ حين ومتعنا من الأدب الوضيّ

ومن أمثلة قوله في الثناء:

لعمري لقد أقوت مغانيكم بعدي ومحَّت كما محت وشائع من برد

وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيا دمع أنجدني على ساكني نجد

ومنها:

أتاني مع الركبان ظنّ ظننته لففت له رأسي حياءً من المجد

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معي ومتى ما لمته لمته وحدي

وانظر بيتيه في مطلع مدحته لابن الزيات، وحاول أن تتذكر من يجاريه فيها وسيعزب عنك ذلك، بل سيعوزك:

ديمة سمحة القياد سكوب مستغيث بها الثرى المكروب

لو سعت بقعة لإعظام نعمى لسعي نحوها المكان الجديب

وقد عني النواسي بالإزراء على التزام الشاعر الأموي، والشاعر الجاهلي الطللية، وحاول استخداث تقليد شعري آخر في القصيدة، فلم يكن موفقاً في ذلك الاستحداث، ولنستمع إليه ماذا يريد:

عاج الشقي على رسم يسائله وعجت أسأل عن خمارة البلد

يبكي على جيف الماضين من أسد لا درّ درُّك قل لي من بنو أسد؟

ومن تميم ومن قيس؟ ولفُّهما ليس الأعاريب عند اللّه من أحد

قل لمن يبكي على رسم درسٍ واقفاً ما ضرّ لو كان جلس

وجاء المتنبي ينعي على من قبله من الشعراء؛ التزامهم التشبيب والنسيب مطالع قصائدهم:

إذا كان شعراً فالنسيب المقدم أكلُّ فصيح قال شعراً وميتم

تلك هي الالتفاتة الفنية التي عني بها المتنبي، فإذا تجاوزنا صعيد التجديد الفني إلى صعيد الاهتمام الحياتي؛ وجدنا من شواهد النصوص الكواشف المضيئة

لخبايا النفوس الشاعرة، المومية إلى نقاط طموحهم، ومناط رغائبهم، صعوداً أو هبوطاً استقامة أو انحرافاً.

فمع أن المتنبي عاشر الملوك، وزار وزراءهم، وأخذ عطاياهم، وأثنى عليهم بالحق والباطل في أكثر من قصيدة، إلا أن ذلك المادح كان فوار النشاط، موار الطموح، يستصغر من رآه من ممدوحيه، ويودّ لو وضع سيفه في مفارق الرؤوس. وكان ذلك التأجيج المكبوت لا يفتأ يطل في نفراته الشعرية، وزفراته القريضية؛ من مثل:

فؤاد ما تسلّيه المدام وعمر مثل ما تهب اللئام
ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام
أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام

* * *

ولا تحسبنّ المجد زِقًّا وقَيْنَةً فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر

* * *

ولا أعاشر من أملاكهم ملكا إلا أحق بضرب الرأس من وثن

وإذا كان المرء حيث يضع نفسه؛ فلنقارن بين اهتمام النواسيّ:

مرّ بنا والعيون تأخذه تمضع منه مواضع القبل
أفرغ في قالب الجمال فلا يصلح إلا لذلك العمل

فإنّ مصلح اليمن محمد بن إسماعيل الأمير رضوان الله عليه، يرى غلاماً في مسجد ملتفاً برداء أزرق، لا يحسن ركوعه وسجوده، فيقول:

يا قمراً في أفق أزرق يغني عن الطالع والغارب
ما ارتكب المحظور في عمره لكنه يعبث بالواجب

وإذا كان علي بن الزقاق الأندلسي يعتبر السبت يوم عيد، وأجمل أيام

الأسبوع؛ لأنه يخلو بحبيبه اليهودي:

وحبب يوم السبت عندي أنني   ينادمني فيه الذي كنت أحببت
ومن عجب الأشياء أنيّ مسلم   حنيف ولكن خير أيامي السبت

فإنَّ الأمير، وقد سجنه إمام صنعاء لإصراره على موقفه الإصلاحي؛ يقتبس بيت ابن الزقاق ويضيف إليه، ولماذا؟ لأنه كان سجيناً، وكان يجاور السجن محلّ صك النقود، الذي يعمل فيه اليهود فيؤذونه طوال الأسبوع؛ عدا يوم السبت، يوم عطلتهم:

وجاورت دار الضرب كرهاً وبئس ذا   جوار يهود ما لهم في الهدى ثبت
مكارمهم هنّ الطوارق للفتى   فما لمنام العين في قربهم بخت
فأنشدت بيتاً قد تقادم عهده   ولا عوج فيه لمثلي ولا أمت
ومن عجب الأشياء أني مسلم   حنيف ولكن خير أيامي السبت

العنقود الرابع

أغاريد يمنية

العنقود الرابع:

أغاريد يمنية:

كانت القبيلة ولا تزال هي المادة الأساسية في تركيبة البنيان الاجتماعي، في سائر الوجود الإنساني: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ [الحجرات: ١٣] غير أن كثيراً من البقاع ذات صلة عريقة بالمدينة، أمكن لها إذابة الحسّ القبلي، واستبدلته بآصرة المدينة، كإطار واسع لا يقوم على العرق وإنما يقوم على الاجتماع والمصالح. والعالم العربي ـ نظراً لحداثة أقطاره بالمدنية ـ لا يزال للولاء القبلي فيه أثره القوي، وفعاليته التي تطغى على ما سواه.

ومعلوم أنّ ولاء القبيلة ينطلق من وحدة الدم والنسب، أكثر من اعتماده على وحدة المكان. فما أكثر ما تتفرق البقاع بأفخاذ القبيلة الواحدة وعشائرها، وتبقى رابطتها المعتمدة على وحدة النسب مصدر الفخار والنفار والانتصار.

وفي مجتمعنا اليمني نرى فصائل مثلاً من بكيل استقرّت في بقاع، تلتفّ حولها حاشد منذ أمدٍ بعيد. وعلى بعد المكان والزمان فإنّ ولاءها لا يزال لجذرها القبلي الأول. ومن هنا كان حرص القبائل حيث كانوا على وحدة النسب، واتصال الشجرة بأغصانها وأفنانها وإن تباعدت. وللقبيلة واحتكارها للولاء مساوئ عمل الإسلام على اجتثاثها وإحلال العقيدة محلها. ولها محاسنها المتمثلة في أنها الينبوع الدفاق المجدّد لشباب الوطن الذي تستهلكه المدينة، والذائد عن الحياض ساعة الكريهة، ومع أن الإسلام عمل على تشذيب وتهذيب تلك العاطفة القبلية الفوارة، إلا أنه أبقى على وحدة القبيلة باعتبارها وحدة تنظيمية في جيش الأمة.

واستمرّ لكل قبيلة عريفها ونقيبها وقائدها، ولما جاء الأمويون انبعثت نائرة القبيلة، وتضاعف أوارها؛ بفعل النقائض والمنافرات الشعرية، وعادت الفرقة القبلية

بوجهها الممقوت، وكانت إحدى العوامل المميتة للدولة الأموية. وظهرت في الشعر ما أسموه بالدوامغ، ابتداءً من عهد الكميت والطرماح ودعبل، إلى عهد قريب بالنسبة لليمن. ومع تصرم الأحقاب باليمنيين النازحين بعد خراب السد، وتباعدهم في البقاع والأصقاع، وأوساط الجزيرة، وأطراف الشام، وسواد العراق، وهضبات عمان؛ إلا أنهم رغم كل ذلك، مضافاً إلى نابتة الجش اليمني المشترك في الفتح الإسلامي مشرقاً ومغرباً، ظلوا متعارفين بأنسابهم، متآلفين في ولائهم ليمنيتهم، بعد ولائهم لله سبحانه ولرسوله ﷺ ولكتابه وللأمة.

وإنّ من يقف على أشعار حسان، وهو يعتز بيمنيته، ودعبل المعتز بقحطانيته، والبحتري الطائي الشاكر للفرس لنصرتهم قومه اليمنيين على الأحباش. هذا في شعراء المشرق، ومثله ما فاهت به قريحة المنصور بن أبي عامر المعافري، وابن هانئ الأزدي، وابن رشيق مولى آل باديس الصنهاجيين في المغرب؛ يدرك إتصال شعلة الحسّ اليمني، الذي لم تطفئه شواسع المكان، وأحقاب الزمان.

وقد حفظ الجغرافيون للقبائل اليمنية، أيام النزوح بعد خراب السد، وأيام الفتح عند ظهور الإسلام مواقعهم، وحفظ مدونو الأشعار والأخبار أشعارهم وأخبارهم. وكنت كلما تصفحت الموسوعات المعجمية جغرافية وتاريخية وأخبارية؛ هالتني وفرة الحضور اليمني في شتى المجالات، ممّا دفعني إلى وضع كتابي: (كواكب يمنية في سماء الإسلام) كمحاولة محدودة؛ لجمع من أمكن من أعلامهم في مجال العطاء العلمي، روحياً وفكرياً على امتداد الرقعة من الصين إلى الأندلس، مضافاً إلى أعلام من إخوانهم المقيمين باليمن.

واعتزمت أن أشفع ذلك بكتاب عن شعرائهم، ثم بلغني أن الأستاذ أحمد محمد الشامي، يعكف على إخراج معجم لشعراء اليمن؛ حافل بالأجداد والأحفاد؛ فباركت مسعاه، ودعوت له بالتوفيق والعون، إذ أنّ التراث الشعري اليمني ذهب طعمة الأيام، بين تالفٍ، ومنسيّ مضاع، والقليل المخطوط منه الميسر الحصول عليه؛ لم يتح له المحقق الناهض بالمهمة. وأظن أنه لولا أن الله سبحانه وتعالى هيئ أفراداً قلائل لحفظ ما أمكن حفظه من تراثنا الشعري؛ لذهب شعر

اليمن ذهاب الأمس. من هؤلاء الإعلام الكرام، أخصّ بالذكر: عبيد بن شرية الجرهمي، والمبرد[1]، وأبا محمد الهمداني، وأبا تمام، وابن عبد ربه، والأصفهاني في أغانيه، والقالي في أماليه، وابن عبد ربه صاحب العقد، وعمارة، والسخاوي، والشوكاني، وزبارة، لما تيسر لنا الحصول على هذه البقية الباقية من شعرنا.

وكتابنا هذا لا يتسع لأكثر من أفراد معدودين؛ نحبّ أن نقدم مقطوعات من أشعارهم، كنموذج للقارئ العربي؛ يتعرف بها على الشعر اليمني. وسنبدأ من البداية.

(١)

عبد الله بن عجلان النهدي

(بلد بني نهد: طريب ومصابة من ذوات القصص وكتنة).

ويقول المحقق الأكوع:

(قبيلة نهد موجودة في ضمن قبيلة عبيدة).

ويقول الزركلي:

(نهد بن زيد بن ليث من بني من قضاعة، جدّ جاهلي يماني، كان يسكن بقرب نجران).

ويقول أيضاً:

(وكان بنو نهد من أوائل الطالعين من قبائل قضاعة إلى أرض نجد. ونزل فريق منهم بالشام وطائفة في أطراف رضوى، ودخل بعضهم الأندلس فكانوا في

(١) أورد المبرد في (الكامل) كثيراً من أشعار الأزد ضد الخوارج.

ريّة) من رجالهم: أبو عثمان النهدي ترجمناه في «كواكب يمنية»، وقد اخترنا من شعرائهم: عبد الله بن عجلان النهدي قال شارح الحماسة في ترجمته:

(أحد بني نهد بن زيد بن ليث من قضاعة، شاعر جاهلي، أحد المتيمين من الشعراء، ومن قتله الحبّ منهم. قال ابن سيرين: خرج عبد الله بن عجلان في الجاهلية، هائماً على وجهه لا يدري أين يذهب، فقال:

إلا إنّ هنداً أصبحت منك محرما ... وأصبحت من أدنى حموتها حما

فأصبحت كالمغمود جفن سلاحه ... يقلب بالكفين قوساً وأسهما

ثم مدَّ بها صوته فمات. قال ابن سيرين: فما سمعت أن أحداً مات عشقاً غير هذا).

وحقه مسك من نساء لبستها ... شبابي وكاسٍ باكرتني شمولها

جديدة سربال الشباب كأنها ... سقيّة برديّ نمتها غيولها

ومُخْمَلةٍ باللحم من دون ثوبها ... تطول القصار والطوال تطولها

كأن دمقساً أو فروع غمامة ... على متنها حيث استقرّ جديلها

وأبيض منقوف وزقّ وقينة ... وصهباء في بيضاء باذٍ حجولها

إذا صبّ في الراووق منها تضوعت ... كميت يلذُّ الشاربين قليلها

(٢)

عمرو بن معدي كرب الزبيدي

فارس اليمن، وسيد مذحج عمرو: بني معدي كرب الزبيدي يقال: إنه عمر مئة وعشرين عاماً، متفق على إسلامه في العام التاسع، منقلب النبي ﷺ من تبوك. ومتفق على نكوصه فيمن نكص في فتنة الأسود العنسي، ثم عوده إلى الإسلام وحسن بلائه في معركة اليرموك، التي فقد فيها إحدى عينيه، وفي معركة القادسية ضد الفرس، ومختلف حول استشهاده ومكان وفاته، والأكثر على أنه حضر معركة

نهاوند وكانت أخر معاركه، وسنأتي بنصّ شعري له يصف شيئاً من خبره في نهاوند. ويذكر ياقوت في «معجم البلدان» أنه دفن في مكان يقال له: روذة، ورثته زوجته الخثعمية بأبيات:

لقد غادر الركب الذين تحملوا　　بروذة شخصاً لا ضعيفاً ولا غمرا
فقل لزبيد بل لمذحّج كلها　　فقدتم أبا ثور سنانكم عمرا
فإن تجزعوا لا يغني ذلك عنكم　　ولكن سلوا الرحمٰن يعقبكم صبرا

ويمتاز أبو ثور بصفات جسمية وأسرية وبيئية؛ أهلته ليكون من الشهرة والذكر بحيث كان. أما مؤهلاته الجسمية: فالجسامة البالغة، والشجاعة، والحلم، والفصاحة؛ فقد قالوا عن جسامته: إنه ربما أكل الكبش بمفرده، وسجل شعره مشاهد كثيرة تصف ثباته يوم البأس، وأنه ربما سدّ مسد عشرة رجال. ويدلك على حلمه موقف كريم له:

ويبقى بعد حلم القوم حلمي　　ويفنى قبل زاد القوم زادي

وكانت له بدوات شعرية تدلّ على جفاء البادية، كما تدل على وضوح الذات وابتعادها عن الانطواء والمراوغة. وأما مؤهلاته الأسرية فقد كان الرجل بعد أبيه من سادة مذحج، وذوي الصدارة في الأمر. وكان له أخ هو عبد الله على جانب من البأس، قتله أحد أفراد قومه من زبيد. وكان له أخوات نابهات أنجبن نابهين، فإحداهنّ؛ وهي ريحانة كان حظها الأسر في إحدى معاركهم مع هوازن، وكان حظها أن تكون في يد الصمة، وأنجبت له دريداً فارس هوازن وشاعرها. وفي ريحانة هذه يقول عمرو:

أمن ريحانة الداعي السميع　　يؤرقني وأصحابي هجوع

وهي جيدة ناضحة بحكمته وطول أناته. وأخرى تزوجها بدر، وأنجبت له الزبرقان صاحب الخبر مع الحطيئة. وثالثة تزوجها هبيرة، فأنجبت له قيس بن هبيرة المرادي. ورابعة وهي كبشة، وكانت شقيقة عبد الله، وقد أنطقها مصرع أخيها، وإشفاقها من أخذ عمرو ديته:

أرسل عبد الله إذ حان يومه إلى قومه لا تعقلوا لهم دمي
ولا تأخذوا منهم إفالاً وأبكرا وأُترك في بيت بصعدة مظلم
ودع عنك عمراً إن عمراً مسالم وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم
فإن أنتم لم تثأروا واتديتم فمشوا بآذان النعام المصلم
ولا تردوا إلا فضول نسائكم إذا ارتملت أعقابهن من الدم

وكلّ ذلك يشهد بنباهة الأسرة، وعراقة الفصاحة والمغامرة في أفرادها. أمّا مؤهلاته البيئية؛ فقد كانت مساكنهم بتثليث من نجران، وهي بموقعها الجغرافي ذات اتصال وثيق، في السلم والحرب، بقبائل الجنوب في اليمن، قومهم وأبناء أبيهم. وقبائل الشمال من أبناء عمومتهم. ولعل أهمية ذلك الموقع المكاني إلى جانب المؤهلات الأخرى والعمر المديد الذي حظي به عمرو، وجعله أكثر اليمانية ذكراً بلسانه وسنانه.

ومن مميزات شعر عمرو، وقد ذهب أكثره، ولم تبق منه إلا مقطعات وقصائد معدودة متناثرة في كتب الأدب والأخبار؛ أنه قوي الدلالة على شخصية صاحبه، إلى حدّ أنه بإمكان الدارس المتأني أن يحدّد قصائده ومقطعاته في نسق زمني متتابع. ونظراً لقلة إيراد أكثر المصادر لما بقي من شعره؛ فقد رأيت أن أجمع ما أمكن الحصول عليه منها هنا. ويبدو لي من دلالاته اللفظية أنه من أوليات قصائده في مواجهاتها القتالية الأولى، ذكرناه في وقفتنا عند شعر القوة بالباب الثاني من هذا الكتاب، ونستعير منه هنا الأبيات التي تشي بأولويتها في بداياته الفتية مع الأعداء، وبعد ذهاب أخيه:

لما رأيت نساءنا يفحصن بالمعزاء شدّا
وبدت لميس كأنها بدر السماء إذا تبدّى
وبدت محاسنها التي تخفى وكان الأمر جدّا

هذه البواعث الشديدة التي قطعت عليه أناتة، ودفعت نفسه دفعاً إلى القتال:

نازلت كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدّا

كم من أخ لي صالح ... بوأته بيديّ لحدا
ما إن جزعت ولا هلعـ ... ـت ولا يردّ بكاي زندّا
أغني غناء الذاهبيـ ... ـن أعدّ للأعداء عدّا

ومن قصائده التي استعرض فيها كثيراً من أيامه الرائعة، التي أوردها القالي بكاملها في «أماليه» وهي بمثابة المذكرات الموسعة تفصيلاً للأحداث، وإطناباً في العرض:

لمن طلل يتيمانٍ فجند ... كأن عراصة توشيم برد
إلا ما ضرّ أهلك أن يقولوا ... سقيت الغيث من بلد وعهد
ودار تجذل الذلان عنها ... ملثمة بأضياف ووفد
إذا المهياف ذو الإبل اجتواها ... وأعرض مشية الجمل المغد
سددت فراضها لهم ببيتي ... وبعضهم بقبّته يعدّي
وأود ناصري وبنو زبيد ... ومن بالخيف من حكم بن سعد

أود بن صعب بن سعد: العشيرة، وحكم بن سعد: العشيرة، قاله ابن الأعرابي. والخيف: ارتفاع وهبوط في رأس الجبل.

لعمرك لو تجرّد من مراد ... عرانين على دهم وجرد
ومن عنسي مغامرة طحون ... مدرّبة ومن علة بن مجلد

قال ابن الأعرابي: مغامرة ومغاورة: مخالطة تدخل القتال. عنسي بن مالك: أحد مذحج، والحارث بني كعب بن علة بن جلد: وهذه قبائل من اليمن. وجنب: حي من مذحج، مجنبة: ميمنة وميسرة.

ومن سعد كتائب معلمات ... على ما كان من قرب وبعد
ومن جنب مجنبة ضروب ... لهام القوم بالأبطال تردي
وتجمع مذحج فيرئسوني ... لأبرأت المناهل من معدّ
بكل مجرّب في البأس منهم ... أخي ثقةٍ من القطمين نجد

أبرأت: أخيلت، القطمين: جعلهم كالفحول من الإبل مغتلمين، ونجد: شجاع.

وكل مفاضة بيضاء زعفٍ وكل معاود الغارات يخدي
أؤمّ بها أبا قابوس حتى أحلَّ على تحيته بجندي
فما نهنهت عن بطل كمّي ولا عن مقلعطّ الرأس جعد
إذا ما مذحج قذفت عليها سرابيلاً لها من كل سرد
وتركاً للرؤوس مسبغات إلى الغايات من زعف وقدّ
وهزّ السمهري على المذاكي مجنبتين بالأبطال تردي
وعرى بالأكف مهندات وسُلّ حسامها من كل غمد
وقُرب للنطاح الكبشي يمش وطاب الموت من شرع وورد
تخال البزل فيه مقيدات كأن قبولها تكليل أسد
هنالك بهمة الفرسان يلقي وأصحاب الحفاظ وكل جدّ
أولئك معشري وهم جبالي وحزني في كرهتهم وجدي
هم قتلوا عزيزاً يوم لحج وعلقمة بن سعد يوم نجد
وهم قسموا النساء بذي أراطي وهم عركوا الذنائب عرك جلد

المأمور بن زيد من بني الحارث بن كعب، واسمه معاوية بن الحارث، وتعشار: موضع. وأراطي: موضع وبه ماء لطيء؛ وقوله عركوا: أي قتلوا أهله، والعرك: الدّلك. والذنائب: مواضع أغاروا عليها فتركوها كذلك. قال ابن الأعرابي: الذنائب: أرض من أرض قيس:

وهم ردوا المياه على تميم بألف مدجّج شمط ومرد
وإخوتهم ربيعة قد حوينا فصاروا في النهاب بغير حمد
وهم تركوا بكندة موضحات وما كانوا هناك لنا بضدّ
وهم زاروا بني أسد بجيش مع العتاب جيش غير وغد
وهم تركوا هوزان إذ لقوهم وأسلمهم رئيسهم بجهد
وهم تركوا ابن كبشة مسلحبا وهم شغلوه عن شرب المقدي

ابن كبشة: الصباح بن قيس بن معد يكرب، أخو الأشعث بن قيس. وكبشة

بنت شراحيل ابن آكل المرار.

ومسلحب مجدل. قال ابن الأعرابي: مسلحب منبسط على وجه الأرض. والمقدّي: خمر منسوبة إلى مقدّ، قرية بالشام:

وخشعم لشموا حتى أقروا ... بخرج في مواشيهم ورفد
وهم خشّوا مع الديّان حتى ... تغتّم كل عضروط وعبد
وهم أخذو أبذي المرّوت ألفا ... يقسم للحصين ولابن هند
وهم قتلوا بذات الجار قيسا ... وأشعث سلسلوا في غير عقد
أتانا ثائراً بأبيه قيس ... فأهلك جيش ذلكم السمغد
فكان فداؤه ألفي بعير ... وألفاً من طريفات وتلد
وهم قتلوا أبذي قلع ثقيفا ... فما عقلوا وما فاءَ وابزند
وهم سحبوا على الدّهنا جيوشا ... يعيدهم شراجيل ويبدي
وهم تركوا القبائل من معدّ ... ضبابا مجحرين بكل حقد
وكم من ماجد ملك قتلنا ... وآخر سوقة عزب قمد
وخصم يعجز الأقوام عنه ... شديد الضغن أقعسى مسمغد
حبست سراتهم بالضخ حتى ... أنابوا بعد إبراق ورعد
أمازحهم إذا ما مازحوني ... ويفضي جدّهم إن جدّ جدّي
فذاك وقد رجعن مسومات ... يخدن وقد قضينا كل حرد
فما جمع ليغلب جمع قومي ... مكاثرة ولا فرد لفرد
إلا عتبت عليَّ اليوم أروي ... لآتيها كما زعمت بفهد
وحمير دونه قوم عداة ... بكل مسيلة وبكل نجد
فما الأحلاف تابعتي إليه ... ولا وأبيك لا آتيه وحدي

ويحتاج الراغب في تذوق هذا النصّ وأمثاله إلى اصطحاب معجم لمراجعة بعض المفردات، وذلك يضاعف المتعة عند المتذوقين ولا يلغيها، وإذا كان شبابنا الحاصلون على معرفة باللغة الأجنبية، كالإنجليزية مثلاً؛ لا يسأمون من مراجعة

معجم إنجليزي عند قراءتهم لنصٍّ شعري مثلاً لويليام شكسبير، فما أحرى شعر أجدادهم بمثل تلك العناية.

ومن المفيد أن نوضح شيئاً من خيوط العلاقة بين عمرو والشعر، وأن نوضح شيئاً من سماته الشعرية المميزة، ولقد استبان لي من مراجعة نصوصه الشعرية المتيسرة: أن علاقته بالشعر كانت تقوى وتجود في حرب أو غضب، وما عدا ذلك فلا. أما سمات شعره فهي:

١ ـ صدقه في حديثه عن نفسه؛ حتى إنه لا يخجل أن يذكر فراره من صدام، أو جبنه في معركة.

وإني لأعجب للمرزباني، أن يتهمّه في معجمه بالكذب، في حروبه مع العرب.

٢ ـ صدقه في تصوير أعدائه، والإشادة بحسن بلائهم، أو الإشارة إلى فرارهم، لا يستثني من ذلك أحداً، حتى أفراد قبيلته وأبناء وطنه.

٣ ـ عدم حسن تفهمه لمستجدات الحياة الإسلامية، الأمر الذي يجعل موقفه منها، وتعبيره عنها؛ مجانفاً للجادة، وقد يعنّ له أن يأتي بالحكمة الرصينة في شعره، ولكن ذلك غالباً ما يأتي خلال استعراضه لذكرياته، وتقلبات الأيام به.

هو ذا يصف الحرب وصف الخبير بها، المتجرّع لغصصها:

الحرب أول ما تكون فتية   تسعى بزينتها لكل جهول
حتى إذا حميت وشبّ ضرامها   عادت عجوزاً غير ذات خليل
شمطاء جزّت رأسها وتنكرت   مكروهة للشمّ والتقبيل

ومن نصوصه الصادقة مع نفسه، وصفه لها، وعرضها أمام الآخرين بهذا الوضوح:

ولقد أجمع رجليَّ بها   حذر الموت وإنّي لفرور
ولقد أعطفها كارهة   حين للنفس من الموت هرير
كلّ ما ذلك منّي خلق   وبكلٍّ أنا في الروع جدير
وابن صبح سادراً يوعدني   ما له في الناس ما عشت مجير

وحول نفس المعنى يعرض موقفه من عدوّه، وما ألمَّ به في الميدان:

أجاعلة أم الغوير خزاية ... عليّ فراري إذ لقيت بني عبس
لقيت أبا شأسٍ وشأساً ومالكا ... وقيس فجاشت من لقائهم نفسي
لقونا فضموا جانبينا بصادق من ... الطعن مثل النار في الحطب اليبس
ولما دخلنا تحت فيء رماحهم ... خبطت بكفي أطلب الأرض باللمس
وليس يعاب المرء من جبن يومه ... إذا عرفت منه الشجاعة بالأمس

وعن تقلبات الأيام به يقول:

فيوماً ترانا للخزوز نجرّها ... ويوماً ترانا في الحديد عوابسا
ويوماً ترانا للتريد ندوسه ... ويوماً ترانا نأكل الكعك يابسا

ومن بدواته الجافية، أنه لما وفد صديقه «فروة بن مسيك المرادي» على النبي ﷺ، وأسلم، ولاه جانباً من أمر اليمن،[1] وتوسم عمرو من تلك الإمارة عطاءً يناله. ولما لم يظفر بشيء قال:

وجدنا ملك فروة شرّ ملك ... حماراً ساف منخره بثغر
وكنت إذا رأيت أبا عمير ... ترى الحولاء من خبث وغدر

وحين انتهت معركة القادسية، وقد أحسن البلاء بها، ولكنه عند توزيع العطاء؛ وجد أنّ الفاروق قد أمر القادة بإعطاء الأفراد من الجيش، على قدر محفوظهم من القرآن. ولما كان صاحبنا عمرو لا يحفظ شيئاً منه لم ينل شيئاً؛ فرأى سعد بن أبي وقاص، وكان قائد القادسية، وعارفاً ببلاء عمرو فيها، أن يوجهه إلى المدينة؛ عساه يظفر من أمير المؤمنين بنائل، وفي ذلك يقول عمرو:

إذا قتلنا ولا يبكي لنا أحد ... قالت قريش إلا تلك المقادير
نعطي السوّية من طعن له نفذ ... ولا سويّة إذ تعطي الدنانير

ولما قدم عمرو المدينة، وكان في موقف أمير المؤمنين عمر، دار بينهما حوار حول أدوات الحرب من سيف ورمح وترس، وكانت عبارته مع الفاروق

---

(١) انظر: البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير (٥/ ٧١).

جافية فأغلظ له عمر الجواب، هنالك أنطقه الغضب:

أتوعدني كأنك ذو رعين ... بأفضل عيشة أو ذو نواس
وكائن كان قبلك من نعيم ... وملك ثابت في الناس راسي
قديم عهده من عهد عاد ... عظيم قاهر الجبروت قاسي
فأمسى أهله بادوا وأمسى ... يحوّل من أناس في أناس

وفي الإصابة ما أورده ابن حجر عن عمرو؛ وأنه وقف بقومه من زبيد ببطن المحسر، ومنعوا الناس أن يجتازوا إلى عرفة؛ مخافة أن يتخطفوهم، وكان يلبِّي مع قومه هكذا:

لبيك تعظيماً إليك عذرا
هذي زبيد قد أتتك قسرا
يقطعن خبتاً وجبالاً وعرا

فمرَّ بهم النبي ﷺ ويبدو أن ذلك كان في حجة الوداع فقال: «أجيزوا بطن عرفة فإنما هم إذّ أسلموا إخوانكم»[1]، وذكر صاحب الإصابة أيضاً: أن عمراً مدح خالد بن سعيد بن العاص، ولكنه لم يذكر في ترجمة خالد غير بيت واحد.

بعد هذا الاستطراد عن بواعث الشعر لدى عمرو، وعن سمات شعره، وعن بدواته؛ نكرُّ إلى موضوعنا عوداً على بدء؛ فنورد أبياته التي سمح بها الزمن، ممّا بقي من قصيدته في أخته ريحانة:

أمن ريحانة الداعي السميع ... يؤرقني وأصحابي هجوع
أشاب الرأس أيام طوال ... وهمٌّ ما تضمنه الضلوع
وسوق كتيبة دلفت لأخرى كأنَّ ... زهاءها رأس صليع
إذا لم تستطع شيئاً فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع
وصلة بالزماع فكل أمر ... سما لك أو سموت له ولوع

(١) انظر: الإصابة، لابن حجر العسقلاني (٥/ ١٩).

وكان له في جاهليته أن فتك بأحد رجال كندة، وغشي امرأته، وأوصاها إذا كان حملها منه ذكراً أن تسميه الخزر، فولدته، وأطلقت عليه الاسم، وشبَّ شجاعاً مقداماً، اتفق له يوماً أن لقي أباه عمراً، وهو لا يعرفه، فتصاولا، وصرع الابن الأبَ، ولما صار على صدره، سأله أبوه عن اسمه فعرف أنه ابنه، وكشف له حقيقة الأمر، وأرشده بالتوجه إلى صنعاء، ولكن أصحاب صنعاء بعد حين أغروا الابن بمواجهة الأب، في إحدى معاركهم، ولما التقيا فتك عمرو بابنه، وتحدث عن ذلك في شعره من خبر طويل، أورده صاحب الأمالي، واختصرناه خشية الإطالة:

تمنّاني ليقتلني ... وأنت لذاك معتمده
فلو لاقيتم فرسي ... وفوق سراته أسده
إذاً لَلقيتم شثن ... البراثن نابياً كتده
ظلوم الشرك فيما ... أعلقت أظفاره ويده
يلوث القرن إذ ... لاقاه يوماً ثم يضطهده
يزيف كما يزيق الفحل ... فوق شئونه زبده
يذبّب عن مشافره ... البعوض ممنعاً بلده
ولو أبصرتَ ما جمّعت ... فرق الورد يزد هده
رأيت مفاضة زعفا ... وتركا مبهماً سرده
وصمصاماً يكفي لا ... يذوق الماء من يرده
شمائل جدّه وكذاك ... أشبه والداً ولده
أمرتك يوم ذي صنعاء ... أمراً بيّنا رشده
فقال الخير تأتيه ... فتفعله وتتعده
فكنت كذي الحمير غرّه ... من عيره وتده
ولو أبصرت والبصر ... المبين قلَّ من يجده
إذا لعلمت أنّ أباك ... ليث فوقه لبده

ويذكر ابن عبد ربّه أبياتاً له، متسقة مع القصيدة السالفة؛ مبنىً ومعنىً. قال صاحب العقد: إنها في قيس بن مكشوح:

تـمـنـانـي عـلـى فـرس　　عـلـيـه جـالـس أسـده
عـلـى مـفـاضـة كـالـنـهـي　　أخـلـص مـاءه جـدده
فـلـو لاقـيـتـنـي لـلـقـيـت　　لـيـثـاً فـوقـه لـبـده
سبـنـتـي ضـيـغـمـاً هـصـرا　　صـلـخـداً نـاشـزاً كـبـده
يـسـامـي الـقـرن إن قـرنٌ　　يـتـمّـمـه فـيـعـتـضـده
فـيـأخـذه فـيـرديـه　　فـيـخـفـضـه فـنـقـتـصـده
فـيـدمـغـه فـيـحـطـمـه　　فـيـخـضـمـه فـيـزدرده

ونصّه التالي في معركة كان عمرو ينصر فيها جرماً المذحجية، وهي غير جرم طيء:

ولـمـا رأيت الـخـيـل زوراً كـأنـهـا　　جداول زرع أرسلت فأسبطرّت
فـجـاشـت إلـيّ الـنـفـس أول مـرة　　فردت على مكروهها فاستقرت
عـلامَ تـقـول الـرمـح يـثـقـل عـاتـقي　　إذا أنا لم أطعن إذا الخيل كرّت
لـحـا اللّه جـرمـاً كـلـمـا ذر شـارق　　وجـوه كـلاب هـارشـت فـأزبـأرت
فـلـم تـغـن جـرم نـهـدها إذ تـلاقـتـا　　ولكن جرماً في اللقاء ابذعرت
ظـلـلـت كـأنـي لـلـرمـاح دريـئـة　　أقـاتـل عـن أبـنـاء جـرم وفـرّت
فلو أنَّ قومي انطقتني رماحهم　　نـطـقـت ولـكـن الـرمـاح أجـرّت

وكثيراً ما كانت تشجر بينه وبعض أنصاره وأصهاره من مراد نوازع الفتنة، وهو يحدّد في النصّ التالي اسم المرادي الذي تهدّده بأنه (أبيّ)، وبعضهم يوردها هكذا (قُيَيْس) ونميل إلى العقد، ومن النصّ خصوصاً الأربعة الأبيات الأوّل؛ نعرف أن عمراً كان يومها قد بدأ الشيب يوهن قواه، فهو يشكو ضعف جسمه، وتقرح عاتقه في نغمة حزينة، ولكنه ما يلبث منتصف النصّ إلى آخره أن يستعيد قواه، ويرسل وعيده المرهوب المرعب لعدوّه:

أعـاذلَ شـكـتـي سـيـفـي ورمـحـي　　وكـل مـقـلـص سـلـس الـقـيـاد
أعـاذل إنـمـا أفـنـى شـبـابـي　　إجابتي الصريخ إلى المنادي
مع الأبـطـال حـتـى سلَّ جـسـمـي　　وأقـرح عـاتـقـي حـمـل الـنـجـاد

ويبقى بعد حلم القوم حلمي		ويفنى قبل زاد القوم زادي
ومن عجب عجبت له حديث		بديع ليس من بدع السداد
تمنّى أن يلاقيني أبيٌّ		وددت وأينما منّي ودادي
تمناني وسابغتي قميصي		كأن قتيرها حدق الجراد
وسيف لابن ذي كنعان عندي		تخيّر نصله من عهد عاد
فلو لاقيتني للقيت ليثا		هصوراً ذا ظبيٍّ وشباً حداد
ولاستيقنت أن الموت حق		وصرح شحم قلبك عن سواد
أريد حياته ويريد قتلي		عذيرك من خليلك من مراد

وفي الإصابة: أن عمراً يوم القادسية كان يبرز للعدوّ بين الصفّين، وأنه اختطف أحد أبطال الفرس من صفّ قومه، كما تختطف الجارية، حتى صرعه بين الصفّين، وذبحه كما تذبح الشاة وقال: هكذا فافعلوا. وورد في غير الإصابة: أنه كان ينشد يوم القادسية:

فاتنا بدر وأحد		وشهدنا القادسية
فاثبتوا للقوم ضربا		بسيوف حارثية
وارشقوا الأقوام رشقا		بسهام فارسية
واحملوا حملاً وشيكا		ثم سلوا المرهفية
واخطبوا الحور إلى الله		بقتال القادسية
كي تنالوا الفوز قدما		في غدو وعشيّة

ولما أسفرت القادسية عن هزيمة الفرس هزيمة لا نصر بعدها، وانتشرت رايات التوحيد في تلالها وجبالها، قال بطل العرب الذي يقول عنه أبو عمرو بن العلاء: ما نعدل بعمرو بن معدي كرب بطلاً آخر من العرب - عاودت عمرو الفارس المنتصر شاعريته، فقال أبياتاً يشكو ضمنها نقص العطاء:

ألمّ خيال من أميمة موهنا		وقد جعلت أولى النجوم تغور
ونحن بصحراء العذيب ودارها		حجازية أنّ المحل شطير

أكرُّ بباب القادسية معلما وسعد بني وقاص عليَّ أمير

وسعد أمير شره دون خيره كثير الشذى كأبي الزناد قصير

تذكر هداك اللّه وقع سيوفنا بباب قديس والمكر عسير

إذا برزت منهم إلينا كتيبة أتونا بأخرى كالجبال تمور

فضاربتهم حتى تفرق جمعهم وطاعنت إنّي بالطعان مهير

والآن، وقد أوشك لنا أن نودّع أبا ثور؛ نورد له نصّين أولهما من شعر صباه، وأيامه الأولى في غضارة الشباب وعرام الفتوة. وثانيهما: تدلّ الأبيات الأخيرة منه أنه قيل بعد معركة القادسية، وعلى هذا فلا يبعد أن يكون آخر شعر قاله. وقد يمكن لمنْ عرفه الأقدمون بانتحال الشعر أن ينتحل شعر من شاء، إلا شعر أبي ثور؛ فإنه عصيّ على الانتحال، لأنه أولاً بمثابة المذكرات التاريخية لحياة صاحبه. وثانياً لاشتماله على أعلام الرجال والأماكن، التي كانت ذات شأن في معاركه وأيامه. وثالثاً وهذا هو الأهم؛ لأنّ عمراً كان من ذوي النفوس الكبيرة القوية، فهو يطبع شعره بطابعه النفسي، ولقد تُحكى الملامح الجسمية، ولا سبيل إلى محاكاة الطابع النفسي المميز لصاحبه. وإليك النصّين:

ديار أقفرت من أم سلمى بها دعس المغرب والمراح

وقفت بها فناداني صحابي أغالبك الهوى أم أنت صاح؟

وكم من فتيةٍ أبناء حرب على جردٍ ضوامر كالقدح؟

وصف ما تساير حجرتاه بتيشره الأشائم بالشياح

شهدت طراده بأقبّ نهد كتيس الربّل معتدل وقاح

يقول له الفوارس إذ رأوه نرى مسداً أمرّ على رماح

إذا قاموا إليه ليلجموه تمطّى فوق أعمدة صحاح

إذا ورّعت من لحييه شيئا سما متقاذف التقريب طاحي

إذا ما الركض أسهل جانبيه تهزّم رعد مبتركٍ جلاح

فلم نقتل شرارهم ولكن قتلنا الصالحين ذوي السلاح

قتلنا مطعم الأطياف منهم وأصحاب الكريهة والصباح
فأثكلنا الحليلة من بنيها وخلينا الخريدة للنكاح

ويقول صاحب الأمالي: أنّ عمراً حضر مع طليحة معركة نهاوند، وكان الفاروق قد أمر بأخذ رأيهما في المعركة:

(فلما قدم كتاب عمر بعث إليهما فقال: ما عندك يا عمرو. فقال: أرني كبش القوم؛ فأعتنقه حتى يموت أو أموت، وقال طليحة: أيَّ ناحية شئتم، فأنا أدخل على القوم منها، فلما التقوا أتاهم طليحة من خلفهم، وأمّا عمرو فشدّ على كميٍّ من القوم فقتله، وقتل النعمان بن مقرن يومئذٍ، وأخذ الراية حذيفة بن اليمان حتى فتح الله عليهم، واجتمعت العرب، فتفاخروا؛ فقال عمرو بن معد يكرب في ذلك:

لمن الديار بروضة السلان فالرقمين فجانب الصّمان
لعبت بها هوج الرياح وبُدلت بعد الأنيس مكانس الثيران
فكأن ما أبقين من آياتها رقم ينمّق بالأكفّ يمان
دار لعمرة إذ تريك مفلحا عذاب المذاقة واضح الألوان
خصراً يشبه برده وبياضه بالثلج أو بمنور القحوان
وكأن طعم مدامة جبليّة بالمسك والكافور والريحان
والشهد شيب بماء ورد باردٍ منها على المتنفّس الوهنان
وأغرَّ مصقولاً وعيني يؤذر ومقلداً كمقلد الأدمان
سنت عليه قلائداً منظومة بالشذر والياقوت والمرجان
ولقد تعارفت الضباب وجعفر وبنو أبي بكر بنو الهصّان
سبباً على القعدات تخفق فوقهم رايات أبيض كالفنيق هجان
والأشعث الكندي حين سمالنا من حضرموت مجنب الذكران
قاد الجياد على وجاها شزبان قبٌّ البطون نواحل الأبدان
حتى إذا أسرى وأوّب دوننا من حضرموت إلى قضيب يمان
أضحى وقد كانت عليه بلادنا محفوفة كحظيرة البستان

فدعا فسوّمها وأيقن أنه لا شكّ يوم تسايف وطعان
لما رأى الجمع المصبّح خيله مبثوثة ككواسر العقبان
فزعوا إلى الحصن المذاكي عندهم وسط البيوت يردن في الألبان
خيل مربّطة على أعلافها يقفين دون الحيّ بالألبان
وسعت نساؤهم بكل مفاضة جدلاء سابغة وبالأبدان
فقذفنهنّ على كهول سادة وعلى شرامخه من الشبان
حتى إذا خفت الدعاء وصرعت قتلى لمنقعر من الغلان
نشد والبقيّة وأفتروا من وقعنا بالركض في الأدغال والقيعان
واستسلموا بعد القتال فإنما يتربقون تربّق الحملان
فأصيب في تسعين من أشرافهم أسرى مصفدة إلى الأذقان
فثتاوقاظ رئيس كندة عندنا في غير منقصه وغير هوان
والقادسية حيث زاحم رستم كنا الحماة بهنّ كالأشطان
الضاربين بكل أبيض مخدم والطاعنين مجامع الأضغان
ومضى ربيع بالجنود مشرقا ينوي الجهاد وطاعة الرحمٰن
حتى استباح قرى السواد وفارس والسهل والأجبال من مكران

ومما أورده له الدكتور السومحي، في كتابه عن أدب اليمن في القرنين الثاني والثالث الهجريين، قوله مرتجزاً يوم القادسية:

أنا أبو ثور وسيفي ذو النون أضربهم ضرب غلام مجنون
يا لزبيد إنهم يموتون

ولا يخفى اعتناء فارس كعمرو بأصالة فرسه، وقد كانت تدعى الكاملة، ومحاولة سلمان بن ربيعة العامري تهجين تلك الفرس الكاملة بنت البعيث، فقال:

يهجّن سلمان بنت البعيث جهلاً لسلمان بالكاملة
فإن كان أبصر مني بها فأمّي لا أمّه الثاكلة

وقد أسلفنا اختلافه مع قيس بن مكشوح، وعداء قيس لأبناء الفرس بصنعاء

أولاً أيام الأسود، ثم موالاته لهم قبيل مقتل الأسود:

غدرت ولم تحسن وفاءً ولم يكن ليحتمل الأسباب إلا المعود
وكيف لقيس أن ينوط نفسه إذا ما جرى والمضرحي المسوَّد

وله أبيات سبعة، أساء فيها ذكره لسعد بن أبي وقاص؛ أضربنا عن إيرادها.

(٣)

عبد الله بن الدمينة الخثعمي

هو كما ذكره أكثر من مصدر: عبد الله بن عبد الله، أحد بني عامر بن تيم الله، خثعم بن أنمار الكهلانية، حدّد الهمداني في صفة الجزيرة مواطن خثعم من السراة ما بين صعدة والطائف؛ فقال:

(ثم يتلوها سراة عنز وسراة الحجر نجدها خثعم، وغورهم بارق، ثم سراة ناه من الأزد، وبنو القرن وبنو خالد نجدهم خثعم، وغورهم قبائل من الأزد، ثم سراة الخال لشكر نجدهم خثعم، وغورهم قبائل من الأسد بن عمران) اهـ.

وقال الزركلي:

(افترق أبناء خثعم في الآفاق أيام الفتح، فلم يبق منهم في مواطنهم إلا القليل، قال ابن حزم: ومن خثعم كان عثمان بن أبي نسعة، ممن ولي الأندلس، وولده في شذوبة، وهي دار خثعم بالأندلس. وقال عرام: من منازل خثعم جبال السراة، وكانت لهم قرية راسب بين مكة والطائف. وعدّ الأشرف الرسولي من قبائل خثعم أربعاً هي: شهران، وناهس، وكود، وأكلب).

وقال العلامة التبريزي شارح الحماسة:

(شاعر إسلامي مجيد محسن، سجنه مصعب بن الزبير في دم كان قبله، فأخرجه قومه من السجن، وهرب إلى صنعاء).

ويضيف الزركلي: أن مصعب بن عبد الله السلولي، اغتاله منصرفه من الحجّ سنة١٣٠هـ، وشعره في غاية الرقة، وحرارة العاطفة، كان العباس بن الأحنف كثيراً ما يعجب به لإجادته الشعرية أولاً، ولكونه على مذهبه، فلم يمدح ولم يهجو أحداً، وهو عندي أفحل وأنبل ممّن يدعونه بوضاح اليمن، فيلغون باسمه وقصّته في أعراض المحصنات، كأم البنين أخت الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز:

قال:

أما يستفيق القلب إلا انبرى له ... توهّم صيف من سعاد ومربع
أخادع عن أطلالها العين إنه ... متى تعرف الأطلال عينيك تدمع
عهدت بها وحشاً عليها براقع ... وهذي وحوش أصبحت لم تبرقع

وقال:

ولما لحقنا بالحمول ودونها ... خميص الحشا توهي القميص عواتقه
قليل قذى العينين يعلم إنه ... هو الموت إن لم تصرعنا بوائقه
عرضنا فسلمنا فسلّم كارها ... علينا وتبريح من الغيظ خانقه
فسايرته مقدار ميل وليتني ... بكرهي له ما دام حياً أرافقه
فلما رأت أن لا وصال وأنه ... مدى الصرم مضروب علينا سرادقه
رمتني بطرق لو كمياً رمت به ... لبل نجيعاً نحره وبنائقه
ولمح بعينيها كأن وميضه ... وميض الحيا تهدى لنجد شقائقه

وقال:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد ... لقد زادني مسراك وجداً على وجد
أأن هتفت ورقاء في رونق الضحي ... على فنن غضّ النبات من الرند
بكيت كما يبكي الوليد ولم تكن ... جليداً وأبديت الذي لم تكن تبدي
وقد زعموا أن المحبَّ إذا دنا ... يمل وأنّ النأي يشفي من الوجد
بكلّ تداوينا فلم يشف ما بنا ... على أنَّ قرب الدار خير من البعد
على أنّ قرب الدار ليس بنافع ... إذا كان من تهواه ليس بذي عهد

وقال: في البيت الأول يذكر وادي المياه، وهو واد سماوة كلب بين الشام والعراق:

ألا لا أرى وادي المياه يثيب ولا النفس عن وادي المياه تطيب
أحبّ هبوط الواديين وإنني لمشتهر بالواديين غريب
أحقاً عباد الله أن لست واردا ولا صادراً إلا عليَّ رقيب؟
ولا زائراً فرداً ولا في جماعة من الناس إلا قيل أنت مريب؟
وهل ريبة في أن تحنَّ نجيبة إلى إلفها أو أن يحنَّ نجيب؟
وإن الكثيب الفرد من جانب الحمى إليَّ وإن لم آته لحبيب
لك اللّه إني واصل ما وصلتني ومثنٍ بما أوليتني ومثيب
فلا تتركي نفسي شعاعاً فإنها من الوجد قد كانت عليك تذوب
وإني لأستحييك حتى كأنما عليَّ بظهر الغيب منك رقيب

وقال:

وأنت التي كلفتني دلج السّرى وجون القطا بالجلهتين جثوم
وأنت التي قطعت قلبي حزازة وفرّقت قرح القلب فهو كليم
وأنت التي أحفظت قومي فكلهم بعيد الرضا داني الصدود كظيم

وقال:

وإذا عتبت عليَّ بتُّ كأنني بالليل مختلس الرقاد سليم
ولقد أردت الصبر عنك فعاقني علق بقلبي من هواك قديم
يبقى على حدث الزمان وريبه وعلى جفائك إنه لكريم

(٤)

عمارة بن علي بن زيدان الحكمي

هو الفقيه النابه، والشاعر المجيد: عمارة بن علي بن محمد بن زيدان الحكمي، نسبة إلى الحكم بن سعد، العشيرة القبيلة المذحجية المعروفة، ولد كما يخبر عن نفسه بقرية الزرائب، من بلاد الحكم، التي كانت تعرف ببلاد المخلاف السليماني، وهي اليوم مقاطعة جازان المعروفة، غير محدّد عام ولادته، ولكنه كان ربما منتصف العقد الثاني من القرن السادس الهجري في أسرة كريمة نابهة، إذ كان لجده حصن العكوتين وعكاد، الذي أشار إليه عند ذكره لمعارك الملك علي بن محمد الصليحي بجهة الزرائب؛ إذْ قال في المفيد[١]:

(الوطن الذي ولدت فيه، وبها أهلي إلى اليوم، فاستحرَّ القتل أول اليوم في العرب، ثم كانت الدائرة على السودان، فلم يبق منهم أحد إلا ألف رجل، أجارهم جدي أحمد بن محمد في حصنه بعكوة، والعكوتان جبلان منيعان، لا يطمع أحدٌ في حصارهما، وفيهما يقول راجز الحاج إذا نفروا، يخاطب عينه:

إذا رأيت جبلي عكاد   وعكوتين من مكان باد

فأبشري يا عين بالرقاد

وجبل عكاد مكان فوق مدينة الزرائب، وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم. ولم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا قطّ بأحد من أهل الحاضرة في مناكحة ولا مساكنة، وهم أهل قرار لا يظعنون عنه، ولا يخرجون منه. ولقد أذكر أني دخلت زبيد في سنة ثلاثين وخمسمائة أطلب الفقه، وأنا يومئذٍ دون العشرين، فكان الفقهاء في جميع المدارس يتعجبون من كوني لا ألحن شيئاً من الكلام، فأقسم الفقيه نصر الله بن سالم الحضرمي بالله القدير؛ لقد قرأ هذا الصبي

(١) وله في «النكات العصرية» ما ترجم به نفسه، وفيه بعض الاختلاف عمّا ذكره في المفيد.

في النحو قراءة كثيرة، فلما طالت المدة والخلطة بيني وبينه صرت إذا لقيته يقول: مرحباً بمن حنثت في يميني لأجله. ولما زارني والدي وستة من إخواني إلى زبيد، أحضرت الفقهاء فتحدثوا معهم، فلا والله ما لحن أحدهم لحنة واحدة أثبتوها عليه).

ولم يكن جدّه وحده ذا شأن مذكور، وإنما أيضاً كان لعمه شقيق والده الفقيه إبراهيم بن محمد بن زيدان مشاركة في الشؤون العامة على مستوى القطر اليمني. يقول عمارة في المفيد، عن تفاصيل استيلاء الفقهاء على حصن التعكر، الذي كان يومها معقل المفضل بن أبي البركات، أحد رجال الدولة الصليحية (فحين خلى نائب له يسمى «الجمل» متقمصاً ومتسماً بالدين، فصعد إليه إلى التعكر سبعة من إخوانه الفقهاء منهم: محمد بن قيس الوحاظي، ومنهم عبد الله بن يحيى، ومنهم إبراهيم بن زيدان، وله كانت البيعة، وهو عمي أخو والدي لأبيه وأمه، فأخذوا الحصن من الجمل، وكانت الرعايا فأوقدوا النار ففعلوا ذلك ليلاً، فأصبح عندهم على باب الحصن عشرون ألفاً. رد من السنة قد قالوا للفقهاء إذا حصلتهم في رأس الحصن.

واستولت الفقهاء على ملك لم يعهدوه، ووصل الخبر إلى المفضل بتهامة، فسار لا يلوي على أحد، حتى وصل التعكر، وحصر الفقهاء، وقامت خولان في نصرة الفقهاء، وقام الحصار عليهم، ثم رأوا أن خولان خاذلتهم؛ فقال لهم إبراهيم بن زيدان: لن أموت حتى أقتل المفضل، ثم أهلاً بالموت، فعمد إلى حظاياه من السراري، فأخرجهنّ في أكمل زيّ وأحسنه، وجعل بأيديهن الطارات، وأطلعهم على سقوف القصور؛ بحيث يشاهدهن المفضل، ويسمع هو ومن معه من تلك الأمم أصواتهن. وكان المفضل أكثر الناس غيرة وأنفة فقيل: إنه مات في تلك الليلة. وقال آخرون: امتصَّ خاتماً كان معداً عنده، فأصبح ميتاً، والخاتم في فيه، وكان موته في رمضان سنة أربع وخمسمائة).

من كل ذلك نعرف سموّ أسرته إلى المعالي، ونباهة شأن أفرادها علماً وأدباً ورياسة، كما نعرف من شعر عمارة، الذي سنمرُّ به في هذه الصفحات، عند رثائه لولده البكر محمد المتوفي بمصر، أن عمارة تزوج مبكراً في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره، وأنجب ولده ذاك الذي كان من لم يعرفه يظنه أخاه، لتقارب سنهما. وإذا كنا نذهب إلى أنّ عمارة ولد سنة ٥١٥هـ، فإنّ دخوله إلى

زبيد طلباً للعلم سنة ٥٣١هـ كان بعد زواجه، واستمر بزبيد يأخذ عن كبار علمائها في فروع الشافعية وعلوم اللغة، وساعده على سرعة الاستيعاب استواء فهمه. وحدّة ذكائه. ويظهر أنه كان مولعاً بالتجارة كسباً للرزق الحلال؛ فدخل عدن تاجراً سنة ٥٣٥هـ، والتقى الوزير الأديب أبا بكر العيدي، وزير الدولة الزريعية، ففاتحه على مدح السلطان طلباً لرفده، وكان العيدي يحبّ الخير للآخرين، فسارع بوضع قصيدة على لسان عمارة حين علم بعدم وجود تجربة سابقة له في الشعر، وألقاها نيابة عنه بين يدي السلطان، واستخرج له جائزة سنية، وكانت تلك أول علاقة بين عمارة والشعر، وفي خبر العيدي هذا يقول في مفيده:

(وذلك أني دخلت عدن تاجراً، في سنة ست أو خمس وثلاثين، فلقيني وأنزلني، ثم قال لي: ألا تعمل شعراً تهنىء به الداعي محمد بن سبأ بعرسه على ابنة بلال؛ قلت: فإني لست بشاعر، فلم يزل يحسن لي ذلك؛ حتى عملت شعراً عشائرياً فتناول كراسة بيضاء، وكتب فيها ما لم أعلم، وإذا فيها قصيدة من شعره عملها على لساني، ووصف فيها المنازل والمناهل من زبيد إلى عدن، ومدح وهنأ بالعروسة بألفاظ خاصة كتابية، ثم تولى نشيدها عني في المنظر، وأنا صنم لا أنطق، ثم استخلص لي جائزة من الداعي، وجائزة من بلال، وطيباً، واشترى لي بضاعة بالمال الذي كان معي؛ فلما عزمت على السفر قال: إنك قد سميت عند القوم باسم شاعر؛ فانظر لنفسك، وطالع في كتب الأدب، ولا تجمد على الفقه وحده؛ فإن فضيلة اللسان حلية الإنسان.

ثم قدمت في العام الثاني، وقد عملت شعراً أصلح من الأول، ومعي إنسان جمال يقال له: الزعلي، فقال لي الأديب: ما رأيك أن ننفع هذا الإنسان بشيء لا يضرنا؟ فقلت: وما هو؟ قال: أعمل أنا وأنت قصيدة على لسانه، ففعل واستنجز له صلة من الداعي محمد بن سبأ، فلما انفض الجمع دعاني الداعي محمد وقال: إذا سألتك عن شيء تنصحني؟ قلت: نعم. قال: أظن أن هذا الإنسان الذي أخذ له الأديب الدنانير جمال؟ فقلت: هو والله جمال، وإنما فضل طباع الأديب ومعونتكم على فعل الخير صيّرت هذا وأمثاله شاعراً، فضحك الداعي وأعاد الجمال؛ فزاده ذهباً).

ويذكر الجندي في كتابه السلوك: أن عمارة أودع ديوانه مدائح لآل زريع

سلاطين عدن. ولا ندري كم هي تلك القصائد، ولا ما أمكن لها من التوفيق الفني؟ لأننا حتى الآن لم يتيسر لنا ديوان عمارة، ولم نجمع ما جمعناه هنا من نصوصه الشعرية، إلا لحرصنا عليه، وتلهفنا على تقديمه للقارئ:

ثم عاد إلى زبيد، ودخل سنة ٥٤٨ مكة حاجاً، وافتتح دروساً بالحرم، وتعرف على أمير مكة ابن فليتة، واختلط به قرابة عام، ويظهر أن عمارة كان يمتاز بشخصية آسرة سريعة التأثير في الآخرين، فعلى قلة الفترة التي قضاها مع ابن فليتة فإنّه أصبح محلَّ سره، ومحط ثقته، فابتعثه سفيراً إلى مصر التي دخلها سنة ٥٥٠هـ، التقى ملكها الفائز ووزيره طلائع بن رزيك، وكأنما كان دخوله مصر انفجاراً لشاعريته، وإيذاناً بتحوله من فقيه فرضي قاضٍ إلى شاعر كبير وسفير موفق. وهنالك ألقى مدحته السائرة:

الحمد للعيس بعد العزم والهمم ... حمداً يقوم بما أولت من النعم
لا أجحد الحق عندي للركاب يدٌ ... تمنّت اللجم فيها رتبة الخطم
قربن بعد مزار العزّ من نظري ... حتى رأيت إمام العصر من أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم ... وفداً إلى كعبة المعروف والكرم
فهل درى البيت أني بعد فرقته ... ما سرت من حرم إلا إلى حرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها ... بين النقيضين من عفو ومن نقم
وللإمامة أنوار مقدسة ... تجلو البغيضين من ظُلم ومن ظلم
وللنبوة آيات تنصّ لنا ... على الخفيين من حكم ومن حكم
وللمكارم أعلام تعلمنا ... مدح الجزيلين من بأس ومن كرم
وللعلا ألسن تثني محامدها ... على الحميدين من فعل ومن شيم
وراية الشرف البذاخ ترفعها ... يد الرفيعين من مجد ومن همم
أقسمت بالفائز المعصوم معتقدا ... فوز النجاة وأجر البرّ في القسم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلهما ... وزيره الصالح الفراج لغمم
اللابس الفخر لم تنسج غلائله ... إلا يد الصَّنعين السيف والقلم

وجوده أوجد الأيام ما اقترحت | وجوده أعدم الشاكين للعدم
قد ملّكته العوالي رقّ مملكه | تعير أنف الثريا عزّة الشمم
أرى مقاماً عظيم الشأن أوهمني | في يقظتي أنها من جملة الحلم
يوم من العمر لم يخطر على أمّلي | ولا ترقت إليه رغبة الهمم
ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها | عقود مدح فما أرضى لكم كلمي
ترى الوزارة فيه وهي باذلة | عند الخلافة نصحاً غير متهم
عواطف علمتنا أنَّ بينهما | قرابة من جميل الرأي لا الرحم
خليفة ووزير مدّ عدلهما | ظلاً على مفرق الإسلام والأمم
زيادة النيل نقص عند قبضهما | فما عسى نتعاطى منّة الديم

وتجمع المصادر على عودة عمارة بعدها إلى الحجاز، ومنها إلى اليمن، وأحسبه عاد ليصطحب أسرته في رحلته الأخيرة إلى مصر؛ حيث استوطنها حتى لقي ربّه بها. ومن خلائق عمارة البارزة الوفاء، وأحقّ المواطن بوفائه البلدة التي نبت فيها، والوطن الذي احتضنه وربّاه (اليمن)، ومن شواهد وفائه له إفراده كتاباً مستقلاً في تأريخه العام هو المفيد، وكثيراً ما كان يعتز بيمنيته وقومه، من مثل قوله في خطابه لابن رزيك:

إلى الذي لولا سنى وجهه | أظلم في عيني سنى الكوكب
من يعرب العرباء حين التقت | شعائب السؤود من يعرب
قومي الألى يرجح ميزانهم | إن فاضلوا أو ناضلوا الناس بي
أيّ مقام قمت فيه لهم | بحجة المجد فلم أغلب
إن ذكر الإسلام لم يفتخر | غيرهم حي بنصر النبي
أو ذكر الجود فمن طيء | أبو عدي نجعة المجدب
وهذه أفعال أبنائهم | حاضرة تشهد للغيب

أمّا وفاؤه لمعارفه من الأفراد، فقد مرَّ بنا ثناؤه العاطر على أبي بكر العندي أو العيدي، وكلاهما صحيح، لأنه كان أول من فتح له مدينة الشعر، وزمَّ ركائبه

إلى مجالس الملوك، فوضع بذلك نقطة التحول الكبير في حياته. ووفاؤه لطلائع بن رزيك مثنياً عليه، ومنافحاً عنه، لا في أيام دولته فقط، وإنما بعد اغتياله، وفي مجلس عدوّه شاور. ثم وفاؤه لشاور هذا، وإطراؤه لهمته. يقول معرباً عن ارتحاله إلى مصر، وتحقق آماله بها بعد سفرته الأولى:

من لي بأن ترد الحجاز وغيرها ... أخبار طيب مواردي ومصادري
زارت بي الآمال أكرم ساحة ... فوق الثرى فغدوت أكرم زائر
ووفدت ألتمس الكرامة والغنى ... فرجعت من كلٍّ بحظ وافر
فكأن مكة قال صادق فألها ... سافر تعد نحوي بوجه سافر

ويقول مثنياً على استبسال طلائع في مواجهة الصليبيين:

تيقنت الإفرنج أنك إن ترد ... ديارهم لم ينجهم منك مهرب
وخافتك أن لم تعطها الأمن منعما ... فجاءتك يا ليث الشرى تتغلب
واهدوا رجال السلم آلة حربهم ... ومن بعض ما أهدوا مجنّ ومقضب
وذلك فأل صادق أن عزهم ... بسيفك يا سيف الهدى سوف يسلب
لك الرأي لم تفلل ظباه ولم يفل ... إذا ظلت الآراء تطفو وترسب
وما شئت فاصنع راشداً في سؤالهم ... فرأيك من رأي البرية أصوب

ولما فتك رجال الإمام الفاطمي بطلائع داخل قصر الإمام عن أمر منه، واتضح للجميع أن الوزير ذهب بأمر القصر الذي كان يستوزره؛ لم يتلجلج عمارة في رثاء الوزير القتيل، وفاءً له بعد مماته؛ بنفس درجة ثنائه عليه أيام دولته، وفي حياته:

أفي أهل ذا النادي عليم أسائله ... فإني لما بي ذاهب اللبّ ذاهله
سمعت حديثاً أحسد الصمّ عنده ... ويذهل واعيه ويخرس قائله
فهل من جواب يستغيث به المنى ... ويعلو على حق المصيبة باطله
وقد رابني من شاهد الحال أنني ... أرى الدّست منصوباً وما فيه كامله
فهل غاب عنه واستناب سليله ... أم اختار هجراً لا يرجّي تواصله

فإني أرى فوق الوجوه كآبة تدلُّ على أن الوجوه ثواكله
دعوني فما هذا أوان بكائه سيأتيكم طلُّ البكاء ووابله
ولا تنكروا حزني عليه فإنه تقشع عني وابل كنت آمله
ولم لا نبكيه ونندب فقده وأولادنا أيتامه وأرامله
فيا ليت شعري بعد حسن فعاله وقد غاب عنا ما بنا الله فاعله؟
أيكرم مثوى ضيفكم وغريبكم فيمكث أم تطوى ببين مراحله؟

وباغتيال طلائع سنة ٥٥٦، وقيام ولده العادل بعده، وكان ضعيفاً؛ تضعضعت دولة بني رزيك، فما لبث عدوّهم القوي «شاور» أن انطلق من الصعيد، واقتحم القاهرة محرم سنة ٥٥٨، وشهدته القاهرة يتربع دست الدولة، نفس الموقع الذي كان يشغله بكفاءة طلائع، وبعده ولده العادل الفارّ من شاور. وفي ذلك الموقف المهيب سمع التأريخ عمارة يخاطب شاور المنتصر، ثناءً عليه، وتعريفاً له بمكانة عدوّه ابن رزيك:

صحّت بدولتك الأيام من سقم وزال ما يشتكيه الدهر من ألم
زالت ليالي بني رزيك وانصرمت والحمد والذم فيها غير منصرم
كأن صالحهم يوماً وعادلهم في صدر ذا الدست لم يقعد ولم يقم
هم حركوها عليهم وهي ساكنة والسلم قد ينبت الأوراق في السلم
كنا نظن وبعض الظنّ مأثمة بأن ذلك جمع غير منهزم
فمذ وقعت وقوع النسر خانهم من كان مجتمعاً من ذلك الرخم
وما قصدت بتعظيمي عداك سوى تعظيم شأنك فاعذرني ولا تلم
ولو شكرت لياليهم محافظة لعهدها لم يكن بالعهد من قدم
ولو فتحت فمي يوماً بذمّهم لم يرض فضلك إلا أن يسدَّ فمي
واللّه يأمر بالإحسان عارفة منه وينهى عن الفحشاء في الكلم

وقد كانت الدولة الفاطمية يومها تحتضر، فشاور هذا لم يلبث إلا شهوراً، حتى هاجمه عدو آخر له أقوى منه؛ فلم يجد ملاذاً غير اللجوء إلى نور الدين

زنكي، السلطان الشهيد الذي أمدّه من الشام بأبرز رجاله «أسد الدين شيركوه» عمّ السلطان صلاح الدين، وكانت تلك بداية النفوذ الأيوبي بمصر، ونهاية نفوذ العبيديين، وتمّ لشاور بقوة نصيره العودة إلى دست الوزارة المصرية، ويشهد عمارة لشاور الذي لبث في الحكم بعدها إلى سنة ٥٦٤هـ، بقوة الشكيمة، وعلو الهمة:

ضجر الحديد من الحديد وشاور   من نصر دين محمد لم يضجر
حلف الزمان ليأتينَّ بمثله   حنثت يمينك يا زمان فكفّر

ويقول الأخباريون: إنّ صلاح الدين هو الذي قبض بنفسه على شاور، بعد أن آنس من شاور اتصالات مريبة بالصليبين، رجاء التخلص بواسطتهم من الأيوبيين، وبمقتل شاور انتهت الدولة العبيدية بمصر التي كان آخر رجالها العاضد، وهنا كان الوفاء الخارق المغامر والمستميت لعمارة في بكاء الدولة العبيدية، والحنين إلى رجوعها، ولقد أذاب أنفاسه في أصدق رثاء بكاء، وأنبل وفاء، دون تحفظ من الأيوبيين، وعلى مسمع رجالهم:

أسفي على زمن الإمام العاضد   أسف العقيم على فراق الواحد
لهفي على حجرات قصرك إذْ خلت   يا ابن النبيّ من ازدحام الوافد
وعلى انفرادك من عساكرك التي   كانوا كأمواج الخضمّ الراكد
قلدت مؤتمناً عليهم أمرهم   فكبا وقصّر عن صلاح الفاسد
فعسى الليالي أن تردَّ إليكم   ما عودتكم من جميل عوائد

وينفث لاميّته التي ما بكيت دولة بمثلها:

لهفي ولهف بني الآمال قاطبة   على فجيعتها في أكرم الدول
قدمت مصر فأولتني خلائفها   من المكارم ما أربى على الأمل
مررت بالقصر والأركان خالية   من الوفود وكانت قبلة القبل
فملت عنها بوجهي خوف منتقد   من الأعادي ووجه الود لم يمل
أسلت من أسفي دمعي غداة خلت   رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكي على ما تراءت من مكارمكم   حال الزمان عليها وهي لم تحل
دار الضيافة كانت آنس وافدكم   واليوم أوحش من رسم ومن طلل

وكسوة الناس في الفصلين قد درست ورثّ منها جديد عندهم وبلي
وموسم كان في يوم الخليج لكم يأتي تجملكم فيه على الجمل
وأول العام والعيدين كان لكم فيهن وابل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز في يوم الغدير كما يهتز ما بين قصريكم من الأسل
والخيل تعرض في وشي وفي شية مثل العرائس في حلي وفي حلل
وما حملتم قرى الأضياف من اسعة الأطباق إلا على الأكتاف والعجل
وما خصصتم ببرٍّ أهل ملّتكم حتى عممتم به الأقصى من الملل
المقيم وللطاري من الرسل ثم الطراز بتنيس الذي عظمت[1]
كانت رواتبكم للذمتين وللصف منه الصلات لأهل الأرض والدول[2]
باب النجاة هم دنيا وآخرة وحبهم فهو أصل الدين والعمل
واللّه ما ذلت عن حبيّ لهم أبدا ما أخر اللّه لي في مدة الأجل

ويقول:

لما رأيت عراص القصر خالية من الأنيس وما في الربع سادات
أيقنت أنّهم عن ربعهم رحلوا وخلفوني وفي قلبي حزازات
سألت أبله قلبي في السلو وقد يقال للبله في الدنيا إصابات
فقال رأي ضعيف لا يطاوعني كيف السلوّ وأهل القصر قد ماتوا
يا ربُّ إن كان لي في قربهم طمع عجل بذلك فالتسويف آفات

ويقول:

أسفي لملك عاضدي عطلت حجراته بعد الندى والبأس
أخذت بنان الغز من أمواله ورجاله بمخانق الأنفاس
وعسى الليالي أن ترد زمانكم لدناً كعود اليانة المياس
ابني علي والبتول وأحمد وكواكب الدنيا وخير الناس

(١) أصل البيت: كانت رواتبكم للذمتين وللضيف المقيم وللطاري من الرسل
(٢) أصل البيت: ثم الطراز بتنيس الذي عظمت منه الصلاة لأهل الأرض والدول

ورغم تلك المعالنة الصريحة، والمصممة، والمستمرة على بكاء الدولة الغاربة، إلا أن عمارة كان ينسج خيوط الاتصال بينه وبين الدولة الأيوبية البازغة، وكان القاضي الفاضل وهو تنوخي الأورمة أهمّ تلك الخيوط، ولعل اهتمام القاضي الفاضل وتبريزه في مجال الترسل النثري؛ جعل عمارة يكشف له عن كعبه العالي في هذا الميدان، فاستجاب لطلبه، ووضع كتابه التأريخي (المفيد في أخبار صنعاء وزبيد):

(في سنة ثلاثة وستين وخمسمائة، حضرت مجلس المولى القاضي الأجل الفاضل: أبي علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف، بهاء الدين أبي المجد البيساني؛ حرس الله علوه وأدام سموه، وهو يومئذٍ صاحب ديوان الإنشاء، عن الخلافة العاضدية ضاعف الله قدرتها، وأعزّ نصرتها؛ فحداني بل هداني أمره إلى وضع كتاب أجمع فيه ما علق بحفظي، من أخبار جزيرة اليمن: سهلاً ووعراً وبراً وبحراً، ومدد ممالكها، وأبعاد مسالكها، وحروب أهليها، ووقائعهم ومآثرهم، وصنائعهم، وأخبار قضاتها ودعاتها، وأخبار أعيانها وأمرائها، ومن روي لي عنه، أو رأيته من شعرائها، فامتثلت في ذلك ما يندب إليه).

هو ذا يمدح رجل الدولة الأيوبية القوي: صلاح الدين في بداياته الباكرة:

تركت قلوب المشركين خوافقا وبات لواء النصر فوقك يخفق
لئن سكن الإسلام جأشا فإنه بما قد تركتم خاطر الكفر يفرق
سمت بصلاح الدين ملة أحمد وطائرها فوق السماك محلق
لك الخير، قد طال انتظاري وأطلقت لغيري أرزاق ورزقي معوق
كأنك لم يسمع بجودك مغربٌ ولم يتحدث عن عطائك مشرق
وإني من تاريخ أيامك التي بها سابق التأريخ يمحي ويمحق
صدقتك فيما قلت أو أنا قائل بأنك خير الناس والصدق أوثق
وأن أنمى إليك وانتمي وأحسن من ظني وأنت تحقق

وهو ذا يشكو إليه معاناته المريرة في عهدّ دولته ضمن قصيدة طويلة، جعل

عنوانها: (شكاية المتظلم، ونكاية المتألم) يقول فيها:

أيا أذن الأيام إن قلت فاسمعي   لنفثة مصدور وأنه موجع
تقاصر بي خطب الزمان وباعه   فقصر عن ذرعي وقصر أذرعي
فيممت مصر أطلب الجاه والغنى   فنلتهما في ظل عيش ممنع
وزرت ملوك النيل إذ زاد نيلهم   فأحمد مرتادي وأخصب مرتعي
ملوك رعوا لي حرمة صار نبتها   هشما رعته النائبات وما رعي
مذاهبهم في الجود مذهب سنة   وإن خالفوني في اعتقاد التشيع
فقل لصلاح الدين والعدل شأنه   من الحكم المصغي إلي فادعي
سكت فقالت ناطقات ضرورة   إذا حلقات الباب غلقن فارجع
وعندي من الآداب ما لو شرحته   تيقنت أني قدوة ابن المقفع
إلى الله أشكو من ليالي ضرورة   رجعنا بها نحو الجناب المرجع
قنعنا ولم نسألك صبراً وعفة   إلى أن عدمنا بلغة المتقنع
ولما أغصّ الريق مجرى حلوقنا   أتيناك نشكو غصّة المتوجع
فإن كنت ترعى الناس للفقه وحده   فمنه طرازي بل لثامي وبرقعي
ألم ترعني للشافعي وأنتم   أجل شفيع عند أعلى مشفع؟
أمن حسنات الدهر أم سيئاته   رضاك عن الدنيا بما فعلت معي؟
ملكت عنان النصر ثم خذلتني   وحالي بمرأى من علاك ومسمعي

على أنَّ كل مواجعه ومعاناته ما كانت لتنسيه وفاءه للعبيديين، فيروى: أن شاعراً يدعى الرضا الأحدب وقف يمدح نجم الدين بن أيوب والد صلاح الدين، فلم يجد ما يمدحه به إلا الطعن في الذاهبين:

يا مالك الأرض لا أرضى بها طرفا   منها وما كان منها لم يكن طرفا
قد عجَّل اللّه هذا الدار تسكنها   وقد أعدّت لك الجنّات والغرفا
كانوا بها صدفاً والدار لؤلؤة   وأنت لؤلؤة صارت بها صدفا

فلم يجد عمارة بداً من أن يجبهه بنفس الموقف:

فالكلب يا كلب أسنى منك مكرمة لأن فيه حفاظاً دائماً ووفا

ذلك هو عمارة الشاعر المجيد، والفقيه الشجاع، والكاتب المؤرخ، الذي أبى له طموحه إلا أن يفارق زبيد، ويعزف عن عدن، ويتجاوز إلى بلاط القاهرة؛ ينال من الحظوة ما ينال، ثم يتضعضع به الحال، وتتوالى عليه النكبات، فهو ذا يرزأ في نجله الأكبر محمد؛ فيرسل هذه الدمعة الحارة:

أيا سفح المقطم كم سفحنا على مجراك من دمع هتون
لئن أبلت لك الدنيا جبينا فثكلي فيك قد أبلى جبيني
كأنك يا محمد لم تدافع صدور نوائب الأيام دوني
رزقتك بعد إدراكي بعام فلم تبعد سنينك عن سنيني
فكنت إذا العيون رنت إلينا أخي في كل عين أو قريني
وكنت أرى الحنانة ضعف عزم فآنسني فراقك بالحنين

ومن تمام الحديث عن عمارة وشعره؛ أن نصغي إليه معاتباً، وهو يعاتب هنا الكامل بن شاور، وكان صديقاً له، ثم تنكر حين آل إليه شيء من النفوذ:

إذا لم يسالمك الزمان فحارب وباعد إذا لم تنتفع بالأقارب
ولا تحتقر كيداً ضعيفاً فربما تموت الأفاعي من سموم العقارب
فقد هدَّ قدماً عرش بلقيس هدهد وخرب فأر قبل ذا سد مأرب
إذا كان رأس المال عمرك فاحترز عليه من الإنفاق في غير واجب
فبين اختلاف الليل والصبح معرك يكر عليه جيشه بالعجائب
وما راعني غدر الشباب لأنني أنست بهذا الخلق من كل صاحب
وغدر الفتى في عهده ووفائه وغدر المواضي في نبوّ المضارب
إذا كان هذا الدر معدنه فمي فصونوه عن تقبيل راحة واهب
رأيت رجالاً أصبحت في مآرب لديكم وحالي وحدها في نوادب
فأخرت لما قدمتهم علاكم عليَّ وتأبى الأسد سبق الثعالب
ترى أين كانوا في مواطني التي غدوت لكم فيهن أكرم نائب؟

ليالي أتلو ذكركم في مجالس حديث الورى فيها بغمز الحواجب

ونسمعه كيف يكون الهجاء لديه:

يا أكرم الناس وجها وأكرم الناس عهدا
لكن إذا رام جودا أعطى قليلاً وأكدى
لئن وصلتك سهوا لقد هجرتك عمدا
وإن هويتك غيا لقد سلوتك رشدا
وغرّني كل وجه من البشاشة يندى
وقلت أصل كريم وجوهر ليس يصدا
فاردد عليَّ مديحي فلست أكره ردا
وألطم به وجه ظن قد خاب عندك قصدا
وسوف تأتيك عني ركائب الذم تحدى
يقطعن بالقول غورا من البلاد ونجدا
ينشرن في كل سمع ذمّا ويطوين حمدا

أمّا نماذجه الوصفية، فلم يتيسر لنا منها إلا هذا النصّ، في وصف قصر من قصور الدولة العبيدية بالقاهرة:

أنشأت فيها للعيون بدائعا دقت فأذهل حسنها من أبصرا
وسقيت من ذوب النضار سقوفها حتى يكاد نضارها أن يقطرا
لم يبق نوع صامت أو ناطق إلا غدا فيها الجميع مصورا
فيها حدائق لم تجدها ديمة كلا ولا نبتت على وجه الثرى
لم يبدُ فيها الروض إلا مزهرا والنخل والرمان إلا مثمرا
والطير قد وقفت على أغصانها وثمارها لم تستطع أن تنقرا
وبها من الحيوان كل مشبه لبس الحرير العبقري مصورا
أنست نوافر وحشها لسباعها فظباؤها لا تتقي أسد الشرى
وبها زرافات كأن رقابها في الطول ألوية تؤم العسكرا

وبعد فهذه جولة مقتضبة، مع الشذور الذهبية، من شعر عمارة؛ الذي ما زالت المكتبة اليمنية تشكو جوى خلوها منه، وافتقارها إليه. وأبرز سمات الشذور أن عمارة يهجم على موضوعه هجوماً دون محتاج إلى تقليد غزلي، وتفجّع كاذب على الحبيب، وتشبيب زائف بمحاسنه، وأنه كان يشغل نصّه الشعري بواقع حال الشخصية موضوع النص، يكشف للقارئ عما كانت فيه من أوضاع بصدق ووضوح. وأنه كان يجعل لذاته حضوراً كبيراً في النصّ، حتى لا تكاد تغيب شخصيته، وما هي فيه من ارتياح أو التياع، وأنه كان لا يلتفت إلى البديع، ولا يلهث وراءه، أمّا ما يثار حول سنيته أو شيعته؛ فالرجل نشأ سنيّاً، وهو يصرح في شعره ونثره قبل مصرعه بسنيته، فما الداعي إلى الاجتهادات حول اعتقاده، وقد أفضى إلى ربه، وذلك أمر لا يخص الشعر من قريب أو بعيد. هذا ولأن جبلي عكاد والعكوتين مقرّ أسرة عمارة مما سكت عنه الباحثون في جغرافية اليمن، فنورد ما قاله البهكلي صاحب نفح العود ص ١٨١، في كلامه عن صراع عبد الوهاب بن عامر الرفيدي، وعرار بن شار صاحب درب الشعبة قال:

(حتى وصل إلى محل يسمى الجنبين، وجعل عكاد وعكوتين على يساره).

ويقول العقليي محقق نفح العود: (عكاد وبعضهم يسميه في وقتنا الحاضر العكادين: جبلان صغيران غرب خط الإسفلت، شاهدتها بنفسي، وليس قربها أو حولها جبل يسمى عكوتين، والعكوتين التي عند قرية جخيرة تبعد عن العكاد بمسافة ٧٥ كيلومتر. والعكوتين في جبل مصيدة ببلاد بني الغازي، من منطقة جازان).

السلطانان ابنا أبي الحفاظ الحجوري

نلتقي هنا بشاعرين مجيدين، كانا على جانب من المكانة في قومهم، والهناء في حالهم، وعلى جانب من الاطلاع العلمي، والنفوذ السياسي، ولكنّ دخان البدعة في الاعتقاد، ونار العصبية المقيتة؛ كان السبب في تحويل هنائهما إلى شقاء، ووحدتهما إلى فرقة، وسلطانهما إلى زوال، فلقد ترك لهما أبوهما السلطان «الحسن بن أبي الحفاظ الحجوري» مقاطعة غنية زراعياً، وإمارة متحدة تشمل بلاد حجور بكل فروعها وأفخاذها. وحجور قبيلة همدانية، يذكر النسابون سلسلة نسبها حجور بن أسلم بن عليان بن عريب بن جشم بن حبران بن نوف بن همدان.

وكان لهذه القبيلة كأخواتها من قبائل اليمن مشاركة مذكورة في الفتح الإسلامي، وبرز من أبنائها في السياسة والعلم والأدب بالشام والعراق وغيرهما، وكانت مدينة الجريب قاعدة إمارتهم، ومقرّ سلطانهم، ذكر الهمداني في صفة الجزيرة التقاء السيول عندها، وخصب مزارعها، ويقول السلطان سليمان أحدُ شاعرينا، اللذين نقف هذه الوقفة عليهما، في وصف الجريب، أيام نزوحه عنها، واستبداد أخيه الخطاب بأمرها:

إذا اللّه عمّ الأرض منه برحمة فروي منها محلها وخصيبها
فلا يخطئن أرض المخافر سهلها وأغوارها قبل البلاد نصيبها
بلاد تساوى بردها وحرورها فنيسان كانون لها وأبيبها
غزيرة أنهار تفيض مياهها وغير حرور حيث كان قليبها
وأعذب أرض اللّه ماءً لشارب وخص بها طيباً وبرداً جريبها
وذكرنيها جذوة في سحابة من البرق يعلو مستطيراً لهيبها
فياليلة ما كان أطولها على أخي مقلة تجري بداراً غروبها
خلقت أخا نفس نفور إذا رأت بمنزلة أدنى فعال يريبها
فكيف بتلك الأرض وهي أصابها على أمنها منه بغذر مصيبها

ولما أحسّ السلطان الأب الحسن بن أبي الحفاظ بدنوّ الأجل، عهد بإمارته بعده إلى ابنه الأكبر سليمان، وأخذ بيعة القبائل له، وكان الأب والأسرة، بل وكامل الجهة ملتزمين بالفكر السنّي، الذي حفظ لها نقاء فطرتها، واتحاد أمرها.

ولما قامت الدولة الصليحية عملت على نشر معتقدها الشيعي في القبائل المجاورة. ولعلّ أبرّ علاقة أسرية كانت تربط بين أسرة آل ابن الحفاظ وأسرة الصليحيين، وأصلهم من الأخروج (الحيمة) جعلت الخطاب أخاً للملكة «أروى» من طريق الرضاعة، فنشأ الخطاب هذا متحمساً لفكرة الدولة الصليحية، التي هي في الأصل داعية للدولة العبيدية بمصر، على حين كان الأخ الأكبر سليمان وأخوه الأصغر أحمد يعتنقان السنة، وأمكن للخطاب أن يجتذب إلى مذهبه أختاً له، وكل الأخوة الذكور الثلاثة، وأختهم أشقاء من أم وأب، غير أنّ انشقاق الأسرة فكرياً

كان العامل الحاسم في تهديم قواعدها وتبديد أمرها.

فقد حدث أنّ أحمد قتل أخته، ولما علم الخطاب بمصرع أخته، ونصيرة فكرته؛ فتك بأخيه أحمد، وتمادى الشقاق بعد ذلك بين الأخوين سليمان، وكان السلطان بعد أبيه لحين، ثم نزح بعد معارك طويلة بينه وبين أخيه الخطاب إلى زبيد، مستعيناً بالدولة النجاحية، وانفرد الخطاب بالإمارة وقاعدتها الجريب، وكان معتمداً على نصرة الدولة الصليحية في عهد الملكة أروى، وظلت المراسلة بين سليمان والخطاب حتى أسلم أمره لله عند يأسه من نصرة الدولة النجاحية له، وعدم مقدرة حليفه «غانم بن يحيى» أمير المخلاف السليماني على إجلاء أخيه، وإعادة إمارته إليه؛ فعاد سليمان إلى الجريب بواسطة من مشائخ حجور، وغيرهم من مشائخ همدان بجناحيها حاشد وبكيل.

غير أنّ الخطاب لم يتركه إلا ريثما تؤاتيه الفرصة للفتك بأخيه الأكبر سليمان، فأجهز على أخيه بحربته التي كانت تدعى (المريحة) كما أجهز على أخيه الأصغر أحمد من قبل بذات الحربة، وربما ندم الخطاب على فعلته؛ فعمل على إيواء أولاد أخيه سليمان الشهيد، الذين ما لبثوا أن جرعوا عمهم الخطاب نفس الكأس فقتلوه سنة ٥٣٣هـ.

وبذلك انتهت إمارة آل أبي الحفاظ، وانقضى شأن أسرتهم، التي أودى بها التعصب المذهبي المدمّر. تلك هي خلاصة فاجعة تلك الأسرة، لم أشأ استقاءها من مصادر المؤرخين المضطربة والمتعصبة مع هذا أو ذاك شأن صاحب كتاب (الصليحيون)، الذي لم يلتزم الإنصاف في روايته لحقيقة ما جرى، وإنما استقيتهما من نصوص الأخوين الشعرية، التي ضمّها ديوانهما، بتحقيق الأستاذ «محمد أحمد العقيلي» الذي أسدى للشعر اليمني جميلاً بإخراج الديوان، وإن كان في تحقيقه هنات ونواقص، فكثير من القصائد مملوء بالتحريف الذي يصل إلى حدّ إبدال كلمة بكلمة؛ تغير المعنى، وتخل بالوزن، ولكنه مع ذلك أحسن صنعاً بإخراج الديوان للناس؛ حتى لا يظلّ حبيساً خاضعاً لعبث متعصبي الباطنية، والمتلاعبين بالتراث.

(٥)

السلطان سليمان

عرفنا مما سبق أنه سليمان بن حسن أبي الحفاظ الحجوري سلطان الإمارة بعد أبيه، ولم يتيسر معرفة تأريخ وفاة الأب، ولا مدة احتفاظ سليمان بالإمارة بعده، وكل ما أمكن لنا معرفته من أمره أنه كان عالماً يقال: إنه أجيز في قراءاته لستمائة كتاب. ويقال: إنّه كان يركب في موكبه ثلاثمائة فارس، وتدل نصوصه الشعرية، وهي أكثر المصادر إضاءة لحياته؛ أنه كان محباً للخير، رفيقاً بالرعية محبباً إليهم، وكانت له علاقة حسنة تصل إلى حدّ الصداقة بينه وبين الشريف غانم بن يحيى بن حمزة أمير المخلاف السليماني، كما كان يربطه بالدولة النجاحية بزبيد عداؤهما المشترك للدولة الصليحية بجبلة.

غير أن العصر كان يشهد احتضار كل تلك الدولة المتنافسة على الحكم في اليمن، بل واحتضار الدولة العبيدية نفسها بمصر، ونظراً لضعف كل من النجاحيين حلفاء سليمان، وضعف الصليحيين حلفاء الخطاب؛ فإن كليهما ظلّ يراوح في مكانه، دون أن يقدر على تحقيق النجاح الحاسم لصاحبه، حتى جاء أمر الله فمات الأفراد، وذهبت الدول؛ إذ كان مقتل الخطاب سنة ٥٣٣هـ، وانتهاء الدولة الصليحية بوفاة الملكة «أروى» ٥٣١هـ، وانتهاء الدولة النجاحية سنة ٥٥٥هـ، ثم كانت دولة آل علي بن مهدي، وما هي إلا سنوات حتى انتهت الدولة العبيدية بمصر سنة ٥٦٤هـ، كما أسلفناه عند كلامنا عن عمارة. واستولى الأيوبيون على كل من مصر واليمن والشام؛ فسبحان الحيّ الذي لا يموت.

بعد هذا نعود إلى شعر السلطان سليمان، موردين نصوصاً له، تضيء خفايا حياته، وأطوار علاقته بينه وبين أخيه الخطاب، وبينه وبين قبيلته حجور، وبينه وبين جيرانه من الدول والدويلات.

ويبدأ النص الشعري التالي في التحديد الجغرافي لعشائر السلطان، وأنصاره الخلصّ:

أقر السلام على جميع عشائري ... يا راكب الحرف العسوف الضامر
من حلّ ما بين الجريب وريدة ... والسفح من حرض وطور الباقري
قومي الذين بهم أسامي من سمى ... وأطول كل مطاول ومفاخر
وأخصص به أحياء أوام ومولة ... والصيد من قدم وعليا جابر
أعلى الذوائب والذرى من حاشد ... وسنام كاهله الهموك الواقر

وثنى على نصرة الشريف غانم له، حين تتلخص من مقدمته الغزلية لقصيدته إلى مدح غانم:

لو كان لي أنف أنفت تكففا ... لكنه لا أنف للمحتاج
فلأقطعن هواك غير مقاطع ... وأواصل التهجير بالإدلاج
وأيمم لملك الأجل المرتجي ... وبه يكون معرجي ومعالجي
وألوذ من ذل الهوى وهيامه ... وظلامه بسراجها الوهاج
وبه سعدت ونمت غير مروّع ... وغدوت من كل المكاره ناج
أبقى عليّ وصانني بجميله ... ورعى وذبّ الذئب دون نعاجي
فلأنشرن عليه من نسج الثنا ... حللاً خلاف الخزّ والديباج

وفي مدحة وضعها لأحد رجال الدولة النجاحية (منّ الله الفاتكي) يقول متذكراً مدينته الجريب:

تذكرت الصبا بعد المشيب ... وعصراً كنت أعهد بالجريب
وإذ هي بالغزالة لو تبدّت ... لها سجد النصارى للصليب
بها الحسن البديع فكيف صبري ... عن الهتانة الورد الخلوب؟
إذا شقت بأسهم مقلتيها ... فليس نصاعها غير القلوب
تزين الحلي والحلل اللواتي ... عليها بل تطيب كل طيب
وليلة أقبلت نحوي ومدت ... إلى بكفها الرخص الخضيب
هصرت بفودها ولثمت جيدا ... كجيد الشادن الرشا الربيب

وإليك نموذجاً من غزله الرقيق، قدَّم به مدحته للشيخ مفلح الفاتكي، أحد أمراء الدولة النجاحية:

عرّج برسم الطلل الشاسع ... ما بين حيران إلى رادع
وقف به واسأله عن أهله ... وروّه من دمعك الهامع
وقل له يا ربع أين الذي ... خلى عن المرتع والراتع
كنت أنيساً مونقاً رائعا ... في وقت ريعان الصبا الرائع
وقد تنكرت وراح الصبا ... وليس ما قد فات بالراجع
وطفلة بيضاء رعبوية ... تميس مثل الغصن المازع
أعجب من خلخالها مشبع ... ومن بريم قلق جائع
وناهد يهتز في صدرها ... كحق عاج في يد الصانع
وابتسمت عن شنب خلته ... كضوء برق مسرع اللامع
والجيد والطرف لظبي الفلا ... والوجه مثل القمر الطالع
أجل من عاينت حسنا ... ومن يروق للناظر والسامع
وفاحم محلولك أجعد ... مثل سواد العنب الشارع

ويعود مخاطباً مفلحاً، شاكياً خذلان قومه له:

أملي فيك أكبر الآمال ... وإلى خالك انتزعت بخالي
ورأيت المناخ عندك وقفا ... عوضاً بالديار والأموال
ولعمري لقد أصاب اختياري ... حين أضحى إلى دراك انتقالي
سانحات بين الطيور الميامين ... بيوم ترامت بنا إليكم جمالي
وأنارت سعوده طالعات ... في بروج الإفلاح والإقبال
فأعجنا في المنزل الخصب انضاء ... طواها الإسأد طيّ الحبال
ولها فيه مرتع خضل بعد ... لغوب قد مسّها وكلال
يا أبا المنصور قيدت عيشي ... بقيد الإنعام والإفضال
وتلقيتني ببرٍّ وبشر ... ثم قد رشتني بخير نوال

سالكا بالذي فعلت طريق الفضل   والفضل خير فعل الرجال
فأنا اليوم منكم ليس لي آل   سواكم بين الورى من آل
إن أضاعت حقي قبائل همدان   وسرت بفعلها أقيالي
فلقد وفرت حقوقي فيكم   بتوالي التعظيم والإجلال

ويظهر أنَّ مفلحاً لم يكن معنياً بشأن الأمير سليمان، فقد كان لمفلح من مشاكله مع دولته النجاحية من الاشغال ما يغنيه، فلجأ السلطان سليمان إلى ولده منصور بن مفلح.

ويبتدئ النصّ التالي بذكر ما يصنعه وميض البرق المتألق من الشمال الشرقي (الجريب) بنفس سليمان:

وضوء برق سماء بتّ أرقبه   يخبو تألقه طوراً ويأتلق
أخلته مثل نبض العرق أوله   وقد أمدّت له الأعناق والحدق
على سهام وأعلى جاحف جنحا   قد اسطرت سما شؤبوبه الغدق
حيث استقرّ عمود الدين منصبا   واخضرَّ روض على مخضره ونق
بحضرة الشيخ منصور بن مفلح من   يمناه بالنائل الفياض تندفق
يا مالكي صرت أشكو الجور من زمن   به عليَّ ولم أذنب به حنق
إذا تيممت باباً قلت أدخله   للدور جئت وذاك الباب منغلق
فكن أبا الفتح مفتاحاً لمغلقه   يا خير من يرتجى يوماً ويرتزق

ويعود بشكواه إلى منصور من أوضاع رعيته، ومعاناتهم من ظلم الجباة، متشفعاً به إلى أبيه مفلح:

ولقد أصابتني لبعدك محنة   أنا من نوائبها حريض معمد
وجرت عليَّ أبا هشام نكبة   طرفي لها يا ابن الكرام مسهد
لم يبق بعدك في سمائي مصعد   زيداً ولا في الأرض بعدك مقعد
واللّه ما نطق اللسان ولاسعت   رجلي إلى ما شنعوه ولا اليد
قتلت رعاياكم على ذممي لهم   وجلواً وغاروا هاربين وانجدوا
واستيفت الأموال لم أنفعهم   في ردّها ومضوا وقل المسعد

ورفاعة وعشائر اليمن التي فيها الخراج على الحقيقة تعهد
وهبت لهم بلدانهم وزروعهم فيما احتوته أبت جميعاً تحصد
وبقيت فيما بين منهوب خلا عن أرضه فهو امرؤ مستبعد
ومقلداً فيما يسؤني منهم سيف العداوة في يديه مجرد
وطلبت أن أدي خراجاً عنهم ورجوت لو أن الطلابة توجد
أمن التناصف أن أودي خراج من هو شارد نائي المحل مطرد
من أين يمكنني إذاً وقد انجلى مبيض أهل بلادنا والأسود
وخزائني صفر وكانت قبل ذا يلقى اللجين بها ويلقى العسجد
قد كنت أرجو أن يعود لها الذي كانت من الخير الكثير تعود
ويعود نحوي في طلاب أبيك ما قد كنت ألقى من غناه وأعهد
فاليوم أني بالسلامة راجيا منه بها واللّه لا أتزيد

ومن شعره أيام سلطانه نجد نصّاً يردُّ فيه على جعفر بن محمد الشهاري، الذي كان قد تهدده بشيء من الوعيد، وفي النص إضاءة لمعاناة الرعايا المستضعفين، في تلك الفترة الحالكة:

عليك سلام طيب النشر بعده سلام وكأس للمنون دهاق
بأيدي رجال مصلتين كأنهم وأنت هلال في السرار محاق
رجال شروا بالأمس ما كنت بعته وقدت إلى حوض المنون وساقوا
أأنكرت زأر الأسد ما حول «تمَّةٍ» ومنك خوار عندها وزعاق
ضراغم غاب من حجور وقادم بأيديهم بيض جلين رقاق
ومن جابرا بنا أبي خير أسرة علوت بهم والحد منك طلاق
فطلق ثلاثاً يا أبا الفضل بتة (شهارة) أن قد حان منك فراق
فإنّ سيوفاً أولغت في دمائكم بها ولهٌ شوقاً لها وزهاق
تهددني بالأنجدين بني أبي وهم قدم أسعى عليه وساق
علاي علاهم وافتخاري افتخارهم أحن إلى ذكراهم وأشاق

ولولاهم ما كنت إلا كقينة	بقاع لأدنى الطالبين تساق
وإنَّ نفوساً قد أجبتم لبذلها	إلينا لا سياق العشير تساق
متى شئت أوردها فإن سيوفنا	حداد وآن لكم من وردهن مذاق
وإني عليم بالزمان وأهله	وقومي لحسن التجربات رواق
وخبرني ظني بأنك راجع	إلى الرس ملوياً عليك خناق
أبت أن تزكي مالها لك حاشد	وضاق فنا همدان عنك وضاقوا
أليس صواباً أن ترى النفس غنمة؟	فمالك بين اليعربين خلاف
أفق قد أفاق العاشقون عن الهوى	فإنَّ رجالاً واقفون أفاقوا

وها هو السلطان سليمان يقصُّ وصاة أبيه الشيخ له، محذراً من أخيه الخطاب:

إذا افتخر الخطاب يوماً بفخره	على الناس أن شر الجزاء جزاني
وإن خانني لما لهذا أمنته	وأدبته مستقصياً فجفاني
وإني رميت الناس دوني ودونه	ومكنته من أسهمي فرماني
حفظت وصاة الشيخ فيه لأنه	غداة دنا منه الحمام دعاني
فقلدني في حفظ ما كان بعده	أمانة من تعنو له الثقلان
فحملها مني وفياً بعهده	أميناً هجاناً ينتمي لهجان
وقد كان أدرى قدّس اللّه روحه	بما فيه من خبث ومن شنآن
وحذرني من غدره غير مرة	وقال أراه فيه رأي عيان

وللبرق في نفسية سليمان وصحبه المطلحين من البعد الأنضاء من سري الليل وسفر النهار مكانه؛ مليئة بالشجى والشجن، يقصها في أبياته:

تألق برق مستطير كأنما	تألق منه في المخيلة نيران
تلألأ وضاحاً بداج فأشخصت	إليه لانضاءِ طلائح أعيان
ولم يك إلا أن رأته وقطعت	وفكت قيود وافرات وأرسان

وأرزح منها مرزح فأجابه فؤادي واستشرى به البرق حنان
فللّه صحبي إذ تدلت عمائم بهاماتهم كيلا تراه وأردان
وأمعن مستشر يلوح تألقا وكان له في ذلك الحال إمعان
ولولا الدروبُ المعرضات لأصبحت ومن دولهن العجرسان وجعدان
وجلل سوقاً بالمخافر أهلها تباعدنا عنهم حقود وأضغان
فقد رحبت أرض الحصيب بمقدمي وأكرمني فيها وزير وسلطان

وفي قصيدة أخرى يعاتب عشيرته بالشاهل؛ لخذلانهم له، ونصرتهم أخاه الخطاب، ذاكراً غدر الخطاب، وإحسان سليمان إليهم:

أهدي السلام إلى رجال الشاهل يا راكب الحرف العسوف البازل
جلبوا العساكر كي يذلوا قومهم طمعاً لشيء لم يكن بالطائل
ورعوا بذلك حق من لم يرع لي فضلي عليه ونعمتي وجمائلي
وكفلته طفلاً وقد أبصرتهم كيف استحال طباعه للكافل؟
هل منكم من منكر فعلي له ردوا جواب المستفيد السائل؟
واللّه ما أوليتموه عشر ما أوليته في عاجل أو آجل
لو كان ذا عقل لأثمر عنده زرعي وجازاني جزاء العاقل
لكنه ما قط جازى محسنا إلا بغدر ظاهر وغوائل
وخذوا إليكم من تجاربي التي ليست عليه تقولاً من قائل
فعلت بنوجل به الفضل الذي فعلوه واقتطعوا متين حبائلي
وحبوه بالمال الذي أودعتهم وبني منهم في بطون منازل
وببغلتي وبمهرتي فجزاهم أن خلخلت أسواقهم بخلالي

وعوداً إلى البرق والنصُّ هنا أكثر من شاك، أكثر من باكٍ، إنه كبده الحرى تتقطع، وأنفاسه الملتهبة تتوزع:

يا منية القلب إن الشوق عناني أصابني بارق من صوب حيران
فحنَّ قلبي لبرق بات لامعه يهيج النازح المستعبر العاني

وهاج قلبي وبات الشوق يزعجني إلى بلادي وأحداني وإخواني
لما رأيت بروقاً من سنا بلدي تسقي سوائلها أرضي وأوطاني
هيجنَ لي كبداً مضنى يحركه إيماضهنّ بليل بعد أوهان
سقياً لتلك النواحي من ذرى بلدي سقياً لها من عريض هاطل هاني
سقى الجريب وما والاه من وطن وجاد بالسهل من شط العريضان
لما رأيت بروقاً هزني طرب وعاودتني وساويسي وأحزاني
يا رب يوم من الدنيا لهوت بها كذلك الدّهر لا يصفو لإنسان

ومن نصوصه التأريخية الهامة المهمة هذا النص، يعاتب قومه على خذلانهم أخيه أحمد، حين فتك به أخوه الخطاب بحربته المريحة، على مشاركة الذؤيب له، والذؤيب هذا كان رئيس دعاة الدولة الصليحية، وهو الذؤيب بن موسى الوادعي، توفي سنة ٥٣٦هـ.

يا ضاحك البرق في باك من السحب اللّه جد ساكن الروحاء والحدب
وصب منهمر الشؤبوب أرض بني شمي إنهم من أنجد العرب
والواشجين والأنجاد خالصة من العوازم أعواني على النوب
عشائري وبني عمي ومن جمعت أعرافنا ودمانا لحمة النسب
وأهل بيعة شيخي يوم صيّرها لي منهم ودعاني نحو ذاك أبي
وقال هذا الذي أرضاه من ولدي لكم رئيساً إذا ما اجتاحني شجبي
واستحلف الكل لي منهم بوفرتهم على السلامة من سقم ومن وصب
صحيح جسم معافى ليس يعجزه ما يعجز الناس من خوف ومن تعب
ومستقيم بطول اليوم منتصبا بالشرح يخلط ركض المهر بالقرب
ولم أدع بعدها تلك اليمين فتى من أشيب من ذوي أسنانهم وصبي
يا ليت شعري أهم ناسون ما وضعوا عليه أيديهم في أشرف الكتب؟
أم ذاكرون لما بيني وبينهم من المواثيق والأيمان والصحُب
لقد تريبت منهم بعدما رضيوا بقتل أحمد هذا أعظم الريب

وخالطوا من دعاهم للقرى وفرى ... أوداجه وحوى ثوبيه في السلب
ملفقاً من حصير شاخب دمه ... على الشكارخ والأفراض في صبب
فلا قراه ولا إيمانه حجزا ... عنه ولا كونه يدعوه بابن أبي
تالله لا تقطعن رحمي فإن قطعت ... فاحفظ بنيَّ وقسّم بينهم نبشي
قل للذويب يدَع رأسي فقال له ... هاك المريحة يا لهفي ويا حربي
تشاركون ذؤيبا بعد تركته في ... قتل أحمد أهل الفضل والحسب
قد كان الله والرحمٰن يرحمه ... يأبي العيوب وينفي لوعة السغب
كم ربّ باكٍ وكم يا رب باكية ... فقيرة قد دعت بالويل والحرب؟!
عضدتموه وقمتم دونه سفها ... ولم تشدو على الإرذال والجنب
ولست أترك جهداً في مكافأة ... والله عوني على الإدراك والطلب

وقد طال المطال به في زبيد، وسعى مشائخ العشائر بينه وبين أخيه الخطاب، الذي كان ربما أثر على أخيه سليمان برسائل رقيقة، فكان أن حمله كل ذلك على العودة إلى الجريب، يقول مخاطباً الخطاب:

إذا ما صفت مني ومنك العقائد ... تقارب من أحوالنا المتباعد
ويدنو الذي تبغيه من كل فائت ... وسر موالينا وأرغم حاسد
ومن لي يا خطاب بالوقفة التي ... لها منك بالإيمان والصدق شاهد
إذا كنفتني من صديق علاقة ... فما إن لها إلا بكفيك عاضد
ولو كنت توليني الجميل وستره ... وحق الأخا أدركت ما أنت كائد
تعمّدت إرهاق العشير وإنني ... لواجد أضعاف الذي أنت واجد
وعندي في كل الذين ذكرتهم ... أمور ولكن أين أين المساعد؟
أرجي خروجاً من ملازم فاقتي ... فناهيك إني بالمهيمن عاقد
ولم يتسامح لي فأخرج سالما ... من الغدر إذ مالي بغدر عوائد
لك الله إبقاءً عليَّ فإنني ... إلى كل ما يرضيك والله عائد
وسكن نفوريَ واشمئزازي ولا تقل ... أراك على الحال الذي أنا عاهد

فبي وبرأيي تستقر إستقامة ولـلأمر أركان لـه وعوائد
ولولا جفاء ظاهر منك بالذي يـراه قريب في الورى وأباعد
لكان جوابي بعدما قد بذلته ركوبي وإنـي نـحـو دارك قاصد
ولكن لي نفساً إذا ما تشتت فليس لها إلا المداراة قائد

ويورد جامع الديوان النصّ التالي من أبيات طويلة، تحت كلمته: (وقال أيضاً حين لزمه الخطاب وقتله):

دعاني لحب المسلمين وداد ورق لهم مني حشاً وفؤاد
وكنت أراهم لاقتراب منيتي قراباً وهم من راحتي بعاد
فأوقعت نفسي بالهلاك ولم أكن جهلت ولكني وثقت وقادوا
وقد كان جهْدي ما بلغت وإنما أشاعتها في العالمين أفادوا
نظرت بياضاً في البياض فغرّني إذاً وبياض في البياض سواد
فمن مبلغ عني بكيلاً وحاشدا بأنّ قتال الماكرين جهاد؟!

ونختتم وقفتنا الشعرية مع السلطان الشهيد سليمان، بهذه التحميدة المفوضة الأمر للّه وحده:

من سرّه كشف البلايا الثقال والامتحانات العراض الطوال
فليكثر الإكثار من قوله الحمد للّه على كل حال
ويعتقد كشف البلايا بها فإنها تنشطه من عقال
من حمد اللّه على ما جرى ولازم التسليم والاتكال
خلصه اللّه تعالى من الكرب تعالى ربنا ذو الجلال

(٦)

السلطان الخطاب بن الحسن بن أبي الحفاظ

إذا كان السلطان سليمان هو الابن الأكبر، وأخوه أحمد القتيل هو الأصغر؛

فلا بد وأن يكون الخطاب هو الأخ الأوسط، وقد كان ذا اطلاع واسع علمياً وأدبياً. يقال: إن كتبه التي أجيز فيها قراءةً له بلغت أربعمائه كتاب، وبغض النظر عن ثناء الدكتور الهمداني مؤلف كتاب (الصليحيون) على الخطاب؛ لالتقائهما في المعتقد، فإنّ نصوصه الشعرية كافية في عرض نفسيته الطموحة، وولعه الدائم بالسفك والتدمير، وحسبك منه أنه المسئول عن قتل أخويه الأصغر والأكبر، والسبب في تدمير الأسرة، وزوال سلطانها، وأهم بواعثه الطموح الشديد إلى السلطة، الذي يعلن إزماعه التنصر ما لم يحصل عليه، ذلك باعثه الأول، وثاني بواعثه إغراقه في التزلف إلى العبيديين؛ حتى إنه ليحلف مرتين بالله والثالثة بالمنصور. وثالثها: اعتزازه العنصري الذي لا يرى للآخرين حرمة ترعى، ولا رحماً تحتسب.

وسترى ذلك في نصوصه فهي الحكم العدل في حقه، وقد انتهت حياته كما أسلفنا بالقتل على يد أولاد أخيه سليمان سنة ٥٣٣هـ، بعد وفاة الملكة «أروى» بسنتين. يقول في استنفاره لعك ضدّ النجاحيين.

حتى متى أسفي وطول وجومي — أُصلي بناري همتي وهمومي
ويذود عن طيري كراه تعمدا — للوجد يمنع طارق التهويم
متتابع الزفرات يرجع غمرها — عوج الضلوع بها إلى التقويم
في حندس من خاطر قد وكلت — من همَّةٍ فِكَري برعي نجوم
غضباً لما قد حل بالعرب التي — أضحت سوام خلى لشر مسيمي
مستضعفين ترى الهجان المرتضي — تبعاً لكل معلطط مخزوم
لا يرفعون الطرف ذلاً كلهم — في سيرة المستضعف المهضوم

وقد أسلفنا أن الشريف غانم، أمير جازان، كان مناصراً لسليمان ضدّ الخطاب، واتفق لغانم أن خدع أحد أولاد الخطاب؛ حتى وصل إليه فاحتبسه لديه؛ ضغطاً منه على الخطاب، للتصالح مع أخيه، فبعث إليه الخطاب قصيدة طويلة منها:

واللّه حلفة صادق إن لم تطب — وتكفُّ من دنس العيوب وتطهر
لأعممنَّ بك الحمير الدغم في — أسواقنا من كل أجدع أبتري
ولأجعلنك مسمراً يلهى به — في كل نادٍ للأنام ومحضر

لا تحسب الرجل الذي بالغدر قد   أضحى لديك محيراً لمحير
والله لو قطّعته وذررته   في الريح ما فزعت قلبي فأشعر
إن يبق يأت برغم أنفك سالما   أو تقضِ ميتته بكفك أثاري
هو من يعزّ عليَّ إلا أنني   لم آس قط لغائب من معشري
فاشدد يديك به ولا تفكك له   أسراً وقدم فيه كل مؤخر
أما على الغدر الذي فاجأتني   بقبيحه المستبشع المتنكر
ورسمت نفسك فيه بالخزي الذي   تبقى مواسمه بقاء الأعصر
والعار عني ساقط لكنه   لا شك حقك يا خبيث العنصر
أوما وأمك لو حذرتك يا بنها   ما راح نحوك أي ذاك العسكر
ولجال سيفي في خلال جسومكم   ما لا يواريه صريح الأقبر
أنت الخبير بصدق ما أنا قائل   وإن استربت بصدقه فاستخبر

وقد كانت الملكة أروى نصيره القوي ضد النجاحيين في زبيد، وضدّ غانم في جازان، وله فيها عدة قصائد: مادحة في حياتها، وراثية بعد وفاتها. من إحداها هذا النص، يشعرها فيه بإدخاله قومه في معتقدها، ويبشرها بإزالته للبياض، ويعني به شعار النجاحيين الموالين للعباسيين، وإزالته للنصب والزيدية في منطقته:

سأركبها سيساء عاصية القرى   وأكشف داجي ليلها بنهار
وأضربها من عزمتي بصوارم   وأقصمها من همتي بشفار
فما أنا إلا السيف هزني القضا   وقد ألهب الأيام عزم غراري
فمن مبلغي مولاتنا بنت أحمد   نهايتي القصوى وقطب مداري
أمولاتنا حقت لديك نصيحة   حقيقة إعلام بغير تماري
وما كان من كشف القناع بمذهبي   ولكن لم أخش العدا فأداري
خطبت لمولانا وأظهرت سكة   عليها اسمها طارت بكل مطار[1]

---

(١) عملت على تصحيح ما أمكن تصحيحه من النصوص الواردة هنا.

لدى معشر حبل الضلالة عندهم مغار وحبل الدين غير مغار
ثلاثة أصناف بياض وناصب لديّ وزيدي أحطن بداري
ضربتهم بعضاً ببعض كأنما أصك حجاراً منهم بحجار
وألبستهم من بعد خلعي ما اكتسوا من العري ثوبي ذلة وصغار

وفي إفصاحه عن مطامحه:

حتى متى تتلظى في الحشا همم كأنهنّ من الإحراق نيران
وما يمر من الأيام ليس له إلى البرية طول الدهر رجعان
سأركب الصعب منها إن تهيبه ذو العجز واجتنبته الإنس والجان
مستنجداً عزمة مني إذا التفتت في الخطب كانت لهيباً وهو دخان
فإن يقم بالذي أهوى وآمله الأعمام حمير والآباء كهلان

وعن مطامحه أيضاً يقول:

ولا بد من يوم أغر محجل تقوم على الأعداء فيه النوائح
أقود لهم من آل قطحان جحفلا يبيتهم في أرضهم ويصابح
وأعركهم عرك الأديم بمقنب تزعزع منه مكة والأباطح
به كل هفاف القميص سميدع يصافح منه بالوريد الصفائح
يقوم مقام الألف في كل مأزق ويبسم في الهيجاء والموت كالح
ويلقى الردى طلق الأسرة حاسرا إذا حاد عنه المستعد المكافح
وجرد من الخيل الجياد سوابحا عتاقاً نمتهن العتاق السوابح
وكل رديني أصم كأنه رشاء أغارته الأكف المواتح
وأبيض مشحوذ الغرارين حدّه إذا سلّ يوم الروع بالدم راشح
إذا أظلم النقع المثار فإنه وأضرابه في حافيته مصابح
أنال به من أمرك الغرض الذي يسساءله ضد ويرغم كاشح

ولعلَّ أخاه سليمان عتب عليه أيام سلطانه بعض تصرفاته فكان جوابه عليه:

وأصبح همي منهمو في إمارة تبين للأعيان حين تراني
وما ذاك آني نيل مني بطائل فيثلم حدي أو يفل سناني
ولكن أتتني عن سليمان نفثة جفوت لها طيب الكرى وجفان
يعيرني فيها بمصرع فتية لدى الروع والخيلان يطردان
غداة التقينا بالرداع وأجلبت علينا الأعادي والحتوف دواني
فقلت مجيباً حين قال وخاطري كليل ولفظي عاقل للساني
رويدك لا تشمت فيا رب وقعة عوان تريك الحرب غير عوان
أبحنا بها أرض العدو فأصبحت قفاراً وكانت قبل ذاك مغاني
ويا ربّ رأس قد ضربنا وعصبة طردنا ولم تجذب لنا بعنان
ويا رب مال قد حللنا ومحرم مصان رجعنا وهو غير مصان
وأنت رضي البال بين معازف وخمر وطيب فائق وقيان

وربما كانت تلك الأبيات إعلاناً ببداية الصدام بينه وبين أخيه، ويظهر أنه أرغم على مبارحة الجريب، والنزول في أفلح: قبيل معروف، حتى اليوم، من حجور:

وجاورتكم واخترتكم دار هجرتي على أن قومي وافرون حيالي
وأصبحت فيكم قاطناً متبوئا محلاً على زهر الكواكب عال
تحف بشخصي فيه منكم كواكب تضيء فيغشى نورها المتلال
ويعضدني من كل أمر أريده ليوث ترد الأسد وهي ثعالي
لئن كنت فارقت الجريب وأسرة تحل بها من أسرتي ورجالي
فقد عاضني الرحمٰن منه ومنهم بكم وتسامي طوده المتعال
أشمّ تردّى بالسحاب قلاله فتحسب خيلاً جللت بجلال
ينيف على كل البلاد كأنها لديه رعايا وهو أقهر وال
إذا قرعت فيه الطبول تزلزلت به الأرض من سهلٍ بها وجبال
فكنت كذي فلس تعوض بعده من التبر مثقالاً يسام بغال

والبيتان التاليان يخاطب بها بني أفلح، ويعدهم بملك ما بين مكة والشحر،

وهو رقعة طموحه:

فـأنـتـم بـنـو الأمـلاك قـحـطـان أنـتـم وسادات مـا بـيـن الـحـجـاز إلـى الـشـحـر
وإنـــي لأرجـو أن تـكـونـوا ولاتـهـا وأمـلاكـهـا إن مكّن الـلّـه فـي الـعـمـر

ويكرر مطمحه بالاستيلاء على اليمن في أكثر من نصّ، ويفصح عن ولعه بسفك الدماء ويهدّد بالتنصر إذا لم ينتصر:

سـأطـلـبـهـا إمـا بـأرضـي قـاطـنـا وإمـا طـريـداً فـي الـبـلاد غـريـبـا
وأرقى إليها في سلالم لم يكن لـغـيـر صـعـودي ذابـلاً وقـضـيـبـا
وأصدع قلب الدهران غط صبره من الدهـر صـدعـاً لا يـلـم رغـيـبـا
دعـيـنـي فـإمـا أن أصـاب فـراحـة بـحـق وإمـا أن أكـون مـصـيـبـا
إلى كم تقاضاني العوالي ديونها ويـكـثـرن فـي طـلـبـي لـهـن عـتـوبـا
ويرجع ظن السيف في مخيبا ولـم يـكُ ظـنـاً ظـن بـي لـيـخـيـبـا
أيذهب عمري لم أنل فيه راحة ولـم اسـتـفـد إلا عـنـاً ولـغـوبـا
ولم أجلب الخيل العتاق حواملا شـبـابـاً يـروون الـرمـاح وشـيـبـا
ولم أكس أرجاء الفضاء جماجما يـضـيـق بـهـا مـبـسـوطـة وتـريـبـا
ولـم أمل ما بين العقيق وأحور نـوائـب يـبـقـى ذكـرهـا وخـطـوبـا
ولولا رجائي في اعتقادي لم يكن بكفي من عودي الأكف نصيبا
وأني بـه يـومـاً مـن الـدهـر مـدرك نـوالاً وأرجـو أن يـكـون قـريـبـا
كما لم يكن سهم الذي أنا طالب بـه لـي إلا فـي رضـاه مـصـيـبـا
لحطّت سروجي في ظهور ضوامر من الخيل يحسبن النجيع ضريبا
وشـدت لـمصر والعراق وغيرها ركـابـي لـتـفـري أمـعـزاً أو سـهـوبـا
فإن ألف عند المسلمين إجابة لصوتي تجلو عن حشاي كروبا
وإلا فـبـالـروم انـتـصـرت وبـيـنـهـم تـنـصـرت طـوعـاً واتـخـذت صـلـيـبـا

ولا شك أن أخاه سليمان المقيم بزبيد، كان يظفر بين حين وآخر بعون من النجاحيين، فيغير جيشهم على الخطاب، الأمر الذي حمله على الاستنجاد

بهمدان:

ليت شعري عن معشري وبني — عمي وقومي وعدتي ونصيري
وملاذي وملجئي وسهامي — وعمادي في كل خطب عسير
نصرتي الشم من غطاريف همدان — ابن زيد ومولـه ابن حجور
هل أتاكم فعل العبيد وما — جاؤوا إليه من الفعال النكير
جلبتهم لأرضنا عصبة منا — ضلالاً لحينهم والدبور
فانتقمنا منهم وثرنا عليهم — ثورة ليس أمرها باليسير
وطردناهم فهم بين مقتول — صريع مدعثر وأسير
وسقيناهم زعافاً من السم — خموراً ما ذوقها بالخمور
ثم ثاروا واستنهضوا — كل من حاز أعالي تهامة للنفور
فأتتنا أعلامهم أنهم قد — يقصدونا بكل جمع كثير
ولعمري لو صادفوا غير ما — صادف من قدموا من التدمير
أيها الراكب المغذ على وجناء — تنقض كانقضاض الصقور
أقر قومي عني سلاما — كنشر المسك طيباً قد شيب بالكافور
ثم قل لي لهم مقال مهيب — بهم ملمع بحث المسير
فأجيبوا صوتي ولبوا ندائي — ليس في خذلكم لنا من عذير
لا يكن أعبد بها ضرب الموج — بها أمس من أقاضي البحور
وعلوج خزم من الحبش أحمى — منكم عند دعوة المستجير
إن عزي لكم وذلي عليكم — عائد ضره لطول الدهور

وكما استنجد بهمدان في الشرق والشمال، عاد ينفخ في قبائل تهامة، من علكّ لمصاقبين له غرباً لبني مشعل والزعلية وبني علي؛ مستثيراً لهم ضد النجاحيين:

أقر السلام على ذؤابة مشعل — والشم من زعل وصيد بني علي
وأخصص بأطيبة كواكبها الألى — خصوا بكل فضيلة وتفضل
بحبوحة العرب الذين علاهم — أرست على فلك السماك الأعزل

وأقول قد أخبرتكم فرضيتم   خبر الخبير به الذي لم يجهل
وعددتم قولي حديث عدالة   واللّه يعلم أنني لم أهزل
إن نمت يا قحطان عن شيد العلا   والمجد كالمستوسن المستثقل
عن نقم ثارات لكم وطوائل   إن العبيد عقودها لم تحلل

وأحسب النصّ التالي الذي يعرّض فيه بأخيه سليمان، ويقسم بالله مرتين والثالثة بالمنصور العبيدي، أحسبه قاله بعد فتكه بأخيه سليمان:

شابوا وما شيدوا مجداً ولا كسبوا   فخراً وشدت المعالي قبل احتلم
كانوا وكنت كما قال الحكيم وقد   أوصى ابنه ومرير العمر منخرم
كرمة حولها من أنسر جمل   وها أنا النسر كثر حولي الرخم
يقول هل لك في البقيا فقد بلغت   مرادها بي جميع العرب والعجم
حتى متى كلّ إنسان لصاحبه   مشمر وهو لحم واحد ودم
فقد تماديت في لومي وفي عذلي   ظلماً وعروة مجدي ليس تنفصم
سائل لتعلم عن حالي وحالهم   ظلمت في كل ما قد كان أو ظلموا
واللّه واللّه والمنصور ثالثة   إاليّة قسماً ما مثلها قسم
ما كان ذلك من رأسي ولا غرضي   ولا درت لي في غاياتهم همم
حتى بدت لي بوادٍ منهم جدعت   أنفاً من المجد في عرنينه شمم
واستحسنوا من قبيح الفعل ما وخدت   عنهم به في البلاد الأينق الرسم
تعدياً في حدود اللّه وارتكبوا   محارماً وفسوقاً دونها نقم
لا يستفيقون يوماً عن ضلالهم   فيرجعون ولا يلوي بهم ندم
ولا يخافون مكر الله إن برزوا   له بما اقترفوا جهراً وما كتموا
وبعد ذلك صبّ اللّه صاعقة   عليهم وأزيلت عنهم النعم
حتى كأن الذي كانوا به عرفوا   من نعمة كان شيئاً ساقه الحلم
فاعذل أو اعدل هذا أصل قصتنا   تنبيك عنها إذا استنبأتها الأمم

(٧)

محمد بن حمير

هو شاعر اليمن الأول، في القرن السابع الهجري، محمد بن حمير الوصابي، يقول الأكوع: إنه ولد بالحرف من وصاب، وانتقل بعد حين مع أسرته إلى راس وداي سهام، وأنه توفي بزبيد سنة ٦٥٠هـ، وكان لمشائخ الصوفية حيز كبير من إنتاجه الشعري، ولا عجب فالصوفية الصادقون هم المسلمون حقاً، بل هم آباء المجتمع المسلم في سائر البقاع، وعلى مدار التأريخ، ومن ذا الذي ينكر أهمية عمالقة التصوف في المجتمع، وتربيته، وتضميد جراحه، وإعانته على النهوض من عثاره؟ أمثال: أويس القرني، والحسن البصري، وأبي سليمان الداراني، وأبي القاسم الجنيد، وعبد القادر الجيلاني.

ولقد برز باليمن في القرن السابع، وهو قرن أفول الدولة المركزية الأولى ببغداد، برز عمالقة في الإصلاح، جاءوا من الشعب، وكانوا بواقع عطائهم النقي السخي أباء الشعب المظلوم المحروم أمثال: إبرهيم الكينعي، وأبي الغيث بن جميل، وأحمد بن علوان، ومحمد بن حسين البجلي، ومحمد بن أبي بكر الحكمي، وأحمد بن موسى العجيل، رضي الله عنهم، ونفعنا ببركاتهم.

ولأنّ البجلي والحكمي كانا ذا حضور كبير في ديوان ابن حمير، فأنبّه إلى أنّ البجلي كان غزير العلم، وثيق الصلة بربّ العزة، رحيماً بالعباد، متعففاً عن الدنيا. يروى أنه كان يركب حماره أكثر من مرة من سهام إلى تعز؛ تشفعاً في مظلوم، وسعياً لنفع محروم. ومن شعره الدالّ على فضله الناطق بشعاره في هذه الدنيا، ومنهاجه الدؤوب في منفعة العباد:

هذي بنات المخاض قاعدة   والعَود في رحله وفي قتبه
لم يسترح من مضاض رحلته   من راحة العالمين في تعبه

وكذلك كأن شأن زميله الصالح الحكمي؛ فلا غرو يحتفظ لهما الضمير الشعبي بالحبّ الخالص، وكان من حسن حظ ابن حمير أن يزورهما في حياتهما - إذ عاش البجلي حتى سنة ٦٢١ هـ - ويتعاطف مع ذريتهما من بعدهما. فمن مدائح ابن حمير لهما قصيدة له يبدأها بغزل رقيق؛ آثرت إيراده لنعرف سلامة الشعر اليمني يومها من العاهات التي أصابت شعر الأقطار الأخرى، في عصور الانحطاط:

من مجيري من شبيه القمر   مائساً مثل القضيب النضر؟
من عذيري من هوى ذي حور   لحظه يفعل فعل القدر؟
لو رأيتم خدّه مهما بدا   لرأيتم زهراً في نهر
لو رأيتم عطفه في ردفه   لشهدتهم أسمراً في أعفر
عامريّ أهله من عامر   دارهم بين الغضا والسمر
سكنوا مني السوادين فهم   في فؤادي إن نأوا عن بصري
وأعاضوني بنومي سهرا   فإلى كم أشتكي وآسهري
يا خليلي إلى كم ذا وذا   يتقضى في الأماني عمري
كلما لاح بريق بالغضا   قل عن أهل الغضا مصطبري
كلما عرض ركب بالحما   قلت يا ركب عسى من خبري
يدّعي لشعر رجال طالما   أغرقتهم قطرة من مطري
لا «زهير» فيه يقفوني ولا   لـ«جرير» مركض في أثري
ليس من يغرفه من زاخر   مثل من ينحته من حجر
أنا للقوم أخير أول   وخيار الليل وقت السحر

وإذا كان من السهل أن يمدح الشعراء الأحياء المعاصرين؛ طلباً لرفدهم، فإنَّ حقيقة الولاء لا تظهر إلا بعد الوفاة، وهذا هو ابن حمير يرثي البجلي بقصيدة هي من أغلى المراثي، أنطقه الحب والصدق بها، وتعرف من أبياتها التالية خلال البجلي العظيم:

للّه آية سؤدد وجلال   حملوه من فوق السرير العالي

ماذا تداولت الرقاب عشيةً ... من بدر أندية وبحر نوال
كنت الجمال لكل دهر عاطل ... في اليوم عطل كل دهر حالي[1]
من للعظائم إن فقدت يزيلها ... عن حالها ويفك كل عقال؟
من صاحب الوجه الوسيم ... وصاحب الجاه الجسيم وكعبة النزّال؟
يا ابن الحسين وكم أجبت قبيلها ... صوت وكم أصغيت عند مقالي؟
كانت بك الأوقات وهي منيرة ... فاليوم أيام الغوير ليالي
كان اللهيف إلى ظلالك يلتجي ... فاليوم قد أضحى بغير ظلال
قد كنت براً للجميع ووالدا ... للشيب والشبان والأطفال
فاليوم ضاع السرب بعد رعاية ... سلفت وبتّ الحبل بعد وصال
لا الأثل من شطي سهام بمعشب ... والماء حتى الماء غير زلال
والأرض غير الأرض والدنيا سوى ... ما كنت أعهد في الزمان الخالي
كنت الهلال لغورها ولنجدها ... فاليوم مشرقها بغير هلال
طود تصدَّع من بجيلة بعدما ... قد شاد أي معالم ومعالي
إن يحملوك إلى الضريح فطالما ... قد كنت عنهم حامل الأثقال
أو يدفنوك فلا هواناً إنما ... للترب مسرى العارض الهطال
لو كان غيرك ما بكينا إنما ... نبكي على الماضي بغير مثال
باللّه يا قبر الفقيه «محمد» ... هل أنت عن علم برد سؤالي؟
باللّه يا قبر الفقيه «محمد» ... ماذا صنعت بوجهه المتلألي؟
لو أن تربك بالترائب يشترى ... وازنتُه المثقال بالمثقال
لو كان لي أمري دفنتك في الحشا ... وجعلت صف اللبن من أوصالي
وآوحشتاه على البلاد تعطلت ... وخلت على كثر من الحلال
ما لليالي في تهامة كلها؟ ... طالت وكانت قبل غير طوال
عفت الديار فلا ديار وغاب من ... قد كان مالاً للقليل المال

---

(١) حالي: من الحلية.

فهو الذي قد كان من أخلاقه ... بذل الندى وهداية الضلال
لهفي عليك ولهف عك كلها ... من أقدمين وأوسطين وتالي
لهف الصحائف والصحاف ولهف من ... طلب المال ولات حين مال؟

ويظهر أن تراخي الزمن قد فعل فعله في ذريتي البجلي والحكمي، وأحسَّ ابن حمير فتوراً منهم نحوه؛ فأنشأ يعاتبهم:

يا دار أسماء بين البان والعلم ... سقى ربوعك هطال من الديم
يا دار أسماء عندي في الحشا ألم ... غالطت عنه فداوي بالهوى ألمي
يا دار أسماء إن أهلوك ما ندموا ... عليّ فإني عليهم ظاهر الندم
هم أرسلوا الطيف حتى زارني سحرا ... فمرحبا بمزار الطيف في الحلم
وإنّ أيسر حق أن أزورهم سعيا ... على الرأس لا سعياً على القدم
هم أسقموني دهراً لا عدمتهم ... وليس غيرهم يشفي من السقم
إن كان سمعي في أهل العقيق وعى ... سوءاً فعاقبه الرحمٰن بالصمم
أو كان قلبي يهوى غيرهم فهوى ... أو كان أبصر طرفي غيرهم فعمي
هم يعتبون ولا أصل لعتبهم ... ويعرضون وما الإعراض من شيمي
أخاطب البرق أن يسقي ديارهم ... ولو أراد بدمعي أو أراد دمي
ولو أرى لهم نقشاً على حجر ... قبلت ذلك حتى يمحي بفمي
باللّه يا ركب نجد إن عثرت بهم ... ذكر أحبتنا الماضين بالذّمم
أقسم لهم بحياة الحبّ إني لم ... أنفض يداً وكفى بالحب من قسم
وإن أَبَوْا فتعالَ أقصص لهم خبري ... فإنَّ شرح هواهم غير منكتم
الشعر يحسنه هذا وذاك وذا ... وأين كلّ كلام الناس من كلمي؟
وما استزدت بشيب الرأس منقصة ... فالباز مخلبه يدمي مع الهرم
ولا نكرت حقوق الأصدقاء ولا ... دعيت مذ كنت قطاعاً لذي رحم
يا سعد عج بي على القبرين وإبك ... معي عليهما وعلى أيامنا القدم
أيام كنت وكانوا جيرتي وأنا ... أهدي إلى البجلي المدح والحكمي

أيام ما ضمّنا لي في حياتهما بأنّ حبلي منهم غير منصرم
وبعد ذا أوصيا بي كل نسلهما أن لا أباع بمبخوس من القيم
أيام أمسك ذا زندي وذا عضدي وأمناني حتى صرت في حرم

ويحفل ديوان ابن حمير بالكثير من النصوص المضيئة لمعاناة الشعب، خصوصاً الزراع منهم بتهامة، من جرّاء الجباة، الذين كثيراً ما يرتكبون المظالم باسم الزكاة، التي يساء جمعها ويساء مصرفها، وتلك ظاهرة مكرورة للأسف البالغ في واقعنا اليمني، لم تفلح الأيام في التخلص منها، فنرى ابن حمير يشكو للملك المنصور عمر بن علي بن رسول من أمر تلك المظالم، بمنطقة الكدراء وسهام:

فارقت أرض سهام وهي موثرة لي السهام وفي كدرائها كدر
ما زلت أزرع زرعاً لا أفيد به شيئاً وزرع سهام كله ضرر
كم ذا أعدد للكتاب فاقرة والقوم لو سلموا في الدست ما اعتبروا
تمسي السكاكين ليلاً في دفاترهم تمحو وتكشط منها كلما سطروا
والصبح يصلح كل حرف حسبته والكستبانات عند القوم والأبر
لو أن ألف لجام في رؤوسهم سفوا اللجام وراح السرج والثفر
قوم تواصوا على فعل القبيح كما قِدماً تواصت على أبوالها الخمر
ألف وست مئين كلها اندفعت إلا القليل ونومي كله سهر
وزيّدوا في حسابي وهي عادتهم لا يبرح الفار تحت السد يحتفر
عظمي زجاج وجروا المنجنيقة لي أن الزجاج بأدنى الشيء تنكسر
عساك تعتق رقي من مطالبهم فقد مللت وما ملوا وما اعتبروا
أحسن رجوعي مدَّ اللّه عمرك لي وانظر إليَّ عسى أن ينفع النظر
إن التجار إذا عادوا وقد ربحوا أنساهم الربح ما عناهم السفر
واسلم ودم في نعيم لا انقضاء له يا أيها الملك المنصور يا عمر

ويكرر شكواه من المظلمة ذاتها:

وسهام أهلك أهلها وأخافني وأباد مالك كاتب الكدراء

كم قد شددت إلى فناك ركائبي   فاتي ورسم الأربعين ورائي
خربت سهام ولست تعلم ما جرى   والمال ملفوف بألف كساء
ضمنتها الرجل الأمين وإنما   كُتّاب حاصلها سوى أمناء
حلفته أن لا يشارك إنّما   خفيت عليه دقائق الشركاء
تصطاد صيد الوحش وهي سليمة   وتسام ناب الحية الرقطاء
ألفا معاد في سهام أغلها   كتبت باسم صهورة الفقهاء

وإذا كنا عرفنا من وقفتنا السابقة مع شعره عن معاناة التهاميين، وهو يذب عنهم، فعجيب أن نراه واقفاً بين يدي المظفر؛ يحرضه على الإيقاع بقبائل عك، ولعل ذلك ناتج عن تمردهم، وإخافتهم للسبيل، وفتكهم بالضعفاء المسافرين، فكانوا بذلك مظلومين ظالمين في آن واحدٍ، ولأجل ذلك فقد اتبع كثير من الدول طريقة أخذ خيولهم، حتى لا تبقى معينة لهم على فعائلهم:

لا ترحم الإعراب لا أعراب هم   ظنوا بأن الأمر متروك سدى
والله ما أيمانهم نفعت بهم   تركوا قصورك في المدائن فدفدا
لا سردد يؤتى ولا الكدرى ومن   يأتي ذؤال يجد خيولاً رصدا
أما الحراثة سرحوا أضمادهم   ما أن بقي أحد يركب مضمدا
وكذا النجابة ما بقي جمل لهم   يسري به الحادي إليك إذا حدا

ومن نصوصه الكاشفة لعبث بعض الموظفين بذؤال:

أما ذؤال فإنها في حالة   من صاحب الديوان لا تتكيف
والشيخ سائقها وممسها الذي   فيها على قرب المطامع يخرف
هذا يسف وذا يلف لما بها   والكل منهم للحواصل يتلف
والليل يجمعهم مقام واحد   والعود يحرق والغناء والقرقف

نخرج من هذا إلى مدائحه للمنصور بن علي بن رسول، وكان ذا نفوذ عريض أمكن له توحيد اليمن الطبيعية، بعد انتهاء حكم الأيوبيين في اليمن، بل امتدت يده إلى مكة وكان له مبرّات. وحين حاولت بعض جهات حجة الخروج

أوقع بهم في مبين والردينات وقلحاح وغيرها. ووقف ابن حمير يهنِئُه بانتصاراته المتتابعة، ومملكته الواسعة سنة ٦٣٤ هـ:

هنئت بالنصر لما جئت في لجب ... مظللاً بالردينيات والعذب
ومرحباً يا رسولي الملوك وإن ... غاب السماك ونسراه فلا تغب
غزوت «مبين» إذا هاجت شقاشقها ... وفي الردينات ألفافٌ من العرب
همّوا بما لم ينالوه وغرّهم ... ما غرّ أشعب أطماع من الكذب
وحَفّ جيشك من هنا بهم وهنا ... فما التقوك بغير الذل والهرب
قدمت والقوم في تيه وفي بطر ... فرحت والقوم في ويل وفي حرب
لما رأوك وخيل اللّه مقربة ... حوليك والنصر قبل الخيل في قرب
رأوا إلى ملك بالعدل مشتمل ... لا بل إلى ملك بالتاج معتصب
فسلموا وأقادوا من نفوسهم ... وتاب من كان قبل السيف لم يتب
وعدت في سورة الفتح التي قرئت ... وأهل قلحاح في (تبت أبي لهب)
وصاحب الغدر يوم الجاهلي ثوى ... جوعاً أو امرأته حمالة الحطب
أذللت عاتيهم واقتدت عاصيهم ... والسيف أصدق أنباءً من الكتب
فاليوم (قلحاح) لا يرغو بها جمل ... والذئب لو نطحته الشاه لم يثب
يا ثالث العمرين اسمع مدائح من ... مهدٍ لملكك شكر الروض للسحب
يدعوك يا ابن علي حين تسمعه ... يا جوهر الملك هذا جوهر الأدب
أعطيته ذهب الإحسان فانسكبت ... أشعاره ذهباً من ذلك الذهب
وعنده الخيل من نعماك صافنة ... والبرّ منك ومن أبنائك النجب
قد كنت أسقى بشعب واحد وكفى ... واليوم قد كثر الرحمٰن في شعب
من ها هنا ملك من ها هنا ملك ... من ها هنا ملك قاموا قيامك بي
لا أخشى الفقر بعد اليوم عندك بل ... عند المظفر صنو التاج والقضب
أكرمتني فرأيت الكل يكرمني ... نسبتني وإلى إحسانكم نسبي
مدّاح أولكم مدّاح آخركم ... ما خان في أول منكم ولا عقب

لم يدرك المتنبي بعض منزلتي — إذْ كان جار بني حمدان في حلب
ولا ابن هاني أيام الرشيد له — مثل الذي لي من نعماك من سبب
ماذا أعدد مما حزت من رتب — ومن يعدد قطر العارض السرب؟
وليس يكثر حصن حزت أو بلد — بعد الحجاز وبعد البيت ذي الحجب
ولو أردت الثريا من مطالعها — قلعتها وهي أم السبعة الشهب

ويبدو من النص السابق إعجاب ابن حمير بشاعريته ومفاخرته بها. كما يبدو من النص التالي أن ذلك الشاعر، غفر الله له، كان لا يتورع أحياناً عن الوقيعة بمن يجد في نفسه ضغناً عليه، أو تزلفا إلى المنصور بالإغراء. يقول جامع الديوان ص ٩٣:

(كان عمار بن الشيباني قيلاً كبيراً: يملك من حصون المعافر (يمين) و(منيف) و(السوا) و(السمدان) وغيرها، وكان مطيعاً للملك المنصور، ممتنعاً على حصونه، فوفد إليه الأديب جمال الدين محمد بن حمير، وأقام على باب داره ساعة من نهار، ولم يؤذن له فكتب إليه رقعة يقول فيها:

بالباب أصلحك الله امرؤ لسن — أمضه السير والإدلاج والسفر
وافى إلى أرض خولان فصادفها — مثل القتادة لا ظلّ ولا ثمر

فلما وقف على البيتين المذكورين، وقع على كتابه:

بل مثل الغمامة فيها الظل والمطر

ثم أذن له، فأكرمه، وأنصفه، فأقام عنده أياماً، ثم انصرف عنه فلقيه جماعة من عبيد عمار، فنهبوه؛ فاتهم عماراً أنه أمرهم بذلك، فقدم على السلطان نور الدين، فأنشده في مجلس الشراب:

ما شاق قلبي أحداج وأكوار — ولا شجتني أعلام وآثار
ولا أُسائل أهل النجدان إن نجدوا — ولا أسائل أهل الغوران إن غاروا
قد يزأر الذئب إذ لا حوله أسد — ويصهل العير إن لم يلق أخطار
سررت باليمن الميمون حين صفت — لابن الرسول فما في تلك أكدار
وكان فيها عضاريط زعانفة — فما بقي من بني البطراء ديار

لكن بقي فرد ثؤلول يعاب به — والنار تسهل مركوباً ولا العار
إن قلت لم يبق سلطان سوى عمر — قالوا بلى وبقي السلطان عمار
أو قلت لا قصر إلاّ قصر دملؤة — قالوا برأس يمين القصر والدار
أو قلت ما أحسن المعشار من جؤة — قالوا وليس إلى ذبحان معشار
فخذ يمينا ولا تقبل معاذرة — فالكلب حيث خلا بالعظم جبّار
لم يتفق قط سلطانان في بلد — هل يدخل الغمد بتار وبتار؟
ما غبت إلا رمى بالعين دملؤة — وظل ينشد والأقداح دوار
وابن المحلى يمنيّه بملحمة — كلاهما اتفقا طبل ومزمار
مولاي لا تحتقره فابن ملجم قد — عدا بحيدر والغدار غدار
بئس الخبيثة تحت الفرش قملة — والسدّ شر كمين تحته الفأر

فأمر السلطان نور الدين حينئذٍ بابن الشيباني، فجعل في سلة، ثم أُلقي من رأس الحصن. قالوا: ولم يكن ذلك بسبب ابن حمير، بل كان في قلبه منه شيء كبير).

(٨)

القاسم بن علي بن هتيمل

لم تكن تنقص القاسم بن علي بن هتيمل شاعرية البحتري، فقد كان يساميه جزالة لفظ، ومتانة أسلوب، وطراوة تعبير، وتحليق خيال، وإنما كان ينقص ابن هتيمل أنه ولد وعاش حتى مات بمنطقة أشبه بأن تكون صحراوية، خالية من الحواضر، وبعيدة عن العمران، ولو أنه حظي بوسط اجتماعي مزدهر، كما حظي البحتري من تألق نجمه في عاصمة الرشيد، وعلى بلاط المتوكل؛ لما كان صاحبنا الخزاعي أقل حظاً من ابن عمه الطائي.

ومن سوء حظ اليمن، ومن حسن حظها أيضاً؛ أن صارت بعد انتقال عاصمة الدولة المركزية من المدينة إلى دمشق فبغداد فالقاهرة؛ خلفية قصية جنوباً من رقعة الدولة الإسلامية. وكان من جراء ذلك أن بقيت في منطقة الظل، ينشأ فيها العمالقة

علمياً وأدبياً، ويتوارون دون أن ينالهم فلاش التأريخ بشيء من أضوائه، وإلا فما بال عمالقة علمياً كابن الوزير، والجلال، والمقبلي، والأمير، والشوكاني، وهم من هم؛ لا يزال يجهلهم سواد الأمة الأعظم. وما بال عمالقة شعرياً كبكر بن مرداس، ومحمد بن زياد المأربي، والحسين بن علي بن القم، وصاحبنا ابن هتيمل، وهم من هم شعرياً؛ لا تزال دواوينهم في أطواء النسيان، ومجاهل الضياع، وصدق من قال:

لا تحسبنَّ خفاء النجم من صغر   فذنب ذلك محمول على النظر

ولد القاسم بن علي بن هتيمل بمحلة تعرف بـ(نجران) من أعمال وداي ضمد، مما كان يعرف بالمخلاف السليماني، ويعرف اليوم بمقاطعة جازان. ولم يتيسر من المراجع ما يحدد تأريخه. وحسب تلك المنطقة المباركة أنها أمدّت الشعر اليمني خاصة والعربي عامة بشاعريها العملاقين: عمارة بن علي، والقاسم بن علي، وبينهما من الفارق الزمني مئة عام. وإعجاباً بهما وإنصافاً لهما قلت من قصيدة لي، عن عبقر؛ مشيراً إليهما:

ذان يا عبقر لا غيرهما   خمرة الشعر وعنوان الذخيرة

أما وفاته فالراجح أنها كانت سنة ٦٩٦هـ، وحين نحاول التعرف على عمره الشعري نجده عمراً غير قصير، ربما أربى على السبعين عاماً، فبرغم أن الذي بين أيدينا من شعره ليس إلا مختارات، أخرجها الأستاذ محمد أحمد العقيلي، ولا يزال الديوان بكامله بعيداً عن الطبع[1]. إلا أن هذه المختارات تقدم لنا ما يمكن اعتباره بداية لعمره الشعري. تلك هي قصيدته في رثاء الفقيه محمد. وقد ذكر العقيلي أنه يعني الفقيه محمد بن حسين البجلي، الولي الصالح؛ الذي تعرفنا عليه في حديثنا عن ابن حمير. ووفاة البجلي كانت سنة ٦٢١هـ.

تلك هي البداية، وفي المختارات أيضاً مدحة له، أثنى فيها على الأشرف عمر بن يوسف بن عمر بن رسول وهو تولى بعد والده المظفر المتوفي سنة ٦٩٤هـ. وعلى هذا فيكون بين البداية، وما يمكن أن نسميه بالنهاية خمسة وسبعون

(١) حقّقه لاحقاً، وأخرجه كاملاً: الدكتور عبد الولي عبد الوارث الشميري في مجلدين، وقدّم له دراسة نقدية في مجلد ثالث.

عاماً. وربما كان ذلك أطول عمر شعري لشاعر، ونظراً لذلك الطول في العمر الشعري، فضلاً عن العمر الطبيعي، فقد تعرض الشاعر لمحنة الأضداد من زعماء الساحة التي كان يعيش فيها، كما سنراه فيما سنمرّ به من شعره. ويعني دارسوا الشعر اليمني بالموازنة بين ابن هتيمل وزميله المعاصر محمد بن حمير، وقد قلنا في ترجمتنا لابن حمير: إنّه شاعر اليمن الأول في القرن السابع.

وأضيف هنا موضحاً؛ أن تلك الأولوية تصدق على النصف الأول من ذلك القرن، في مجال السبق الزمني وليس الفني، وقد كان النصف الأخير من القرن السابع الهالة الرحبة، التي تألق فيها بدر ابن هتيمل، على امتداد القرن، بل ما تلاه من القرون، فما أحسب اليمن أخرجت بعده شاعراً يماثله؛ شموخ قامة وغزارة عطاء.

وإذا جارينا المولعين بالموازنة بين الرجلين؛ فنقسم ذلك إلى قسمين: فنيّ وموضوعي، ففي المجال الفني نرى ابن هتيمل يمتاز بأربع ميزات. الأولى: أن شعر صاحبه ابن حمير كان يغلب عليه القعقعة والضجيج، بينما شعر القاسم أقرب إلى الهمس المركز العميق. الثانية: أن ابن حمير كان لا يسأم تكرار غزله التقليدي في أغلب قصائده، بينما القاسم يتنوع ويمتع. الثالثة: أنه يندر، بل يتعذر في شعر ابن حمير أي وصف للطبيعة. بينما المختارات القليلة من شعر القاسم تقدم نصوصاً بديعة من مناظر الطبيعة. الرابعة: أنه على حين يلتزم ابن حمير قوافي لا يكاد يتجاوزها. نرى ابن هتيمل ينيخ القوافي الصعبة، ويمتطيها كما سنراه في النصوص، ولعل مردّ كل هذا إلى سعة ثقافة ابن هتيمل وتعدد معارفه.

أما موضوعياً فكما كانت دائرة ثقافته رحبة؛ فقد كانت دائرة اتصالاته واسعة، فقد مدح الزعامات المتزاحمة على اليمن، من الحمزات في الجبال، والذرويين بصبيا، والكنانيين بحلي بن يعقوب، إلى المظفر ورجال دولته بتعز وزبيد، ويظهر أنه لم يمدح المظفر إلا بعد أن تعرض للاعتقال، وشيء من الاضطهاد، من قبل عامل المظفر على المخلاف السليماني. وإذا كان ابن حمير لم يقدم لنا شيئاً عن واقعه الأسري، فإنّ ابن هتيمل أكثر من النصوص العارضة لأحوال أفراد أسرته. وعلى تباعد ما بين مكان ابن حمير بسهام، ومكان ابن هتيمل بضمد، فقد كان كل منهما يكنّ ولاءً للآخر.

وفي ديوان ابن حمير رسالة مسجوعة؛ يطلب فيها من ابن هتيمل استرفاد أشراف المخلاف السليماني له.

وقد أجابه ابن هتيمل برسالة مماثلة، تضمنت أبياتاً تشهد بوده وإعزازه لابن حمير:

لانبا الغيث عن «سهام» ولا زا ... ل تمج المياه ريا «سهام»
قمت فرداً بدولة الملك المنـ ... ـصور بالشعر حين عزّ القيام

بعد هذه الإلماحة العجولة، نورد مختارات من نصوصه الشعرية، اقتطفناها من مختارات العقيلي له على ما في ذلك من سقط أبيات، وتشويه مفردات؛ حاولنا جاهدين تصويبها حيناً، وحيناً تفاديها[1].

فمن نصوصه الغزلية، وكان كثيراً ما يدبج مقدمة مدائحه بها نصوص قليلة اكتفينا ببعضها:

أذيّا طرفه الأدعج ... كطرف الرشأ العوهج
غزال مرّ بالصب ... فما عاد ولا عرج
ضعيف الخصر واهيه ... قويّ العصب المدمج
فما أتحف ما وشح؟ ... بل أنعم ما دملج
أبخلا بسلام اللّه ... يا صاحبة الهودج
تناءيت فلو عجت ... لقومت لي المعوج
وأجريت لي الزعزع ... بعد الأرج السجسج

ونص آخر من غزلياته:

أخبرينا أفي نقابك خذ ... ذهبي أم جلنار وورد؟
وأنبئينا أمن ثناياك في جيـ ... ـدك عقد أم في وشاحك عِقد؟
وعلى وجنتيك ماء ونار ... أم من الحسن فيه ضدّ وضد؟
أنت للخلق فتنة وقضا اللّـ ... ـه تعالى في خلقه لا يرد

(١) راجع ديوان «درر النحور» تحقيق وشرح د. عبد الولي الشميري؛ فقد تتبع شعر ابن هتيمل من مصادره المختلفة، وعالج تلك القصور، واكمل النقوص والديوان بتمامه الآن تحت الطبع.

زرت طيفاً فكان في البعد قرب منك إذ كان منك في القرب بعد
وتفننت في الملام فلا للصرم صرم ولا عن الصدّ صد
قتلتني هند وليس من الوا جب أن تستحل قتلي هند
روقة للقضيب والحقف والرمـ ـان منها عطف وردف ونهد

ومن وصفياته لمشاهد الطبيعة:

أعد لي أحاديث الغوير وكرر وهات لنا عن حاجر ومحجر
وكيف اللوى من بعدنا أرياضه ترفّ برقراق النضارة أخضر؟
يظل يناغي الشمس لؤلؤ طله بأبيض في أحوى الثياب وأصفر
كأن ذهاب المزن نمنم فوقه سبائب مرو أو درانك عبقر
إذا ما النسيم الرطب صافح تربه تعطر من حوذانه المتعطر
وهل من شميم الشيح والرند نفحة ممسكة في طي نشر معنبر؟

وفي وصفيه أخرى يقول:

يا برق حيّ براق (برقة ثهمد) وأنخ ركابك في الطلول الهمد
واخلع على الدمن الغوالي ديمة وطفاء تكسيها ثياب زبرجد
حتى ترف بأبيض في أخضر أحوى الثياب وأحمر في أسود
وترى الرياض ضواحكاً عن لؤلؤ متنضد أو نرجس متبدد
تفتر تلك عن ابيضاض الفضة الـ بيضاء وتلك عن احمرار العسجد

وإذا شئت صورة من عتابه الهادئ المؤثر؛ فهاكها يعاتب الفقيه مسعود بن عمرو:

تلبي صوت من ناداك جهرا لمنفعة وما لبيت صوتي
وإن قال الوشاة صغيت سمعا لهم وضحكت من كيت وكيت
إذا لم تصطنعني في حياتي فأي صنيعة لك بعد موتي
فإنك إن تعوض فيَّ غيري كمن باع المجلي بالسكيت
ألست تبيعني شعراً بشعر فكم من بائع قرشاً بحوت؟

خذ المثلي فكم ميتٍ كحي   فحاذرها وكم حي كميت
ولي في جيد مدحك مذهبات   يهجن نظمها نظم «الكميت»

وفي المختارات قصائد بعنوان الإماميات، امتدح فيها الأشراف من الحمزات الحاكمين لبعض الهضبات الشمالية، وقد كان أشهرهم وأقواهم: الإمام أحمد بن الحسين المعروف بأبي طير، الذي صرعه أبناء عمه، المنافسون له، بعد أن نازع الرسوليين عشر سنوات، وهو رحمه الله مدفون بذيبين. ولابن هتيمل فيه مدائح عصماء اكتفينا بواحدة منها، غنتها العصور؛ لعذوبتها وجزالتها وفخامة معانيها؛ رأيت أن أختتم بها حديثنا عن ابن هتيمل لطولها.

وقد كان متابعاً لنشاط الأشراف الذرويين حكام بيش وصبيا، وبالأخصّ القاسم بن علي الذروي، الذي ربما كان بشجاعته وسخائه بالغ التأثير على شخصية ابن هتيمل، حتى إنه ليشبهه في مصرعه بالحمزة بن عبد المطلب؛ لتشابه مصرعهما بالحربة:

وهب للتأسي قاسماً مثل حمزة   فحربة وحشيٍّ كحربة عاطف

ويقول عن سخائه، وإغنائه الشاعر عن استجداء الآخرين:

وبك اغتنيت عن الصعيد وصعدة   وغنيت عن أهلي سهام وجاحف

فهو ذا يحرّض القاسم على مواصلة تصدّيه لجيوش المظفر، ويؤاسيه في خذلان بعض عشائره له:

هيهات أن ترد الكتائب أجمتي   بيش وأنت لهنّ بالمرصاد
إياك تربية الأعاجم مثلما   ربَّي أبو حسن شقي مراد
أعدمتهم حرضاً وما أجلاهم   المهدي عن حرض وآل الهاد
فكأنهم بيت بلا عمد وهل   بيت يقوم لهم بغير عماد؟
ذهبوا ومات الجور في آثارهم   فكأنما كانوا على ميعاد
ودمغتهم بالخيل حتى يلحقوا   بحديد بأسك في ثمود وعاد
لا تجزعن لكون قومك أصبحوا   فئتين بين أصادق وأعاد

وأصبر فمرجعهم إليك وإنما تجري الشعاب إلى مسيل الوادي

ويواصل مديحه للقاسم الذي أفلح في مواجهة المظفر، ما لم يفلحه الحمزات في رأي الشاعر:

إن من دمنة الجروب إلى الأيك الحسيني من شآمي داره
سادة يطعمون ناشئة الليـ ـل ويستغفرون في أسحاره
يشهد الجيش أنهم رسل المو ت إذا ما تلثموا بغباره
خيرة الخير آل ذروة والقا سم منهم خياره من خياره
حسني نزار تحسبها منـ ـه إذا ما نسبته من نزاره
يجتنى اليمن من يمين أبي خا لد واليسر كله من يساره
كان يوم الجروب أشنع من كسـ ـرة كسرى والفرس في ذي قاره
لم يكن يبلغ المظفر لولا ك رؤوس صدرن من خان داره
فـ(الأميني) من برازك ولي عن علي في كفه (ذو فقاره)
ورأى في الفرار في يوم رحبا ن فكانت حياته في فراره
ودلفتم إلى المعين إلى (بيـ ـش) فلاقى وقوعكم بمطاره
لاذ بالدرب ثم أدلج يستر جف لما نزلتم لحصاره
سير تعجز القراطيس والأقـ ـلام عن شرح بعضها واختصاره
ولعمري لقد صددت عن المخلا ف عيث العبيد في أحراره
وتعززت في الرجيع على قو م أذلوا العزيز في أمصاره
ورثوا راشداً هداد ولم يبـ ـق الرياحي خادراً في جداره
وأذاقوا الحمزي كيما يبزوا ملكة من براشه وظفاره

ويواصل العزف على نفس النغمة، مشيداً بإيقاع القاسم بجيلحان، أحد قادة المظفر:

لقد نكلت عصبة جيلحان غداة السبت يا لك من نكال
تأمر في قرى المخلاف لما تولى في زبيد أو فشال

وظـن الـحـرب أكـلـة زبـربـاج   وشـرب الـخـمـر بـالـمـاء الـزلال
بـصـرت بـدائـهـم فـشـفـيـت بـيـشـا   وسـاكـنـه مـن الـداء الـعـضـال
حـسـوتـهـم الأسـنـة واقـدات   عـلـى أعـلـى الـذوابـل كـالـذبـال
فـكـان فـرارهـم أبـقـى وأنـقـى   وأنـفـع لـلـسـيـوف مـن الـقـتـال
ومـا صـرع الـوجـوه الـبـيـض إلا   تـوكـلـهـا عـلـى حـمـر الـسـبـال
فـمـا أغـنـى دفـاعـهـم وأغـنـت   مـدافـعـة الـنـسـاء عـن الـرجـال
فـأدلـج مـن بـروج الـدرب يـهـوي   إلـى الـسـبـلـيـن مـن أهـل ومـال
يـظـل الـيـوم أحـذر مـن غـراب   ويـمـسـي الـلـيـل أسـرى مـن خـيـال
ومـر عـلـى الـجـنـوب فـظـل يُـرمـى   كـرمـي الـنـاس قـبـر أبـي رغـال[1]

ولما سقط القاسم بن علي الذروي بحربة بعض أتباعه، وكان يدعى عاطفاً؛ أطال ابن هتيمل رثاءه له، وتفجعه عليه. نسمعه يخاطب محمد الصياد، معزياً في والده الشجاع:

تـأس فـمـا مـصـابـك كـالـمـصـاب   فـيـوم أبـيـك يـوم أبـي تـراب
ولا تـجـزع فـإنّ الـدهـر يـرضـي   ويغضب في المجيء وفي الذهاب
إذا اسـتـعـرضـتـه مـن حـالـتـيـه   أجلت الفكر في العجب العجاب
تـرى الـبـازي والأسـد الـعـفـرنـى   صـريـعـاً بـابـن آوى والـغـراب

ونراه يؤاسي خالد بن علي الذروي، حين تخلى عن إمارته لخذلان قومه:

ولـبـسـت الـشـفـاء أخـضـر يـهـتـز   بـه رونـق الـحـيـاة اهـتـزازا
أعـوز الـنـاس كـون مـثـلـك يـا خـا   لـد حـتـى تـحـقـقـوا الإعـوازا
وأرى الناس في التفاضل صنفيـ   ـن لـعـمـري حـقـيـقـة ومـجـازا
وردتـك الـعـفـاة بـحـراً خـضـمـا   ونـضـاك الإمـام عـضـبـاً جـرازا
ورأى مـنـك حـيـة تـعـجـز الـرا   قـيـن نـضـنـاضـة وخـصـمـا لـزازا

---

(١) أبو رغال: دليل أبرهة الحبشي في غزوه للكعبة.

لـو يـكـون الـحـمـام قـرنـاً وبـادر   ت إلـيـه الـبـراز خـاف الـبـرازا
ولـو أن الـكـريـم حـلـة نـسـج   كـسـروي لـكـنـت فـيـه طـرازا
حـرضـاً حـزتـه وأوقـدت بـالـرا   حـة بـعـد الـمـعـين نـار أخـزازا
حـزتـهـا عـنـوة وعـانـدك الإخـ   ـوان فـيـهـا فـحـازهـا مـن حـازا
فـأرح واسـتـرح مـهـابـا فـمـا نـلـ   ـت مـن الـمـتـرفـيـن إلا ابـتـزازا
خل أهل المخلاف عنك فقد خلا   الـقـتـادات يـنـبـعـاً والـحـجـازا
أنت تبغي بالسيف والرمح إعزا   ز قـبـيـل لا يـطـلـب الإعـزازا
كـلـمـا رمت أن يـكـونـوا صـدورا   جـعـلـتـهـم نـفـوسـهـم أعـجـازا

ويظهر أن أولاد القاسم بن علي الذروي لم يعودا يولونه الاهتمام اللائق، فأنشأ يعاتب أحدهم المعروف بعلي الخواجي، ويعرّض بملازمته للمظفر:

اقر ضيف الهموم في غسق الليـ   ـل أمـونـا فـي الـنـصـي والإدلاج
واغـتـرابـاً كـغـربـة ابـن مـضـاض   واعـتـزالاً كـعـزلـة الـحـلاج
كـم أصـادي وكـم أداجي فـمـا حـا   ل مـصـاد فـي نـفـسـه ومـداجـي
كيف أدلي دلوي وقد عطل الدهـ   ـر عـراهـا مـن الـرشـا والـعـنـاج؟
فـاتـنـي قـاسـم فـأظـلـمـت الـدنـ   ـيـا بـمـهـوى سـرّاجـهـا الـوهـاج؟
كنت أروى من لجة الزاخر العذ   ب فـمـن لـي بـحـسـوة مـن بـلاج
كـلـمـا سرت في الحسيني والأثـ   ـل شـجـانـي مـن الـحـسـيـنـي شـاج
وإذا سـرت فـي سـواه شـجـانـي   طـول مـكـثـي فـي ظـلـه ومـعـاجـي
بـلـد قـد حـبـيـت بـالأعـوج الـنـهـ   ـد فـيـهـا والـبـغـلـة الـهـمـلاج
مـا عـمـادي بـعـد الأحـبـة إلا الله   والـصـبـر أو عـلـي الـخـواجـي
عـلـم نـهـج بـيـتـه لـذوي الـحـا   جـات والـفـضـل واضـح الـمـنـهـاج
فـاتـح بـابـه إذا مـا ارتـج الـبـاخـل   عـن فـضـل قـوتـه بـرتـاج
عـامـل رمـحـه إذا لـج فـي الـمـشـ   ـهـد خـصـم دواء ذاك الـلـجـاج
ممتط صهوة الحصان إلى الصا   رخ قـبـل الإلـجـام والإسـراج

خلق للصديق كالعسل الآر ي وفيه حموضة السكباج
أنا أشكو لك الجفا وأحاجيك على كونه بترك الأحاجي
كان حبي لقاسم عندكم ذنـ باً فصارت مدائحي كالأهاجي
فإذا جئت للخروج تحاميـ تم كأني أتيتكم للخراج
أخلفت حاجتي لديكم فما آ سى وقد وفرّ المظفر حاجي
وسددتم خليج بحري فروى الـلّـ ـه أرضي بالبحر ذي الأمواج

ولما اعتقله رجال عامل المظفر؛ استنقذه سليمان بن وهاس الغانمي أمير جازان، فأطلق لسانه بالثناء عليه:

أنسيت سنة أعدائي فذكرني عهد الصديق فكنت الذاكر الناسي
وجلت في كنفي أرضي فعضت بها ذلاً بعزّ وإيحاشاً بإيناس
وكيف أنفق باقي العُمر في نفر لا الناس ناسي ولا الأجناس أجناسي
لا تطلب الرزق إن فاتتك عارفة إن لم يكن من سليمان بن وهاس
القائل الفاعل الطلق الغضنفرة الـ بحر الخضم الأشم الشامخ الراسي
كأن أنملة في كفه خلج أو ديمة من هزيم الودق رجاس
خلائق كرياض الحزن أصلها في لين سابغة ميثاء ميعاسي
فخراً بني غانم درت لكم نعم الد نيا انثيالاً بلا مسح وإبساس
أيامنا بكم غرّ محجلة فنحن في جمع منها وأعراس
كم من يد لك عندي قد أبدت بها وسواس كل ذميم الخلق دساس
أخرجتني من لهاة الليث منتقذا حوباي من بين أنياب وأضراس
من بعد ما نكص المولى وقد خنس الخل الذي لم يكن عني بخناس
فلو أطاعك جيراني بفعلهم في عجزهم ضرب أخماس لأسداس
ما رحت في أسر أجناد سواسية مراح ريدان في أسرا بن برطاس
هدية يتحظى بي مقدمها عند المظفر أو عند بن دعاس
فهل يضيع صنيع اليوم في فرس إلى صنيع دنانير وأفراس

هب أنها هبة منكم فكم حصن مطهمات وملبوس وأكياس

ولقد تحوّل من ممدوحيه بالسراة والأغوار، وانتجع تبع العصر موحّد اليمن ومكة المظفر يوسف عمر الرسولي، وقد طال حكمه من سنة٦٤٧هـ، إلى وفاته سنة٦٩٤هـ، معتذراً ومتوسلاً:

يا شمس ما أغناك عن مدحتي ما تفعل الشمس بضوء السراج؟
يا واسع المعروف صفحاً عن الـ محسوب قد ضاقت عليه الفجاج
اللّه يا يوسف لا تلجني في الخوف أن أركب رأسي هياج
مالك والسخط على كاسبٍ على زجاج كسراب زجاج
أوهى من الضبّ وأكدى من الضبي وأعشى من فراخ الدجاج
فالخضرم الأحوى إن هاج لا يركب والضيغم إن هيج هاج
شغلت قلباً انتجت ذاته نتائج الحكمة لا كالنتاج
لا تعزب الألغاز عن فهمه عيّاً ولا تغمض عنه الأحاج
هل عطفه يفرج عني بها الـ كرب فقد أعوزني الانفراج؟
جد لي بعفو منك أو رحمة تزعج عني أفكل الانزعاج
فالدلو لا يصلح من شأنها إلا العراقي والرشا والعناج
أخشى وأرجو وعسى الله أن ييسر الأمر لخاش وراج

ويمتدح عامل المظفر بجهة المخلاف السليماني، والغريب إنه يصم بعض حكم الذرويين بشدة الوطأة على الأهلين:

علم المظفر فيك ليث خفية وأراك تصلح كل أمر يفسد
فرمى بك الثغر المخوف وأهله هلكى النفوس قريبهم والأبعد
فنفيت منه الخالعين وقد خلا منه نمازة والغريف وعتود
أنقذت أمة أحمد من غمرة يجزيك عنها في القيامة أحمد
من بعد ما حزنت قرى بيش إلى حرض وكاد يمور مور وسردد
فعلوا بأهل اللّه ما لا يفعل المتمجس المتنصر المتهود

وقد آن لنا الانتقال إلى طرف من شعره الأسري، فنراه حين ألمَّ به مصاب ولده يفزع إلى قبر الرسول الأعظم محمد ﷺ زائراً، وهناك أرسل نجواه الضارعة ومدحته الشافعة:

لا ترهب الليل واركب ظهره جملا ... فخير مركبة ما كان كالقاري
وانزل بطيبة تنزل بين منبرها ... وقبرها بين جنات وأنهار
حيث النبوة والنور الذي نسخت ... بهديه ظلم الدنيا بأنوار
وحيث تلثم من قبر النبي ثرى ... أذكى من العنبر الشحري والداري
بمرسل الخلق إذ ضلوا وإذ وقعوا ... على شفا جرف من هلكهم هاري
أغرّ صور من فخر ومن شرف ... وصور الخلق من ماء وفخار
أسرى به اللّه إسراءً وكلمه ... من قاب قوسين أو أدنى بأسرار
وأمّ من أمّ من صف الملائكة الأ ... برار فاعجب على برّ أبرار
عزّت به العرب العرباء إذ نصرت ... على جموع لكسرى يوم ذي قار
ويوم بدر أمدّته ملائكة ... في جحفل كبياض الصبح جرّار
والجذع حنَّ إليه وابن جابر قد ... أبراه لما فرى أوداجه الفاري
والعضو كلمة إذ صار في يده ... بسمة من بغيّ ذات رثار
وفي البراق وفي ظل الغمامة والـ ... ـمعراج نصّ أحاديث وأخبار
وأنت يا راكباً تهوى به قلص ... كالطير منقضة تهوي لأوكار
أقر التحية من بعد النبي إلى ... مهاجرين وأشياخ وأنصار
وقل لأحمد عني قول معترف ... من الحقوق بتقصير وإقصار
واللّه ما طلعت شمس ولا غربت ... إلا وحبك إسفاري وأسماري
ولا شرى البرق من تلقا أرضكم ... إلا وبلبل بالي برقها الساري
فاقبل معاذيري اللاتي أتيت بها ... واللّه يعلم أعذاري وإعذاري
إني رجوتك والأيام قد نحلت ... عودي وأثقل ظهري حمل أوزاري
بدلت من قوتي ضعفا ومسكنة ... والمرء يخلق طوراً بعد أطوار

من لي ومن لبني الذاهبين على رغمي بقتلة مقداد وعمار
لي أسوة في علي والحسين وفي ثار لحمزة لم أحصل على ثار
فوضت أمري إلى اللّه المهيمن في حل وعقد وإيراد وإصدار
فما استخرت بغير اللّه منه ولا اسـ ـتغفرت للذنب منه غير غفار
وما مدحتك إلا للشفاعة في قومي غداً لا لدينار وقنطار
ما ينشد المنشد المثني عليك وقد أثنى الإله بما يقرب به القاري
إذا مدحت بآيات الكتاب وفي الـ ـتوراة ماذا عسى سجعي وأشعاري

ولعل زوجته الأثيرة لحقت بربّها في ريعان شبابها، في حادث ولادة؛ فقال يبكيها:

بنفسي عصر يوم السبت نعش تداوله المناكب والرقاب
تسل إلى الحفيرة منه شمس تبلج في جوانبها شهاب
من الخفرات يخفي الليل منها إذا ما جنّ ما لا يستراب
ففي الوقدات كانون إذا ما لهوت بها وفي الشوات آب
تكفن في الثياب فليت جلدي لها كفن وليت دمي خضاب
أقلبي مضغة أم طود رعن وأضلاعي عظام أم هضاب؟
فإن ترثي فلا وجد كوجدي وما كمصاب فاطمة مصاب
ألم المعزبي أذا ابتعاد عن الوطن القريب أم اقتراب
أهاب عليك عادية الليالي ولا أخشى علي ولا أهاب
يجدد قبرك المعهود حزني مطاولة ومنزلك الخراب
وعزّ علي أن أمسي وبيني وبينك من سوى الدنيا حجاب
أحيي بالسلام فلا أحيا وأعلن بالكلام فلا أجاب
وما بيني وبينك قاب قوس وأقرب ما يكون القرب قاب
ولو أني قتلت عليك نفسي لكان خطاي في الفعل الصواب
ولو أديت حقك ما حلى لي لفرقتك الطعام ولا الشراب

واسمح للبلا بجمال وجه يؤثر في محاسنه النقاب
فما فعل الثرى ويد الليالي بجسم كان تؤلمه الثياب؟
وما فعلت محاجرك السواجي وما فعلت ثناياك العذاب؟
وما فعل الصبا الغض المباهي بزهرته وما فعل الشباب؟
تجاذبني النساء حبال ودّ وهيهات المودة والجذاب
فما عوض عن البيض الدآدي ولا خلف من الماء السراب
يهون لوعتي أن لا حساب عليك من الإله ولا عقاب(١)
وإن الدهر لان له المقاسي لعزته وذلّ له الصعاب
فما خلد الفواطم فيه قدما ولا سكنت سكينة والرباب
ستمضي إخوة كثروا وقلوا ويمضي أخوة خبثوا وطابوا
وتنصدع الصلاب الصمّ حتى يزايل بعضها الصمّ الصلاب
ولا يبقى على أمد الليالي من البشر القشور ولا اللباب
سقاك الرفه بعد الرفه حتى يمج ثراك دمعي والسحاب

وفي أسبوع واحد فقد أخته وأخاه:

بنفسي أنفس غصبت جهارا بأمر دق عن غصب الجهار
ولو طلبت بحكم الحرب عادت بحرب دونها حرب الفجار
بنت شرفاً بأعلام طوال معضلة بأعمار قصار
مصاب عم قحطان بن هود وحل فحص حياً من نزار
فأي زمام عادية لقوم ليوم الخطب أو يوم المغار؟
وأي أخ أشمّ وأي أخت رزيت وأي ظارية وظار؟
وأيّة جارة ومناخ ركب ونجعة مرملين وأي جار؟
غلام ليس كالغلمان خبرا وجارية وليست كالجواري
متى ترى بيتها تشبع ومهما ضربت به ضربت بذي الفقار

(١) يشير بهذا إلى معنى الحديث فيمن توفيت عند الوضع.

فأيهما على الخلوات أبكي | أبدر التم أم شمس النهار؟
مضت ما أبيضت الضفرات منها | ومات وما بدا شعر العذار
فيا رب العمامة كنت أحيي | عن الشنعاء من ذات الخمار
ويا عفّ إلازار لقد رزينا | على الأسبوع طاهرة الإزار
أكفك بالقناة أشف حسنا | بها أم كف أختك في السوار؟
وخدّك بالطلاقة كان أبهى | ضياً أم خدّها بالجلنار؟

وصدق من قال: إنَّ الشعر في بعض المواطن أدمع، فها هو ذا يسفح ماء قلبه على جدث ولده سلطان:

أتسمعني فداك أبي وأمي | من الأسواء لا خالي وعمي
فاشرح بعض ما ألقى وأشكو | مصائب قوضت فرحاً بغم[1]
وأنت أجلّ يا سلطان قدرا | وأشهر أن أكني أو أسمي
رزئتك غير مكتمل هلالا | كضعف رزية القمر الأتمّ
ويوم فجيعة إن غضت نهرا | علي كفجعة البحر الخضم
يقول الناس روحك غير روحي | لجهلهم وجسمك غير جسمي
أمّا علموا بأنك من حياتي | ومن موتي ومن بدني ولحمي
فوا أسفاً أبدر بعد بدر | أصاب به ونجم بعد نجم؟
تعالجنا بصولتها المنايا | فتخترم الأهمّ على الأهمّ

ونودع شاعر اليمن الكبير بمدحته هذه الرائعة، للإمام البطل أحمد بن الحسين؛ نوردها بكاملها ليعرف القارئ غير اليمني ما لليمن من شعر عال:

أنا من ناظري عليك أغار | وار عني ما زال عنه الخمار
يا قضيباً من فضة يقطف النر | جس من وجنتيه والجلّنار
قمر طوقه الهلال ومن شمـ | ـس الدياجي في ساعديه سوار

---

(١) يشير بهذا إلي موت ابن له، أكبر من سلطان.

صن محيّاك بالنقاب وإلا نهبته القلوب والأبصار
فمن الغبن أن يماط لثام عن محياك أو يحلّ إزار
عجباً منك تحت برقعك النا ر وفيه الجنّات والأنهار
لك فيَّ الخيار في القتل والمنّ جميعاً وما عليك خيار
من معيري قلباً صحيحاً ولو طر فة عين إن كان قلب يعار
لا الزمان الزمان فيما عهدنا ه قديماً ولا الديار الديار
بعض هذا يبلي الجديد ويفني الـ ـمرء لو أنَّ عمره أعمار
والليالي الطوال تنحت من جسـ ـمي ما أبقت الليالي القصار
أملا لا نوى نوار فما كان جميلاً أن تجتوينا نوار
أبصرت مفرقي فأفزعها ليـ ـل تمشي في جانبيه النهار
إنما العيش والهوى قبل أن ينـ ـجم ثدي أو أن يدبّ عذار
وعرام الشباب أشهى إلى النفـ ـس وإن كان في المشيب الوقار
لا يصدّ الملاح عن صلة العشا ق إلا القتير والإقتار
حفظ اللّه أحمداً حيثما كا ن وجادته ديمة مدرار
الشريف الشريف والجوهر الجو هر والخالص النضار النضار
سيد أمّه البتول وجدا ه المثنى وأحمد المختار
وعلي الرضي أبوه وعمّا ه عقيل وجعفر الطيّار
نسب ما نزار زائدة فيـ ـه ولكن تزيد منه نزار
باعث الخيل والكتائب ملأ الأ رض لا يشغل المغار المغار
شزباً ذو الخمار والداحس البحـ ـر أبوها والورد والخطار
كلّ يوم تحذي من الصخرة الصما ء نعلاً لم يحذها البطار
أبناناتك المواطر سحب قد تمادت في سحّها أم بحار؟
الضراب الحريق والنايل الدفا ع دأباً والجفنة الأكسار
ولعمري ما أقنعتني ظفار عنك إن كنت أقنعتك ظفار

قبل أن يجمع الخراج من العر ب وتجبي العراق والأمصار
وتلاقى الكماة والجحفل الجرّ ار فيها والجحفل الجرّار
يا ابن بنت النبي هب أنني في الـ ـودّ فيكم سلمان أو عمار
أنا من لا يزيد فيه ولا ينـ ـقص منه الإقلال والإكثار
ما عسى أن أقول فيكم وقول اللّـ ـه فيكم مدح وما الأشعار؟

العنقود الخامس

الحيوان في الشعر العربي

العنقود الخامس

الحيوان في الشعر العربي:

الإنسان والحيوان هما المواطنان النشطان في عمران هذا الكوكب العظيم، ذاك بقواه العقلية، وهي أهمُّ قواه. وهذا بقواه العضلية، وهي قوام وجوده، ومقصد إيجاده، ومن الحيوان: السابح في الدأماء، والسارح في الأرجاء، والسانح في الأجواء.

وعلاقة الإنسان بكل ذلك تأخذ أشكالاً متعددة، منها النفعي بأصناف الحيوان، التي منها يأكل غذاءه، ويشرب ألبانها، ويركب ظهورها، ويكتسي فراءها، إلى غير ذلك من المنافع. ومنها الجمالي، كما هو الشأن في الاستمتاع بجمال الغزال، وتغريد الطائر، وذكاء القرد، ودهاء الثعلب.

ومنها العلاقة القائمة على الحذر والتوجس، كعلاقته بالحيوانات الوحشية، من كواسر السباع، وجوارح الطير. وللأمم اهتماماتها بعالم الحيوان، وتراثها المتنوع في موضوعه، وأشهر ما عرفناه منها نحن العرب ذلك الكتاب الذي وضعه بيدبا، الملك الهندي، على لسان الحيوان استخلاصاً للموعظة، وتنبيهاً إلى العواقب، وقد أحسن ابن المقفع بترجمته للعربية، وعمل أبان بن عبد الحميد اللاحقي على تسهيل حفظه للبرامكة وللآخرين من بعدهم، فنظم ذلك في أربعة عشر ألف بيت مزدوجة، كما ذكره الصولي في (الأوراق).

وقد عني الكثيرون من علماء العرب المسلمين بدراسة عالم الحيوان؛ تعرفاً على منافعه، واستقصاء لخواصه، منهم: الجاحظ، والدميري، والناشري، غير أن كلَّ ذلك لا يعنينا هنا؛ لأنه صادر عن مجال العقل، وهو الراصد الباحث، وإنما الذي يعنينا هو ما ناله الحيوان من عاطفة الشاعر العربي، ففاض بالتعاطف الشعوري، الذي يخلع على الحيوان الكثير من الصفات الإنسانية، ويتسامى به عن حدود مداركه، ويخلع عليه من المشاعر والالتفاتات ما ليست منه، وليست

بحسبانه، وذلك هو جناح الشعر الذي يحلق بالمادة التي يعنى بها إلى ما فوق واقعها وقدراتها، فترى الحيوان من خلال العدسة الشعرية مسروراً مكتئباً منبسطاً منقبضاً نشيطاً كسولاً. وغالباً ما يصدر ذلك عن نفسية الشاعر في تصور جاد، وتعبير مشبع بالانفعال الخلاق، البعيد عن مجرد المفاكهة والمزاح، ولا عجب فكثير من أصناف الحيوان تحتل من حياة الشاعر العربي الأول خاصة أكبر مكان.

ولم يقتصر ذلك العطاء على الشاعر العربي البدوي العريق، وإنما امتدَّ طوال العصور، فشمل الشاعر العربي الحضري الأنيق، فعلى حين ترى في الجاهلية، أو قريباً منها، شاعراً كالقتال الكلابي، ينقطع مرغماً لفراره من الدولة إلى أجام الأسود وكهوف الثعابين؛ ترى شاعراً رقيقاً في القرن الثالث عشر الهجري هو عبد الرحمٰن الآنسي، يقف ديواناً كاملاً على ترجيع الأطيار بمرقص الأشعار، ومردُّ ذلك إلى أنّ كلاً منهما يمتح من نبع العاطفة الإنسانية، والفيض الشعوري، الموجود على تفاوت، في كل أفراد البشر.

ولقد حظي الحيوان بحيّز غير قصير من القرآن الكريم، فكان أن حملت سبع سور أسماء حيوانات[١]، وانتشرت في ثناياه عشرات الآيات المنبّهة على شهادة تكوين الحيوان، بمقدرة الخلاق الحكيم سبحانه، وحسن إبداعه، والممتنة بذلك على الإنسان كمظهر من مظاهر الرحمة الإلهية. وستكون وقفتنا في هذا الباب مع الحيوان في الشعر العربي، لا استقصاءً لكلِّ ما قيل، ولكن اكتفاءً بالميسور منه، كنماذج مغرية للراغب بالاستزادة في البحث عن أمثالها، وما أكثرها في ديوان الشعر العربي.

الناقة

هذا الحيوان الجبّار، سخّر الله قياده للإنسان، فكان المطّية في السفر، يقطع به الشواسع، ويحمل عليه الأثقال، وكان له من بطنه اللبن السائغ من بين فرث ودم، وللعربي الصحراوي مع هذا الحيوان صداقة ضاربة في القرون، وانتفاع متعدد الوجوه، ولقربها من قلبه؛ كان له معها شؤون، عرضها الشعر في صنوف الحالات والأطوار، فمنهم من يتحسس عواطفها، ويتأثر لتأثرها:

(١) هي بترتيب المصحف الكريم: البقرة، الأنعام، النحل، النمل، العنكبوت، العاديات، الفيل.

هوى ناقتي خلفي وقدامي الهوى وإنـــي وإيّـاهــا لـمـخـتـلـفـان

ويرى كثير الخزاعي أن انفعالاتها على طول أناتها واحتمالها، تكاد تأتي عليها، لولا تنفسها، وتفريجها عن نفسها، بما منحها الله من وسائل التفريج:

لـهـا أنّـة عـنـد الـعـشـاء وأنّـة سـحـيـراً فـلـولا أنّـتـاهـا لـجـنّـت

ويتسامى بها المتنبي؛ حتى إنَّه ليراها أذكى من ممدوحيه، الذين قطع بها إليهم القفار المترامية، حتى إذا ما رأتهم سخرت منهم، وضحكت هزؤاً بهم:

ما زلت أضحك إبلي كلما نظرت إلى من اختضبت أخفافها بدمي

ومن أملأ النصوص تعاطفاً معها، وحنواً عليها؛ أبيات المثقب العبدي، وهو يراها كلما جاء إليها متأوهة، مشفقة من وعثاء الرحيل، الذي لا ينتهي:

إذا مـا قـمـت أرحـلـهـا بـلـيـلٍ تـأوه آهـة الـرجـل الـحـزيـن

تـقـول إذا درأت بـهـا وضـيـنـي أهـــذا ديـنــه أبـداً وديـنـــي

أكـل الــدهــر حـلاً وارتـحـالا أمـا يـبـقـي عـلـيَّ ولا يـقـيـنـي

وكثيرة هي النصوص الممتلئة بالتوجع للناقة، وذكر أحوالها المتقلبة، بقدر ما هي قليلة النصوص التي تصف لنا ما كانت عليه إبل العرب، من القدرة على سرعة السير، وطيّ القفار، فلم أجد رغم تنقيبي الطويل نصّاً يتناول هذا الجانب، غير نص فريد لأبي دهبل الجمحي، وكان كثير الترحال من الحجاز إلى تهامة اليمن، وفي شعره الكثير من الأماكن اليمنية، حين كان يتردد على ممدوحه، بل صديقه أحد عمال بني أمية باليمن «الأزرق بن عبد الله المخزومي».

يستعرض أبو دهبل في نصّه التالي كيف أنه خرج بناقته، التي تباري الرياح، حقاً في سرعتها من مكة، بعد أن نادى المنادي للصلاة عشاءً، كما تدل عليه كلمة (أعتما) آخر البيت الثاني، وصلاة العتمة هي صلاة العشاء، فما انتصف الليل؛ حتى كانت قد جاوزت يلَمْلَم، وهو ميقات الحاج اليمني، يبعد عن مكة جنوباً بمرحلتين كما ذكره ياقوت، وما كاد عمود الفجر يعترض الفضاء، حتى كانت قد جاوزت بطن وداي اللّيث، من آخر بلاد الحجاز، تلقاء اليمن، وفي البيت الخامس يذكر دخولها منطقة البزواء، وقد احمرَّ الأفق بالشفق، وبقيت بقيّة من دهمة الليل.

وفي البيت السادس يذكر دخولها عليبَ ذا النخيل، مكاناً يدعى (روقة). ويختتم نصّه بالبيت التاسع الذي يخاطب فيه ناقته (فقلت لها: قد بعت غير ذميمة) ومعنى كلمة (بُعْتِ) هنا: لقد أوسعتِ السير، وبلغت المنتهى، حيث كانت قد نزلت وادي البرك، من أراضي اليمن، كما قاله ياقوت: وآن لها أن تستجمَّ وترد الماء، ومن مجمل هذه المساحة نعلم؛ أنها قطعت من العشاء إلى الضحى، بأخفافها المباركة؛ ما تقطعه السيارة اليوم، ولقد صدق موسى بن يعقوب إذ قال لأبي دهبل الجمحي، وهو ينشده الأبيات: (ما كنت إلا على الريح يا عمّ):

آلا علق القلب المتيّم كلثما   لجوجاً ولم يلزم من الحب ملزما
خرجت بها من بطن مكة بعدما   أصات المنادي للصلاة وأعتما
فما نام من راع ولا ارتدَّ سامر   من الحيِّ حتى جاوزت بي يلملما
ومرّت ببطن الليث تهوي كأنما   تبادر بالإصباح نهباً مقسما
وجازت على البزواء والليل كاسر   جناحيه بالبزواء ورداً وأدهما
فما ذرَّ قرن الشمس حتى تبينت   بعليبَ نخلاً مشرفاً ومخيما
ومرّت على أشطان روقة بالضحى   فما جرّرت بالماء عيناً ولا فما
فما شربت حتى ثنيت زمامها   وخفت عليها أن تجنَّ وتكلما
فقلت لها قد بعت غير ذميمة   وأصبح وادي البرك غيثاً مديما

ومن النصوص النادرة، التي ترسم لنا حال ناقةٍ، ركبها صاحبها، يمتدح ابن العباس، ويرجو نواله، فحيل بينه وبين البلوغ إليه؛ فعرض الشاعر لوصف حال ناقته، وهي تريد الإفلات من المدينة إلى الصحراء، فيحبسها عن الخروج باب القصر المنيف، ومن حولها يكتظ ازدحام الناس حول باب ابن عباس، فتقلق لذلك، ولا تكاد تستقر، وتفتأ ترسل بغامها، وهو على حدّ تعبير الشاعر (أجيج ابن ماء) وابن الماء: الطير الواقع في الماء، المتردد عليه:

فليت قلوصي عريت أو رحلتها   إلى حسن في داره وابن جعفر
إذا هي همّت بالخروج يصدّها   عن القصد مصراعا منيف مجير

تطالع أهل السوق والباب دونها   بمستفلك الذفري أسيل المذمر

فباتت على خوف كأنّ بغامها   أجيج ابن ماء في يراع مفجر

والمؤسف أننا حين نحرص على الاستمتاع بمشاعر الشاعر الأول، نحو ناقته؛ يقوم بيننا وبين النص صفاق اللغة الغريب، فالنص التالي لا يعدو ثلاثة أبيات، ومفتاحها كلها الشطر الأول من البيت الأول، حين نعرفه نتقمص تلقائياً نفسية الشاعر المكروب الملتاع إلى وطنه، ويزيده التياعاً حنين الناقة فهو يدعو عليها: (أرار الله نقيك في السلامى) فكلمة أرار الله: يدعو عليها أن يصيِّر الله (نقْيَها) وهو المخّ - يصيره ريداً أي: سائلاً أسود، يخرج من السلامى، وهي مفاصل العظام. ولماذا يدعو عليها؟ لأنها تزيد شجاه، وتضاعف لوعته، ويودُّ لو أنها استطاعت ضبط عواطفها، وكتمانها:

أرار اللّه نقيك في السلامى   على من بالحنين تعولّينا

فإني مثل ما تجدين وجدي   ولكني أسر وتعلنينا

وبي مثل الذي بك غير أني   أجلُّ عن العقال وتعقلينا

الفرس

لو ذهبنا في تفصيل محاسن الفرس، وتفصيل منافعه، لخرج ذلك في بحث مستقل، وقديماً ألفَّ المعنيون بهذا الغرض كتباً مطولة في الفرس، وفي الناقة، كما صنع أبو عبيدة والأصمعي وأضرابهما، وكذلك هو الأمر فيما لو ذهبنا إلى استيعاب ما ورد في أوصافهما شعراً؛ فذلك مضمار طويل جدّ طويل. ولقد رأيت المسعودي في (مروج الذهب) يفرد لتفصيل أسماء خيل السباق عدة صفحات منثورة ومشعورة، وقد وضعوا لها عشرة أسماء أولها: المجلّي، وهو السابق في الحلبة، الفائز بقصب السبق، ونعرف من هذا الاسم كيف الفرس السابق يجلو وجه صاحبه بين الرجال، ويليه المصلّي، وهو التالي له في المضمار، وعاشر أسمائه وآخرها السكيت، وأنت تعرف من هذا الاسم كيف أن الفرس العاثر المتأخر يجعل شأن صاحبه هملاً ساكتاً عن المنافسة، مسكوتاً عنه في الذكر.

ولهم في هذا نصوص شعرية عديدة، ليست من غرضنا، فمقصدنا هنا هو الشعر الضارب في أعماق القلب، الفوّار بالعاطفة، الممتلئ بالتعاطف الشعوري مع هذا الحيوان الكريم، وسترى في تقسيمنا لنصوص هذه الوقفة إلى قسمين؛ كيف يرتفع شعر التعاطف والاستنطاق على شعر الوصف والاستعراض. أول هذين القسمين إذن هو قسم يبدأ بوصف الفرس في محاسنه الجسمية واللونية، ونختمه بنصٍّ يرتفع بالاهتمام من الاقتناء إلى مستوى التبني. ومن النصوص المعروفة الشائعة أبيات أمرئ القيس في فرسه، حسبنا منها هذا البيت الجامع لصفات المرونة في الحركة:

مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معا كجلمود صخر حطه السيل من علِ

وبيتا ابن مسهر الموصلي، وهما من نفس النوع:

سود حوافره بيض جحافله صبغ تلوّن بين الصبح والغسق
من طول ما ركبا متن الدجى خببا وطول ما كرعا من منهل الفلق

وعلى منوالها أبيات إسحاق بن يوسف بن المتوكل، وكان يجيد الوصف لموصوفاته من الحيوانات:

وأشقر تحكيه البروق إذا اختفى بجنح سحاب من عجاج أثاره
رأى الشفق القاني وقد لاح نوره فطار إلى أفق السما فاستعاره
ولما جرى نهر السّما بعد فجره توضأ منه فأستمَّ شعاره
وصلت جياد خلفه قد تيممت ثراه وعادت لم تشق غباره

كل هذا الوصف الجمالي، والجهد الخيالي، يقف عند حدود محاسن الأعضاء والشيّات، وهي بمجملها تصدر عن عاطفة مقتنٍ نحو المادة التي اقتناها. لكن النصّ التالي لشاعر تميمي جاهلي، يرتفع بالفرس من كونها لدى بعضهم مالاً يقتنى إلى مستوى رفيع، هو كونها لديه أعزَّ أفراد الأسرة الذي بلغ إيثارهم له، بأن يشبع ويجوع العيال، وذلك هو مستوى التبنّي، أو ما فوق ذلك، ونرى هذا التسامي وقد ارتفع بالنصّ بشيء بعيد فوق كل النصوص السابقة.

ومما يزيد النصّ التالي قيمة أن تعلم أنَّ ملكاً طلب من ذلك الأعرابي إعارته

فرسه، وكان اسمها (سكاب) فامتنع من إعارتها أو بيعها. ومن ذا الذي يعير ابنه أو يبيعه؟ :

أبيت اللعن إن سكاب علق ... نفيس لا تعار ولا تباع
مفداة مكرمة علينا ... يجاع لها العيال ولا تجاع
سليلة سابقين تنا جلاها ... إذا نسبا يضمها الكراع
فلا تطمع أبيت اللعن فيها ... ومنعكها بشيء يستطاع

ننتقل إلى القسم الثاني، وهو الذي تَغْنَى نصوص ثلاثة منه باستعراض الإطار الخارجي للفرس، والمجال المنظور منه مجال الحركة والسرعة والجرأة. ثم نتلوها بالنصّ الرابع لعنترة، وقد تجاوز المجال المنظور من فرسه إلى المجال غير المنظور، هو مجال النفس نفس الفرس ساعة الطعان، وارتكاز الرماح في صدره، وستراه يبلغ ويرتفع على ما سواه، ولنبدأ:

يقول يحيى بن موسى الأهنومي، في وصف فرس المنتصر الكرار:

وسوف نقودها شعث النواصي ... طهارتها التيمم بالصعيد
أبت ظلَّ المعاقل واستعاضت ... به ظلَّ القساطل والبنود
إذا خرجت من الغمرات قالت ... لها فرسانها الأبطال عودي

ونصٌّ آخر للأخطل الكبير، يصف فرس المنكسر الفرار، وسترى في البيت الثالث، وقد أصاب شيئاً من التوفيق، في رسم شيء من التعاطف الشعوري بين الفرس والفارس:

ونجّى ابن بدر ركضه من رماحنا ... بنضّاحة الأعطاف ملهبة الخصر
إذا قيل نالته الرماح تقاذفت ... به سوحق الرجلين صائبة الصدر
فظلَّ يفديها وظلت كأنها ... عقاب دعاه جنح ليل إلى وكر

والنصّ الثالث ممتلئ بالغريب، الذي يحجب عنّا جمال المعاني والتخيلات، التي فاض بها لسان الشاعر وخياله، وسنعمل على تقريبها ما استطعنا، فهو في البيت الأول يصف مقدرة «العجلزة الفرس الصلبة الجمزة المدخر» التي تدخر نشاطها لساعة الحاجة إليه مقدرتها على اعتراض خيل المغيرين، ويستمرّ في

وصفها في البيت الثاني بأنها ممتلئة النشاط، (إذا عوقبت) إذا تكرر جريها مرة بعد أخرى، و(إن نوزفت) نافسها الكثير من الخيل في النشاط فإنها تبرز في (الحُضُر) وهو الجري السريع، ولم يكتفِ بالبيتين في وصف فرسه حتى أضاف ثالثاً، يذكر أنها وإن حرنت في سيرها؛ فإنها تظل من سرعتها كالسابح في الماء، وهي مروح إذا أسلست قيادها ململمة في صلابتها كالحجر، وهو بعد إيفاء وصفه لفرسه يعود في البيت الرابع والخامس يذكر أنَّ خيل المغيرين، التي اقتادت أنعام قوم الشاعر بـ(البراق): الأرض ذات الحجارة السوداء البيضاء في مكانها، يدعى (ذو شمر) فإنَّ فرسه ساعتها تقيد أوابد الخيل المغيرة، فلو طار ذو حافر قبلها لطارت، وعلى عادة الشاعر في توضيح معانيه لم يكتف بكل ذلك، وإنما أضاف لرسم الصورة أنه لا (السوذنيق) الشاهين، إذا رأى أرنباً سانحاً فانقضَّ عليه ليختطفه، قبل أن يلج في ساتر الشجر (ولجات الخمَرَ) ولا القوس الذي (تقمّص) أسرع في مروقه عن وتره إلى غرضه، بأسرع من فرس الشاعر الطيارة في سيرها، المنقضة على عدوّها:

وخيل تلافيت ريعانها ... بعجلزة جمزي المدخر
حموم الجراء إذا عوقبت ... وإن نوزقت برزت بالحضر
سبوح إذا اعترضت في العنان ... مروح ململمة كالصخر
دفعن على نعم بالبراق ... من حيث أفضى به ذو شمر
فلو طار ذو حافر قبلها ... لطارت ولكنَّه لم يطر
فما سوذنيق على مربأ ... خفيف الفؤاد حديد النظر
رأى أرنباً سنحت بالفضا ... فبادرها ولجات الخمر
بأسرع منها ولا منزع ... بقمصه ركضه بالوتر

بعد تلك النصوص الثلاثة نلتقي بسيِّدها فنياً، وألصقها بالقلب والوجدان شعورياً أبيات عنترة الفوارس، وهو يستنطق فرسه الأدهم:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها ... قيل الفوارس ويك عنترة أقدم
يدعون عنتر والرّماح كأنها ... أشطان[1] بئر في لبان الأدهم

(١) الأشطان: الحبال.

مَا زلت أرميهم بثغرة نحره ولبانه[1] حتى تسربل بالدم
فازورّ من وقع القنا بلبانه وشكى إليَّ بعبرة وتحمحم
لو كان يدري من المحاورة اشتكى ولكان لو عرف الكلام مكلّمي

ومما يؤسف له: أن العصر الذي نعيشه قد أذلّ ذلك الحيوان الكريم، وأساء استخدامه. ومن مشاهد ذلك الاستخدام السيئ ما يقدّمه النصّ التالي للشاعر السوداني المعاصر محمد الفيتوري، نورده لأنه من الشعر الإنساني الرفيع:

أيها السائق. رفقاً بالخيول المتعبة
قف. فقد أدمى حديد السرج لحم الرقبة
قف. فإنّ الدرب في ناظرة الخيل اشتبه
هكذا كان يغني الموت حول العربة

* * *

وهي تهوي تحت أمطار الدجى مضطرب
غير أنّ السائق الأسود ذا الوجه النحيل
جذب المعطف في يأس على الوجه العليل
ورمى الدرب بما يشبه أنوار الأفول
ثم غنى سوطه الباكي على ظهر الخيول
فتلوّت وتهاوت ثم سارت في ذهول

الأسد

ملك السباع وأمير الغاب. وأشهر شعراء العرب تعريفاً به، وذكراً له هو: أبو زبيد الطائي، ولم نجد في المنشور من شعره شيئاً عن الأسد، إنما هو وصفه النثري لضخامة ذلك الحيوان، وذكره لفتكاته. وكل ما نقدّمه عن الأسد هنا ثلاثة نصوص منها نصّان لأبي الطيب، يقص الأول منهما خبره مع أسد الفراديس، وقد اجتاز بها، فسمع زئير أسودها؛ فوجه إليها هذه الرسالة الشعرية؛ يطلب مسالمتها له، ويعرض عليها تعاونه معها، ويعدها بتحسن حالها ووفرة صيدها، إن دخلت

(١) اللبان: الصدر

في حلفه:

أجارك يا أسد الفراديس مكرم فتسكن نفسي أم مهان فمسلم
ورائي وقدّامي عداة كثيرة أحاذر من لصّ ومنك ومنهم
فهل لك في حلفي على ما أريده؟ فإنيّ بأسباب المعيشة أعلم
إذاً لأتاك الخير من كل وجهة وأثريت مما تغنمين وأغنم

وفي نصّه الثاني يعرض وصفاً ممتعاً لأسد الأردن، الذي واجه ممدوحه بدر بن عمار، فنعرف منه علو زئير الأسد، وترفقه في مشيته على الثرى، كيد الآسي على جسم المريض، واشتعال عينيه في الدجى، حتى كأنهما نار جماعة من الناس مخيمة في الصحراء، وكيف أنه يتوّج هامته بفضل ذيله؛ فتصير وكأنها إكليل، وهو أبلغ ما يكون في هذا النصّ، حين يعرض لنفسية الأسد المتوحد كالراهب في غابته، ولكنه لا يعرف تحليلاً ولا تحريماً:

ورد إذا ورد البحيرة شاربا ورد الفرات زئيره والنيلا
متخضب بدم الفوارس لابسٌ في عيله من لبدتيه غيلا
ما قوبلت عيناه إلا ظنتا تحت الدجى نار الفريق حلولا
في وحدة الرهبان إلا أنه لا يعرف التحريم والتحليلا
يطأ الثرى مترفقاً من تيهه فكأنه آسٌ يجسُ عليلا
ويرد عَفرته إلى يافوخه حتى تصير لرأسه إكليلا

النصّ الثالث لأبي عبادة البحتري، يتناول موضوع الأسد من زاوية غير زوايا المتنبي السابقة، إذ كان الأسد هنا مصاولاً للفتح بن خاقان في مواجهة صعبة، ولكن البحتري لم يقصر نصّه على تلك المواجهة، ورسم مشاهدها، وإنما ابتدأ النص بذكر مقرّ الأسد، وهو يتخذ من نهر نيزك سياجاً؛ فيحتل مغاراً قريباً من دار الفتح مؤتشب النبات، وكأنما هو يتذوق الأقحوان المفضض وحوذان الرياحين المذهبة، ومتى ما عنّ له فإنه يهاجم العانة والربرب، وهم سربان من حمر الوحش، يجر منها لأشباله الأشلاء الذبيحة طعاماً سائغاً:

غداة لقيت الليث والليث مخدر يحدّد ناباً للقاء ومخلبا

يحصنه من نهر نيزك معقل | منيع تسامى روضه وتأشّبا
يرود مغاراً بالظواهر مكثبا | ويحتل روضاً بالأباطح معشبا
يلاعب فيه أقحوانا مفضضا | يبضّ وحوذانا على الماء مذهبا
إذا شاء غادى عانه أو غدا على | عقائل سرب إن تقنّص ربربا
يجرّ إلى أشباله كل شارق | عبيطاً مدمّى أو رميلاً مخضبا
ومن يبغ ظلماً في حريمك ينصرف | إلى تلف أو يثن خزيان أخيبا
شهدت لقد أنصفته يوم تنبري | له مصلتاً عضباً من البيض مقضبا
فلم أرَ ضرغامين أصدق منكما | عراكاً إذا الهيابة النكس كذبا
هزبر مشى يبغي هزبراً وأغلب | من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا
أدل بشغب ثم هالته صولة | رآك لها أمضى جناناً وأشغبا
فأحجم لما لم يجد فيك مطمعا | وأقدم لما لم يجد عنك مهربا
فلم يغنه أن كر نحوك مقبلا | ولم ينجه أن حاد عنك منكبا
حملت عليه السيف لا عزمك انثنى | ولا يدك ارتدت ولا حده نبا

أمّا رائية بديع الزمان الهمذاني في الأسد، فإنها من نسيج الخيال، لا من واقع الحال.

أمّا النمر، وهو صنو الأسد قوة وفتكاً، فلم نجد ما يحسن إيراده عنه شعرياً، إلا نصّاً فريداً لزميله في غاره، وجليس ليله ونهاره القتال الكلابي، فاراً من بني أمية:

ولي صاحب في الغار هدُّك صاحبا | هو الجون إلا أنه لا يعلل
إذا ما التقينا كان جلُّ حديثنا | صمات وطرف كالمعابل أطحل
تضمنت الأورى لنا بطعامنا | كلانا له منها نصيب ومأكل

الذئب

حظي هذا الحيوان الجريء الفاتك بتعاطف شعري واسع، فنرى امرئ القيس في معلقته الطويلة، ترتفع نبرته الشعرية الإنسانية خاصة في خطابه للذئب، لتكاثر

وجوه الشبه في حالتيهما:

وَوادٍ كجوف العير قفر قطعته ... به الذئب يعوي كالخليع المعيل
فقلت له لما عوى إنَّ شأننا ... قليل الغنى إن كنت لما تحول
كلانا إذا ما نال شيئاً أفاته ... ومن يحْترث حرثي وحرثك يهزل

ولقد كان ذئب المرقش الأكبر أحسن حالاً من ذئب الملك الضليل:

ولما أضأنا الليل عند شوائنا ... عرانا عليها أطلس اللون بائس
نبذت إليه حزة من شوائنا ... حياءً وما فحش على من أجالس
فآب بها جذلان ينفض رأسه ... كما آب بالنهب الكميّ المخالس

وإذا كان القتال الكلابي فرَّ من ولاة أمية، واصطحب أسد الغار؛ فإنَّ الأحيمر السعدي أنس بالذئب، وفرَّ من سائر البشر:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى ... وصوت إنسان فكدت أطير

وهو القائل شارحاً وفاء للذئب: جليس صبحه، ونديم مسائه، الذي طالما أمكنت له الفرصة لرميه والفتك به، ولكنَّ شيماً أبت عليه أن يغدر بالصديق الوفي:

أراني وذئب القفر إلفين بعدما ... بدأنا كلانا يشمئز ويذعر
تألفني لما دنا وألفته ... وأمكنني للرمي لو كنت أغدر
ولكنني لم يأتمني صاحب ... فيرتاب بي ما دام لا يتغير

وقد كان الفرزدق كريماً مع ذئبه، ولكنه أعطاه، وقائم سيف بيده؛ حذراً من غدرات ضيفه المتكشر ضاحكاً، كلما فاز بقطعة شواء:

وأطلس عسال وما كان صاحبا ... رفعت لناري موهناً فأتاني
فلما دنا قلت ادنُ دونك إنني ... وإياك في زادي لمشتركان
فبتُّ أقدّ الزاد بيني وبينه ... على ضوء نارٍ مرة ودخان
وقلت له لما تكشر ضاحكا ... وقائم سيفي من يدي بمكان
تعش فإن عاهدتني لا تخونني ... نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

وأنت امرؤ يا ذئب والغدر كنتما   أخوين كانا أرضعا بلبان
ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى   رماك بسهم أو شباة سنان

أمّا ذئب البحتري فإليك شيئاً من خبره:

تسربلته والذئب وسنان هاجع   بعين ابن ليل ما له بالكرى عهد
أثير القطا الكدري عن جثماته   وتألفني فيه الثعالب والريد
وأطلس ملء العين يحمل زوره   وأضلاعه من جانبيه شوى نهد
له ذنب مثل الرشاء يجرُّه   ومتن كمتن القوسي أعوج منأدّ
طواه الطوى حتى استمر مريره   فما فيه إلا العظم والروح والجلد
سما لي وبي من شدة الجوع ما به   ببيداء لم تعرف بها عيشة رغد
عوى ثم أقعى فارتجزت فهجته   فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد
فأوجرته خرقاء تحسب ريشها   على كوكب ينقض والليل مسود
فما ازداد إلا جرأة وصرامة   وأيقنت أن الأمر منه هو الجد
فأتبعتها أخرى فأضللت نصلها   بحيث يكون اللبّ والرعب والحقد

متفرقات

ونحن هنا لا نستقصي ذكر الحيوان في الشعر العربي، وإنما نورد ما أمكن إيراده من الشعر بالتعاطف الشعري مع الحيوان أيًا كان. ومن هذا النوع قصيدة ابن العلاّف الطويلة في رثاء الهرّ، وكان يورِّي به فيما يقال، تحاشياً من ذكر ابن المعتز المرثي الحقيقي في القصيدة:

يا هرُّ فارقتنا ولم تعد   وكنت عندي بمنزل الولد

وهي طويلة، أثنى عليها ابن خلكان، وأورد الدميري جزءاً كبيراً منها. وفي الحرباء يقول كثير:

كأن يدي حربائها متشمسا   يدا محرم يستغفر اللّه خاضع

وأجمل منه بيتا ذي الرمة في الحرباء:

يظلّ بها الحرباء للشمس ماثلا لـدى الـجـذل إلاّ أنـه لا يـكـبـر
إذا حـول الـظـلّ الـعـشـيّ رأيتـه حنيفاً وفي قرن الضحى يتنصر

ومن عناية الشاعر العربي القديم بالحيوان، وامتلاء عاطفته بالعطف عليه، بيت زهير في الضفدع:

يخرجن من شربات ماؤها طحل على الجذوع يخفن الغمّ والغرقا

حتى الذبابة نالت نصيبها من الاهتمام، وفي قلب من؟ قلب عنترة الذي يردي الفوارس ويفتك بالأبطال:

وخلا الذباب بها فليس ببارح غرداً كفعل الشارب المترنم
هـزجـاً يـحـكّ ذراعـه بـذراعـه فعل المكبّ على الزناد الأجذم

ومن الحيوان الطير (الحمامة)

ما أحسب شاعراً أصغى إلى الحمامة، وتحدث إليها، وأنطق سريرتها بأشجى خطاب، وأعمق تصوير لانفعالاتها ونوازعها، كالشاعر اليمني عبد الرحمٰن بن يحيى الآنسي، صاحب ديوان (ترجيع الأطيار بمرقص الأشعار) ولولا أنَّ شعره حميني ملحون، لا يتيسر تذوقه إلا لليمانيين فقط؛ لأمتعت القارئ العربي بنصوص منه نادرة في الشعر العربي. والحمام أنواع، أرشقها خلقاً، وأجملها نغماً: ذات الطوق. يقول شاعر عربي، عن فعالية صوتها الرخيم، في نفسية الإنسان ذي الأشجان:

ربَّ ورقـاء هـتـوف فـي الـضـحـى ذات شـجـو هـتـفـت فـي فـنـن
ذكـرت إلـفـاً وخـدنـاً صـالـحـا فـبـكـت حـزنـاً فـهـاجـت حـزنـي
فـبـكـائـي ربّـمـا أرقـهـا وبـكـاهـا ربّـمـا أرقـنـي
ولـقـد تـشـكـو فـمـا أفـهـمـهـا ولـقـد أشـكـو فـمـا تـفـهـمـنـي
غـيـر أنـي بـالـجـوى أعـرفـهـا وهـي أيـضـاً بـالـجـوى تـعـرفـنـي

ويقول شاعر يمني في وصف ألوان ورقائه الصنعانية، ذات الألوان المتميزة، ناقلاً طيَّ أبياته أشواق أورقه الذكر، إلى ورقاء صديقه التي تبرَّع الشاعر بإبلاغ

خطبته لها في أبياته:

أبلغ إلى الورقاء تحية أورق عن صدق ودٍّ من فؤاد شيق
وأشرح لمسمعها كمال صفاته وجمال منظره وحسن المنطق
الورد ينشره حواشي برده واللازورد لجيده المتطوق
فكأنه لهب من الكبريت في الأنبيق فيه إثارة من زئبق
وتشاهد النسرين في أعطافه والنار حشو فؤادها المتعلق
من أبيض يقق وأصفر فاقع بادي الشعاع وأحمر في أزرق
فكأنه نور الصباح يضيء في شفق يلوح خلال غيم مطبق
يروي الأغاني والسماع ويحفظ القانون في النغمات حفظ محقق

أما استعراض جمال خلقها، فقد أورد صاحب مروج الذهب نصّاً يفي بذلك، ويربي عليه، قال:

(دخل ابن السماك على الرشيد يوماً، وبين يديه حمامة تلتقط حبّاً، فقال له: صفها وأوجز؛ فقال: كأنما تنظر من ياقوتتين، وتلتقط بدرّتين، وتطأ على عقيقتين. وأنشدونا لبعضهم:

هتفت هاتفة آذنها إلف ببين
ذات طوق مثل عطف النون أقنى الطرفين
وتراها ناظرة نحوك من ياقوتتين
ترجع الأنفاس من ثقبين كاللؤلؤتين
وترى مثل البساتين لها قادمتين
ولها لحيان كالصدغين من عرعرتين
ولها ساقان حمروان مثل الوردتين
نسجت فوق جناحيها لها برنوستين
وهي طاووسية اللون بنان المنكبين
تحت ظلٍّ من ظلال الأيك صافي الكتفين

فقدت إلفاً فناجت من تباريح وبين
فهي تبكيه بلا دمع جمود المقلتين
وهي لا تُضبَغُ عيناها كما تصبغ عين

البلبل

على كثرة إعجاب العرب بالبلبل؛ فلم أجد من أوفاه حقه غير شاعرين، أولهما شاعر اليمن المعاصر المجاهد الشهيد: محمد محمود الزبيري، في رائعته التي خاطب فيها البلبل، إذ كان يومها شريداً في عدن اليمنية، الراسفة في أغلال الاستعمار، فأفضى فيها بكل أحزانه، وأشجانه، وتصوراته؛ نكتفي منها بالثمانية الأبيات:

بعثت الصبابة يا بلبل ... كأنك خالقها الأول[1]
غناؤك يملأ مجرى دمي ... ويفعل بالقلب ما يفعل
سكبت الحياة إلى مهجتي ... كأنك فوق الربى منهل
وأنت السعيد الوحيد الذي ... حباك الزمان بما يبخل
غناؤك للطبع لم تكترث ... أضاعوا فنونك أم سجلوا
وتنشد وحدك ما إن تحسّ ... بمن يحتفي بك أو يحفل
كأنك حاتم في خدره ... يحيي الضيوف ويستقبل
أتوه فقيراً وفي صدره ... فؤاده وفي فمه مقول

وثانيهما، شاعر الشام المعاصر، بدويّ الجبل، محمد سليمان الأحمد في بلبله الصريع، فقد جاء في نصّه التالي بما يشهد ببقاء الشعر في العرب، ويشهد أنه مهما قست الظروف، واضطرب العصر، وأصاب الكثير من شعرائنا المعاصرين من بكم اللسان، وتحجر المشاعر؛ فلم يفهِ أغلبهم بشيء ذي بال «عن الطير أقول: يشهد أنه رغم ذلك فلا تعدم الأمة» فرداً كالبدوي يسدّ الثلمة، ويملأ الفراغ، ويفيض بالعطف والحنان، ونصّ البدوي النادر، يعرض مأساة الفنان، على يد الوحشيّ من بني هذا

---

(١) هذه من بعض تجنيات الشعر، وإلا فالخالق الأول هو الله تعالى.

الإنسان. فلماذا سدّد القناص رميته إليه، وهو لا يسمن، ولا يغني من جوع؟ وإنما قيمته الوحيدة ـ وما أكبرها ـ تصداحه الموصول العشايا والأسحار:

بلبلي مات حبيساً باكيا … لوعة الشعر على ذاك الحبيس
فقد الصبح أناشيد الهوى … بعده وانفرط العقد النفيس
عطلوا المجلس يا سماره … وأريقوا يا نداماي الكؤوس
قد قضى اليوم جليسي ومضى … لا تطيب الخمر من غير جليس
ما لأغصان الرّبى من بعده … تتهادى عاريات وتميس
وعروس الزهر هل يضحكها … مشرق الشمس وقد مات العريس؟
ويل أمّ الظلم ثكلي دائما … فنيت طسم ولم تبق جديس
إنّما الدنيا لمن كافحها … ومشى مستلئماً وسط الخميس
بلبلي مات ولم تنجع به … وصفة الرازي ولا طبُّ الرئيس
كفنوه يا زاهير الربى … واغسلوه بالمدام الخندريس
واصرفوا عني لميساً ما الذي … أبقت الأحزان مني للميس؟

* * * *

عاش ما عاش طليقاً بالربى … والرّبى حسن ولون وعبير
يتغنى بأناشيد الهوى … ناعماً بالعمر والعمر قصير
يرسل الأشعار في الأيك كما … أرسل الشعر حبيب وجرير
فغدا اليوم أسيراً بعدما … كان حراً بين روض وغدير
ارحموه واعطفوا ما شئتم … فأحق الناس بالعطف الأسير
هو يبكي وأنا أبكي أسىً … وكلانا ذو شجون وشعور
من لباب البُرّ قد أطعمته … ولقد أرشفته الماء النمير
وكسوت القفص الرحب الذرى … بالقباطي الموشي والحرير
غير أنّ الطير فاضت روحه … بين حزنٍ وشهيق وزفير

* * * *

بلبلي مات ولم تنجع به ... وصفة الرازي ولا طبُّ الرئيس
كفنوه بأزاهير الربى ... واغسلوه بالمدام الخندريس
واصرفوا عني لميساً ما الذي ... أبقت الأحزان مني للميس؟

* * * *

أيها الصّياد لا تنصب له ... شركاً واسمح بتقطيع الشرك
أيها الصيّاد ما أعجزه ... أيها الصيّاد بل ما أقدرك
دعه حراً واستمع تغريده ... هلة الصبح وقل: ما أشعرك
دعه حراً فلقد صوره ... خالق الكون الذي قد صورك
جارك الأدنى دعاه ظمأ ... وهجير فتفيأ شجرك
أنت سكران ولم تشرب طلا ... إنما البغي الذي قد أسكرك
تعس الصّياد من ذي قسوة ... جرَّب الدنيا طويلاً وعرك
مذ رأى البلبل في غفلته ... صوّب السهم إليه وبرك
فارتمى الطير صريعاً وهوى ... تاركاً أفراحه فيما ترك

* * * *

الببغاء

هذا الطائر الغريب العجيب، حظيٌّ من الشعر بما ينبغي أن يناله لجماله وذكائه. وكما أبدع الزبيري في بلبل عدن، أبدع في ببغاء بها ولبور من باكستان، أيام لجوئه بها، وقد كان يألف في إحدى حدائق بها ولبور ببغائه الجميلة؛ فيشاكيها ويناغيها، إذ كان رحمه اللّه صديقاً للطير، حفياً بها، متودداً إليها، وكانت أجمل هواياته بصنعاء اقتناء الحمام؛ كأفضل هواية يزجي فيها أوقات فراغه، من مهامه الكبرى، وهمومه الإسلامية والإنسانية الضخمة، فقال يعاتب ببغاءه التي تغيّبت عنه فجأة من قصيدة طويلة:

ألا يا أيها الببغاء حييت وأكرمت

نـزلـنـا فـي بـهـا ولـبـور ذات الـمـعـقـل الـثـبـت
أتـيـنـا الـروضـة الـغـنّـا وبـغـيـتـنـا بـهـا أنـت
فـمـا طـوفـت فـي أجـوائـهـا الـفـيـحـا ولا طـرت
ولا أسـمـعـتـنـا أنـشـودة الـفـجـر ولا فـهـت
ولا غـنـيـتـنـا صـوتـاً ولا شُـلـت ولا خُـلـت
لـمـاذا لـم تـكـونـي الـيـوم نـشـوى مـثـل مـا كـنـت؟
وأيـن ريـاشـك الـلاتـي بـفـتـنـتـهـا تـلـفـعـت؟
أغـاضـبـة عـلـى الـفـرس مـن زهـر ومـن بـنـت؟
ولـو كـنـت لـحـواء نـسـبـت أو تـحـدّرت
لـقـلـنـا قـد ورثـت الـطـبـع مـنـهـا أو تـعـلّـمـت!

وعلى عزوفي عن اقتطاف شيء من الحيوان الدميري، إلا أنّ نصوصاً موفقة له عن الببغاء أرغمتني على الوقوف عليها، والاستمتاع بها، والترّحم على فنّانينا الأجداد، الذين كانوا غايةً في الذوق، مثلما هم غاية في الخير. قال مورداً نصّاً لأبي إسحاق الصابئ، ونقتطف منه بعضه، ونشفعه بسائر النصوص التي أوردها في الموضوع:

ضـيـف قـراه الـجـوز والأرزّ ... والـضـيـف فـي إتـيـانـه يـعـزّ
تـراه فـي مـنـقـارهـا الـخـلـوقـي ... كـلـؤلـؤ يـلـفـظُ بـالـعـقـيـق
تـنـظـر مـن عـيـنـيـن كـالـفـصـيـن ... فـي الـنـور والـظـلـمـة بـصـاصـيـن
تـمـيـس فـي حـلـتـهـا الـخـضـراء ... مـثـل الـفـتـاة الـغـادة الـعـذراء
خـريـدة خـدورهـا الأقـفـاص ... لـيـس لـهـا مـن حـبـسـهـا خـلاص
تـحـبـسـهـا ومـا لـهـا مـن ذنـب ... وربـمـا ذاك لـفـرط الـحـبّ
تـلـك الـتـي قـلـبـي بـهـا مـشـغـوف ... كـنـيـت عـنـهـا واسـمـهـا مـعـروف
يـشـرك فـيـهـا شـاعـر الـزمـان ... الـكـاتـب الـمـعـروف بـالـبـيـان
ذلـك عـبـد الـواحـد بـن نـصـر ... تـقـيـه نـفـسـي حـادثـات الـدهـر
مـن مـنـصـفـي مـن مـحـكـم الـكـتـاب ... شـمـس الـعـلـوم قـمـر الآداب؟

أمسى لأصناف العلوم محرزا   وسام أن يلحق لما برزا
وهل يجاري السابق المقصر   وهل يباري المدرك المغرر؟
ذات شغا تحسبه ياقوتا   لا ترتضي غير الأرز قوتا
كأنما الحبة في منقارها   حبابة تطفو على عقارها

* * * *

أنت تبقى ونحن طراً فداكا   أحسن اللّه ذو الجلال عزاكا
فلقد جلَّ خطب دهراً أتاكا   بمقادير أتلفت ببغاكا
عجباً للمنون كيف أتتها   وتخطت عبد الحميد أخاكا؟
كان عبد الحميد أجمل للموت   من الببغا وأولى بذاكا
شملتنا المصيبتان جميعا   فقدنا هذه ورؤية ذاكا

الفراشة

يعجب الكثيرون من استرسال الشاعر العربي القديم في وصف الناقة، محبراً بها قطاعاً واسعاً من معلقاته وقصائده، ولكنّ العجب الحق أن نجد شاعراً معاصراً كإيليا أبي ماضي، يضع في رثاء الفراشة المحتضرة مناجاة لها، وتأسفاً عليها، وتبرما برياح الخريف، وتأوهاً على رحيل الصيف، قصيدة تبلغ اثنين وأربعين بيتاً، كلها ذوب القلب، وعصير الوجدان، أفرغها من قرارة العاطفة المتعاطفة مع حيوان صغير، وطائر غير كبير، ولكنه حي رفاف يملأ الحقول، مثلما يملأ قلب وعين رائيه؛ ارتياحاً واغتباطاً.

وأغلب الظنّ لو أن أحداً أعطى إيليا أسخى العطاء ليقول نصفها في رثاء ذي سلطان، وربّ صولجان؛ لما استطاع أن يأتي بشيء من ذلك، وهذا هو البرهان الحقيقي على أنَّ الشعر فيض عاطفة، وليس الانتزاع بالدلاء، من بئر الزيف والملق:

لو كان لي غير قلبي عند مرآك   لما أضاف إلى بلواه بلواك
فيم ارتجاجك هل في الجو زلزلة   أم أنت هاربة من وجه فتّاك؟
وكم تدورين حول البيت حائرة   بنت الرّبى ليس مأوى الناس مأواك

قالوا فراشة حقلٍ لا غناء بها ... ما أفقر الناس في عيني وأغناك
سيماء غاوية أطوار شاعرة ... على زهادة عبّاد ونسّاك
طغراء مملكة وشى حواشيها ... من ذوب الشمس ألواناً ووشّاك
رأيت أحلام أهل الحب كلهم ... لما مثلت أمامي عند شباكي
من نائمين على ذلٍّ ومتربة ... ومن تجار وأشراف وأملاك
وقصَّ شكواك قلبي قصة عجبا ... من قبل أن سمعت أذناي شكواك
أليس فيك من العشاق حيرتهم ... فكيف لا يفهم العشاق نجواك؟
حلمت أنَّ زمان الصيف منصرم ... ويلاه أحققت الأيام رؤياك؟
فقد نَعاه إليك الفجر مرتعشا ... وليس معناه إلا بعض معناك
فالزهر في الحقل أشلاء مبعثرة ... والطير.. لا طائر لا جناحاك
مدَّ النهار إليه كفٌّ مختلس ... وفتح الليل فيه عين سفاك
شاء القضاء بأن يشقى فجرده ... من الحليِّ وأن تشقي فأبقاك
لم يبق غيرك شيء من محاسنه ... ولا من العابدين الحسن إلاّك
تزود الناس منه الأنس وانصرفوا ... وما تزوّد إلا اليأس جفناك
يا روضة في سماء الروض طائرة ... وطائراً كالأقاحي ذا شذى ذاك
مضى مع الصيف عهد كنت لاهية ... على بساط من الأحلام ضحّاك
تمسين عند مجاري الماء نائمة ... وللأزاهر والأعشاب مغداك
فكلما سمعت أذناك ساقية ... جثثت للسفح من شوق مطاياك
وكلما نورت في السفح زنبقة ... صفقت من طرب واهتزَّ عطفاك
فما رشفت سوى عطر ولا انفتحت ... إلا على الحَسن المحبوب عيناك
وكم لثمت شفاه الورد هائمة ... وكم مسحت دموع النرجس الباكي؟
وكم ترجحت في مهد الضياء على ... توقيع لحن الصّبا أو رجعه الحاكي؟
وكم ركضت فأغريت الصغار ضحى ... بالركض في الحقل ملهاهم وملهاك
منوا بأسرهم إياك أنفسهم ... فأصبحوا بتمنيهم أساراك

جروا قصاراهم حتى إذا تعبوا … وقفت ساخرة منهم قصاراك
لولا جناحاك لم تسلم طريدتهم … قد نجياك ولكن أين منجاك؟
ها أنت كالحقل في نزع وحشرجة … وهت قواك كما استرخى جناحاك
أصبحت للبؤس في مغناك تائهة … كأنه لم يكن بالأمس مغناك
فراشة الحقل في روحي كآبته … مما عراه وممّا قد تولاّك
أحببته وهو دار تلعبين بها … وسوف تهواه نفسي وهو مثواك
قد بات قلبي في دنيا مشوشة … منذ التفت إلى آثار دنياك
لا يستقر بها إلا على وجل … كالطير بين أحابيل وأشراك
خلت أرائك كانت أمس آهلة … غناء فاليوم لا شاد ولا شاك
أرض خلاء وجو غير ذي ألق … بلى هناك ضباب فوق أشواك
فيا رياح الخريف العاتيات كفى … عصفاً فقد كثرت في الأرض قتلاك
كيف اعتذارك إن قال الإله غدا … هل الفراشة كانت من ضحاياك؟
يا نغمة تتلاشى كلما بعدت … إن غبت عن مسمعي هل غاب معناك؟
ما أقدر اللّه أن يحييك ثانية … مع الربيع كما من قبل سواك
فيرجع الحقل يزهو في غلائله … وترجعين وأغشاه فألقاك

طيور البحر

وخلال تطوافي بما تضمه مكتبتي من دواوين شعراء معاصرين؛ استبان لي ما يشبه الظاهرة: ظاهرة احتياز شعراء الشام لمساحة كبرى من الاهتمام الشعري بالطير خاصة، والحيوان عامة، وقد مرّت بنا نصوص لشعراء شاميين، وهذا شاعر آخر نلتقيه يصف طير البحر، هو الشاعر القروي: رشيد سليم الخوري، وهو شاعر جدير بالدراسة والتسجيل، فعلى نشأته من الصغر حتى الكبر في بيئات مسيحية، سواءً في وطنه الأول لبنان، ووطنه الثاني المهجر الأمريكي، فإنه كان يكنُّ لنبي الإسلام محمد ﷺ حباً جمّاً، تجلى في مدائحه له، وتغنيه بميلاده الكريم.

وقصيدته التالية تشهد بصفاء روحه، وفيضان عاطفته، ورحابة شعوره، هو ذا

يخاطب نوارس البحر محذراً لها من شصّ الآدميين، ومشفقاً عليها من ختلهم:

بيض كأعلام السلام ... على السفينة تخفق
طوراً تسفُّ وتارة ... يحلو لها فتحلق
سرب يرود الرزق من ... كف السلام فيرزق
ليست كعاقلة الطيور ... إذا دهت تتسرق
ترمي بسجيل يحرّق ... تارة ويغرّق
يا طير تأخذني عليك ... صداقة وتصدّق
دع خبز آدم إنه ... شصٌّ بحلقك يعلق
لطعامه وشرابه ... ذكرى تغصّ وتشرق
لا ترج منه الرفق ... فهو بجنسه لا يرفق

النسر

ومرة أخرى نلتقي بحسنة كبرى من حسنات الشام على شعر العرب، نلتقي بعمر أبي ريشة، الذي لا أغلو إن قلت: ما سئم جناحه التحليق، ولا كبا به خيال. يقصُّ محنة النسر بالسقوط من ذراه العالية، إلى السفوح غير اللائقة بطموحه وكبريائه، وما أحسبه في قصيدته التالية، إلا يقصّ علينا قصّة نفسه، وهو النسر الجبار الذي احتاشته الظروف القاسية، وانتاشته الضغوط؛ ليهب إلى أدنى؛ حيث البغاث الحقير، ولكنّ النسر (أبا ريشة) يفلت من كل الضغوط القاسية؛ ليطلق صرخته المدوّية في الأجواء، ويستقرّ بوكره في الذروة، مؤثراً البقاء فيها، ولو كانت قبراً على التزاحم حول الأشلاء المنتنة:

أصبح السفح ملعباً للنسور ... فاغضبي يا ذرى الجبال وثوري
إن للجرح صيحة فابعثيها ... في سماع الدنى فحيح سعير
واطرحي الكبرياء شلواً مدمى ... تحت أقدام دهرك السكير
لملمي يا ذرى الجبال بقايا النسر ... وارمي بها صدور العصور
إنّه لم يعد يكحل جفن النجم ... تيهاً بريشة المنثور

هجر الوكر ذاهلاً وعلى عينيه   شيء من الوداع الأخير
تاركاً خلفه مواكب سحبٍ   تتهاوى من أفقها المسحور
كم أكبت عليه وهي تندى   فوقه قبلة الضحى المخمور
هبط السفح طاوياً من جناحيه   على كل مطمح مقبور
فتبارت عصائب الطير ما بين   شرود من الأذى ونفور
لا تطيري جوابة السفح فالنسر   إذا ما خبرته لم تطيري
نسل الوهن مخلبيه وأدمت   منكبيه عواصف المقدور
والوقار الذي يشيع عليه   فضلة الأرث من سحيق الدهور
وقف النسر جائعاً يتلوى   فوق شلو على الرمال نثير
وعجاف البغاث تدفعه   بالمخلب الغضّ والجناح القصير
فسرت فيه رعشة من جنون   الكبر واهتزَّ هزة المقدور
ومضى ساحباً على الأفق الأغبر   أنقاض هيكل منخور
وإذا ما أتى الغياهب واجتاز   مدى الظن من ضمير الأثير
جلجلت منه زعقة نشت الآفاق   حرَّى من وجهها المستطير
وهوى جثة على الذروة الشماء   في حضن وكره المهجور
أيها النسر هل أعود كما عدت   أم السفح قد أمات شعوري؟!

العقاب

ومن مارد الشام إلى مارد مصر عباس العقاد، والعقاب الهرم، وعلى طريقة العقاد في الشعر، الذي لا يقف عند القشرة الخارجية للمادة التي يتناولها، وإنما ينفذ إلى أعماقها مستطلعاً خباياها، مستخرجاً ما يدور في حناياه من عواطف وانفعالات، وكأني بالعقاد وهو يخاطب عقابه الهرم، ويتوجع له، إنما يخاطب نفسه في شيخوخته ويتوجع لها، ورحم الله العقاد؛ فما كان أكبره عالماً ينافح عن الإسلام، وما كان أكبره، شاعراً مفتوح القلب والوجدان على كل هذا الكون بما

فيه ومن فيه:

يهم ويعيبه النهوض فيجثم ... ويعزم إلا ريشه ليس يعزم
لقد رنق الصرصور وهو على الثرى ... مكب وقد صاح القطا وهو أبكم
يلملم حرباء القدامى كأنها ... أضالع في أرماسها تتهشم
ويثقله حمل الجناحين بعدما ... أهلاه وهو الكاسر المتقحم
جناحين لو طارا لنصت فدوّمت ... شماريخ رضوى وأسقل يلملم
ويلحظ أقطار السماء كأنه ... رجيم على عهد السموات يندم
ويغمض أحياناً فهل أبصر الردى ... مقضّاً عليه أم بماضيه يحلم
إذا أدفأته الشمس أغفى وربما ... توهمها صيداً له وهو هيثم
لعينك يا شيخ الطيور مهابة ... يفرُّ بغاث الطير عنها وتهزم
وما عجزت عنك العداة وإنما ... لكل شباب هيبة حين يهرم

الكروان

هذا الطائر الذي لا ينام الليل، حظي من قلب العقاد بمكان كبير، جعله يفرد له ديواناً يحمل اسمه (هدية الكروان) وقد كان العقاد من كبار الشعراء المجدّدين في الذوق تجديده في التعبير، لم يشأ أن يكون الذوق العربي وقفاً على البلبل والحمامة، بينما هناك من الطير ما هو جدير بالاهتمام، وقمين بالبحث عنه، والإشادة به كالكروان فوفاه حقه، وأرسل فيه الرائع البديع من مقطعاته وقصائده. وهو ذا يقطع على نفسه عهداً للكروان أن يكون غرّيده الوحيد، في صيف كامل، لا يسمع سواه، ولا يعنى بغيره:

أنا صائد لصداك لست بصائد ... لك أنت يا كروان فأمن صائدي
بينا أقول هنا إذا بك من هنا ... في جنح هذا الليل أبعد باعد
وودت يا كروان لو ألقيت لي ... صوتين منك على مكانٍ واحد
إن كنت تشفق أن أراك فلا تزل ... في مسمعي وخواطري وقصائدي

عاهدت هذا الصيف لست بواهب سمعي سوّاك فهل تراك معاهدي؟

ويكشف في نصّه التالي: أنَّ علاقته بالكروان لم تقف عند حدّ صيف واحد، وإنما استمرت لتربي على العشرين عاماً، وأحسبه كان طائره المفضل، حتى لحق بربه؛ فرحم الله العقاد الفنان:

زعموك غير مجدّد الألحان ظلموك بل جهلوك يا كرواني
قد تغيرك وما تغيّر شاعرا عشرون عاماً في طراز بياني
أسمعتني بالأمس ما لا عهد لي بسماعه في غابر الألحان
ورويت لي بالأمس ما لم ترووه من نغمة وفصاحة ومعاني
أنا لا أراك وطالما طرق النهى وحيٌ ولم تظفر به عينان
أنا في جناحك حيث غاب مع الدّجى وإن استقر على الثرى جثماني
أنا في لسانك حيث أطلقه الهوى مرحاً وإن غلب السرور لساني
أنا في ضميرك حيث باح فما أرى سراً يغيبه ضمير زماني
أنا منك في القلب الصغير مساجل خفق الربيع بذلك الخفقان
أنا منك في العين التي تهب الكرى وتضن بالصحوات والأشجان
طرفي الظلام بمهجة لو صافحت حجز الوهاد لهم بالطيران
تغنيك عن ريش الجناح وعزمه فرحات منطلق الهوى نشوان
فرحات دنيا لا يكدّر صفوها بالمين غير سرائر الإنسان

فهرست الكتاب

العنقود الثالث

العنقود الرابع

العنقود الخامس

مؤسسة الإبداع للثقافة والآداب

صنعاء